374

FYODOR DOSTOEVCKY

روايات

دوستويفسكي

حلم العم

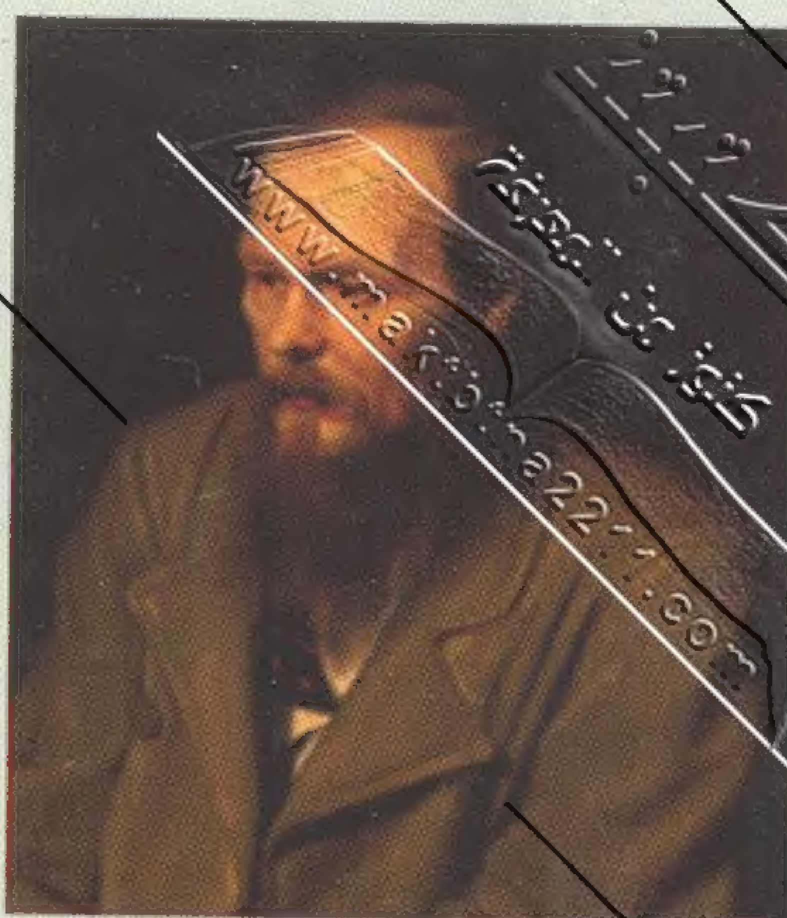
ترجمة: بدر شكري

A.M.



U N C L E ´ S   D R E A M

روايات



Monday
8/7/2013

حلم العمّ

لم يكن الأمير «ك» شيخًا بلغ المئة من عمره، ومع ذلك فقد كان لا يسع من يراه إلا أن يفكّر في أنّه كان على وشك أن يعود إلى أرذل العمر. وكان الناس في مورداسوف يتناقلون عنه أغرب الأمور، فبعضهم يقول إنه معتوه بعض الشيء، إذ إنّه لمن الغريب حقًّا لشخص [illegible] أنبل العائلات، ويملك أراضيَ يعيش عليها أربعة آلاف شخص، و[illegible] امتلاك نفوذ جدير بالاعتبار في المقاطعة - أن يظلّ معتكفا ك[illegible] الرائعة. وهؤلاء الكثيرون، الّذين رأوه منذ ستّة أعوام أو سبعة حين [illegible] زيارته الأولى لمورداسوف، كانوا يؤكّدون حينئذ أنّه لا يستطيع أن يحتمل الوحدة، وأنّه لا يتّسم بصفات النسّاك.

ISBN 978-6589-09-767-4



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 00962 6 4638688
فاكس 00962 6 4657445 منشورات 2013
الغلاف ® ، هاتف 00962 7 95297109

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

كتابنا القادم

هيفاء بيطار

غروب وكتابة



قصص قصيرة

دوستويفسكي

حِلمُ العَمّ

ترجمة: بدر شكري

مراجعة: ضياء المسعود



الفصل الأول

ماريا الكسندرفنا

لا شك في أنّ "ماريا الكسندرفنا موسكاليفا" تعتبر أهم سيدة في "موردسوف". ويبدو للمرء حين يقع بصره عليها أنها ليست في حاجة إلى أحد، بل إن الكل يدين لها بالجميل.. صحيح أنها ليست محبوبة جداً، بل ويكرهها بعض الشيء أكثر الناس في المدينة، ولكنها امرأة مرهوبة الجانب يَخشى بأسها الجميع، وهذا هو كل ما تريد.. أو ليست هذه هي سمة المرأة الكيّسة الذكية؟.. وعلى الرغم من أنها على قدر كبير من الفضول ولا تستطيع أن تنعم بنوم هادئ إذا لم تعرف جديداً في يومها، فإن من يراها ويلحظ تكبرها لا يدور بخلده أنها أكثر نساء العالم فضولاً، أو على الأقل، أكثر النساء فضولاً في مورداسوف، بل إنه ليبدو أنه حين ينظر إليها أن كل لغو يجب أن يكف، وأن الفضوليات يرتعدن أمامها كما يرتعد الصبي في حضرة مُدرسه، وأن الحديث يتحول على الفور إلى موضوعات أكثر جدية وسمو..

ومع ذلك، فإن "ماريا الكسندرفنا" تعرف كثيراً من الفضائح عن بعض سكان مورداسوف، وهي فضائح إذا ما خطر لها أن تذكرها ـ وهي تعرف تماماً كيف تذكرها في الوقت المناسب وتدعمها بالدليل ـ فإنها تزلزل كل

موورداسوف زلزلة لا تقل عُنفاً عن زلزال مدينة لشبونة المعروف.. ولكنها مقبرة للأسرار، ولا تقبل أن تتحدث عن بعض الأمور إلا إذا توفرت ظروف مناسبة، فضلاً عن أنها لا تفعل ذلك إلا مع المقربين من أصدقائها وصديقاتها.. فقد تُخاطر حينئذ بالتلميح، أو تُفهم الحاضرين أنها "تعرف". وهي تحب أن توحي إلى كل من حولها ـ رجلاً كان أو امرأة ـ بأن يرهب جانبها على الدوام ويقدرها حق قدرها، بدلاً من أن تسحقه بضربة واحدة. وهذا هو الذكاء وحسن التصرف بعينه!

وقد عرفت "ماريا الكسندرفنا" دائماً بأنها امرأة لا غبار عليها، ويعتبرها الناس جميعاً انموذجاً لا ينافسه أحد من هذه الناحية في كل أنحاء موورداسوف. وفي استطاعتها بكلمة واحدة منها أن تقهر من لا يروق لها أو تمزقه شر تمزيق، ولكن دون أن تمسه. ولا يشك الناس لحظة في أهمية هذه الكلمة ومدى ما تنطوي عليه من خطورة.. وهذه ظاهرة تبين تماماً أنها سيدة تنتمي إلى المجتمع الراقي وأنها على صلات ممتازة بالصفوة المختارة من أفراد هذا المجتمع.

ولم يحدث أن قَدِم أحد إلى مدينة موورداسوف دون أن يُثني على حفلات الاستقبال التي تقيمها "ماريا الكسندرفنا" بل وظل أكثر هؤلاء الزائرين عابري السبيل يراسلونها فترة طويلة من الزمن، كان من بينهم شاعر كتب من أجلها عدداً من قصائد الشعر، تحرص على أنْ تُطلع الناس عليها في كبرياء كلما حانت إحدى المناسبات.. كما مرّ بموورداسوف أحد

الأدباء وأهداها قصة كان قد قرأها عندها أثناء سهرة من السهرات، وكان لهذا أثره الطيب للغاية في مورداسوف.. كما جاء من مدينة "كارلزرو" عالم ألماني - خصيصاً - ليدرس نوعاً عجيباً من الديدان الصغيرة ذات القرون ينتشر بكثرة في منطقة مورداسوف وكتب عنها أربعة مجلدات ضخمة، فأُعجب اعجاباً كبيراً بكياسة "ماريا الكسندرفنا" وكرم ضيافتها، حتى أنه لا يزال حتى الآن يكتب إليها من كارلزرو خطابات تفيض احتراماً وثناء على دماثة أخلاقها..

وقد ذهب البعض إلى حد تشبيه هذه السيدة بنابليون بونابرت! وهذا بالطبع حملة من حملات التشهير التي يشنهاعليها حُسادها ومن يغارون منها بقصد التهكم والسخرية.. ومع ذلك، فعلى الرغم مما في هذا التشبيه من غرابة، يدلنا الواقع على أن "ماريا الكسندرفنا" أصبحت أهم سيدة في مورداسوف، وظلت كذلك على الدوام. وقد قابلتها من غير شك ساعات عصيبة، وواجهت ظروفاً بلغت من التعقيد والشدة حداً دفع الناس إلى أن يتساءلوا قائلين وهم يحبسون انفاسهم: "تُرى ماذا ستفعل "ماريا الكسندرفنا"؟".. ولكنها كانت تتخطى كل العقبات وتخرج من كافة المآزق بطريقة سحرية..

ويذكر الجميع كيف فقد زوجها "افاناسي متيفتش" مركزه وأُقصي عن وظيفته، حدث ذلك عقب أن فتَّش عليه في عمله بعض المفتشين فوجدهم حمقى إلى حد لا يُطاق.. فظنَّ الناس أن "ماريا الكسندرفنا" توشك أن تفقد

عقلها، أو أن تذل وتتوسل، أو أن تتواضع وتتنازل عن كبريائها على أقل تقدير.. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد أدركت بذكائها النَّفاذ أن التوسلات لن تُجدي نفعاً، فتصرفت بحيث لم يمس نفوذها بسوء أو ينال من كرامتها أحد، هكذا ظل بيتها البيت الأول في مورداسوف.. وكانت "انا نيقولايفنا انتبوفا" ـ عدوها اللدود ـ قد بدأت تتغنى بالانتصار عليها على الرغم من تظاهرها بمصادقتها أمام الناس، ولكن سرعان ما أدرك أهل المدينة أن إيقاع "ماريا الكسندرفنا" في الحرج والارتباك أمر ليس بالسهل وأنها أقوى مما كانوا يظنون!..

أما زوجها "أفاناسي ميتفتش" فهو رجل يدل مظهره على الجد وتنطق ملامحه بالرجولة.. ولكنه كان يفقد عقله في الظروف الحرجة كالحيوان حينما يلحظ أن شيئاً قد تغير في باب الحظيرة. ومع ذلك، فإن مظهره العادي هو مظهر رجل ذي أهمية، خاصة في حفلات العشاء حينما يرتدي ربطة العنق البيضاء.. وعظمة مثل هؤلاء الناس تستمر فقط إلى اللحظة التي يفتحون فيها أفواههم، وحينئذ يتعين على من يستمع إليهم أن يسد أُذنيه.. حقاً إن هذا الرجل غير جدير بأن يكون زوجاً لـ "ماريا الكسندرفنا" وهذا هو رأي الجميع!

والحق أن "افاناسي" ظل محتفظاً بمركزه بفضل عبقرية زوجته وحدها.. وإنني أرى شخصياً أن هذا الرجل كان ينبغي أن يوضع من زمن بعيد في كرمة أو مزرعة للخضر ليخيفوا به الغربان والعصافير، فهو في هذا المكان

فقط يمكن أن يكون ذا نفع إلى حد ما، وحسنا فعلت "ماريا الكسندرفنا" بأن نفته في ضيعة تعداد سكانها مائة وعشرون شخصاً، كانت تملكها على مسيرة ثلاثة كيلو مترات من مورداسوف. وكانت هذه الضيعة هي كل ثروة "ماريا"، وكانت تمكنها من أن تعيش في بيتها عيشة مرضية..

ولم يكن من العسير أن يفهم الناس أن "ماريا" كانت تتحمل زوجها فقط بسبب مركزه ومرتبه، ولأن له دخلاً صغيراً ثابتاً. أما وقد أدركته الشيخوخة ولم يعد له الآن مرتب أو دخل، أفلم يكن من العدل أن يُبعد كشيء يزحم المكان ولا نفع فيه؟!..

ويعيش الزوج في الريف حياة لطيفة للغاية.. وقد زرته في القرية وقضيت معه ساعة جميلة، فهو يرتدي تارة ربطة عنقه البيضاء ويخلعها تارة أخرى، ويمسح بنفسه حذاءه ذا الرقبة الطويلة، لا بدافع الحاجة ولكن حباً في الفن، ولأنه يجب أن يكون حذاءه رائعاً على الدوام.. وهو يشرب الشاي ثلاث مرات في اليوم، ويكثر من الاستحمام، وهو سعيد راض بهذه الحياة..

* * *

هل تذكرون تلك القصة المثيرة للاشمئزاز التي حدثت منذ ثمانية عشر شهراً خاصة بـ "زينا افاناسيفنا" الابنة الوحيدة لـ "ماريا" و "افاناسي"؟.. إن "زينا" فتاة رائعة الجمال، وفوق هذا فتربيتها ممتازة للغاية، ولكنها في الثالثة والعشرين من عمرها ولم تتزوج بعد. ومن أهم الأسباب التي يفسر بها بعض

الناس في موورداسوف عدم زواجها حتى الآن، تلك الشائعة الغامضة التي تقول أنها كانت منذ عام ونصف العام على علاقة بمدرس متواضع بإحدى المدارس التابعة للمجلس البلدي هناك، ولم تهدأ تلك الشائعة بعد!..

ويقول البعض أن "زينا" كتبت خطاباً غرامياً إلى هذا المدرس، وأن هذا الخطاب قد طاف بكل أنحاء موورداسوف.. ولكن، أرجوكم أن تقولوا لي: "هل رأيتم بأعينكم هذا الخطاب؟.. إنكم تزعمون أنه دار بكل أرجاء موورداسوف.. حسناً! اين هو هذا الخطاب الآن؟.. إن الجميع قد سمعوا به، ولكن.. من ذا الذي رآه؟.. إنني لم أقابل أحداً رأى هذا الخطاب بعينه.. وإنك إذا ما لمّحت إليه أمام "ماريا الكسندرفنا" فإني أُراهنك على أنها لن تفهم شيئاً مما تقول.. ولكن، لنفترض أن لهذه الشائعة شيء من الحقيقة كما يقولون، وان "زينا" قد كتبت فعلاً هذا الخطاب (وأعتقد أنها كتبته حقاً) فمن واجبنا إذن أن نُبدي إعجابنا بمهارة "ماريا".. فكيف تم القضاء إذن على هذه الشائعة المثيرة؟

حسناً.. إننا عند البحث والتمحيص لا نجد لها أثراً أو دليلاً.. و"ماريا" من ناحيتها، لا تتنازل وتتفضل بمجرد السؤال عن هذا الافتراء الدنيء. ومع ذلك، يعلم الله ما تكبدته من آلام لتحتفظ بشرف ابنتها سليماً لا يُمس! فمن المعروف تماماً أن "زينا" لم تتزوج بعد، فأي خاطب مناسب يمكن أن تجده هنا في موورداسوف؟.. إنها لا يمكن أن تتزوج إلا أميراً من أسرة حاكمة.. فهل هناك جمال رائع كامل كهذا الجمال؟.. إنها متكبرة عظيمة

الكبرياء .. هذا صحيح، ويقال إن "بافيل الكسندروفتش موجلياكوف" قد طلب يدها، ولكن هذا الزواج لن يتم.. فمن هو إذن "موجلياكوف" هذا؟

إنه شاب وسيم الوجه، بادي الأناقة، من سكان بطرسبورج، يملك أرضاً غير مرهونة يعيش عليها مائة وخمسون شخصاً، ولكنه ليس قوي الشخصية.. وهو ثرثار لا يتصف بالرزانة والاتزان، ويعشق الآراء الجديدة.. فما قيمة أنه يملك هذه الأرض إن كانت لديه آراء متحررة؟.. إن هذا الزواج لن يكون!

* * *

إن كل ما قرأه القارئ حتى الآن قد كُتب منذ خمسة أشهر بدافع من الإعجاب وحده، إذ يجب أن أعترف بأنني أشعر نحو "ماريا الكسندرفنا" بشيء من الاستلطاف. وكان في نيتي أن أكتب مديحاً موجهاً إلى هذه السيدة الرائعة في قالب خطاب موجه إلى أحد الأصدقاء، كما كانت تفعل بعض المجلات في ذلك الزمن الماضي الجميل الذي لن يعود والحمد لله! ولكن ليس لي أي صديق.. وبفضل خجلي المزمن الذي يستولي عليَّ دائماً كلما تعلق الأمر بعمل أدبي، ظلَّ مؤلفي هذا قابعاً في درج من الأدراج..

* * *

كانت قد مضت إذن خمسة أشهر حين حدث فجأة في مورداسوف حادث عجيب، فقد وصل الأمير "ك" ذات يوم في ساعة مبكرة من الصباح ونزل في بيت "ماريا الكسندرفنا".. ولم يقضي الأمير في مورداسوف إلا

ثلاثة أيام فقط، ولكن هذه الإقامة القصيرة تركت ذكريات محتومة لا يمكن ان تمحى! وأضف إلى ذلك أن زيارة الأمير أحدثت ثورة في مدينتنا، وستكون قصة هذه الثورة بلا شك أهم صفحة في تاريخ مورداسوف. وقد قررت بعد كثير من التردد أن أقدم هذه الصفحة في قالب أدبي إلى الجمهور. ومن الممكن أن يكون عنوان قصتي هذه: "عظمة ماريا الكسندرفنا وأفول نجمها".. إنه موضوع كبير ومغرٍ بالنسبة إلى الشاعر..

* * *

الفصل الثاني

المومياء المراهقة

لم يكن الأمير "ك" شيخاً بلغ المائة من عمره، ومع ذلك فإن من يراه كان لا يسعه إلا أن يُفكر في أنه كان على وشك أن يعود إلى أرذل العمر. وكان الناس في مورداسوف يتناقلون عنه أغرب الأمور، فكان البعض يقول إنه معتوه بعض الشيء، فكان يبدو من الغريب حقاً أن شخصاً مثله من أنبل العائلات ويملك أراضي يعيش عليها أربعة آلاف نسمة، ويمكنه مركزه من أن يكون ذا نفوذ جدير بالاعتبار في المقاطعة.. كان من الغريب أن يظل معتكفاً كالنُّساك في ضيعته الرائعة. وهؤلاء الكثيرون الذين رأوه منذ ستة أو سبعة أعوام مضت أثناء زيارته الأولى لمورداسوف كانوا يؤكدون حينئذ أنه لا يستطيع أن يحتمل الوحدة، وأنه لا يتسم بصفات النساك.. هذه هي المعلومات التي استطعت أن أجمعها عنه وأنا آخذ من أوثق المصادر..

كان هذا الأمير فيما مضى ـ من زمن بعيد ـ قد دخل في المجتمع الراقي. وعاش طيلة شبابه عيشة مرحة وهو يغازل النساء ويبعثر أمواله هنا وهناك.. لذلك بدد ثروته الضخمة بسرعة. وكان يفتقر إلى الذكاء اللامع.. وحينما جاءت أيام الشيخوخة نَصح له بعضهم بالإقامة في ضيعته التي يملكها والتي كان قد بدأ يبيع من أرضها بالمزاد العلني، فأخذ بهذه النصيحة وقضى بهذه المناسبة ستة أشهر في مورداسوف، فأعجبته حياة الريف كثيراً.

وأتم خلال هذه الشهور الستة تنظيف سمعته بطريق الدسائس التي كان يحيكها عند سيدات المجتمع الراقي الريفي.

وكان من جهة أخرى رجلاً ممتازاً ذا جاه عريض (فالناس في موورداسوف يعتبرون أن الجاه هو الدلالة المميزة للأرستقراطية العريقة). وكانت السيدات ــ بوجه خاص ــ لا تكف عن الاستمتاع برفقة هذا الضيف "اللطيف". فترك عندنا في موورداسوف ذكريات غريبة للغاية.. وكان الناس يتحدثون عن غرابة أطواره ويقولون إنه يقضي أكثر نهاره في تزيين نفسه، فكان يبدو أنه مصنوع من قطع صغيرة مرصوصة. وكانوا يتساءلون: أين وكيف استطاع أن "يُركب" نفسه على هذه الصورة، فقد كان يلبس شعراً مستعاراً وشارباً مستعاراً، وكان كل شيء فيه زائفاً ومستعاراً وذا سواد لامع حتى آخر شعرة في جسده، وكان يضع الأحمر والأبيض طيلة النهار. وكان الناس يؤكدون أنه يتمتع بموهبة خاصة في إخفاء تجاعيد وجهه بواسطة أسلاك حلزونية دقيقة يخفيها تحت الشعر المستعار. كما كانوا يؤكدون أنه يرتدي "كورسية"، لأنه فقد ضلعاً من ضلوعه وهو يقفز بلا مهارة من إحدى النوافذ أثناء مغامرة غرامية حدثت له في إيطاليا. وكان يعرج بساقه اليسرى. ويؤكد الناس أن له ساقاً زائفة من الفلين، لأن ساقه كُسرت في باريس في مغامرة أخرى. وقد يكون في هذا بعض المغالاة، ولكن من المؤكد أن عينه اليمنى كانت من الزجاج، ولكنها كانت متقنة إلى حد يصعب معه ملاحظة أنها صناعية. وكانت أسنانه صناعية كذلك.. وكان يقضي الأيام بطولها في الاغتسال بالمياه المعدنية ووضع العطور والأدهنة.

ومع ذلك، فانه بدأ منذ ذلك الحين يشيخ ويخرف. وكان يبدو أن حياته العملية قد قاربت نهايتها. وكان الجميع يعرفون أنه أفلس، ولكن حدث فجأة ان توفيت إحدى قريباته ـ وهي سيدة عجوز طاعنة في السن كانت تعيش في باريس، وكان لا يأمل أن يرثها ولكنها ماتت بعد أن دفنت وارثها الوحيد بشهر واحد ـ فورث منها أرضاً رائعة على بعد ستين فرسخاً من مورداسوف دون أن يشاركه فيها أحد. فرحل على الفور إلى بطرسبورج لتنظيم أعماله هناك. وأقامت له السيدات بمناسبة سفره مأدبة رائعة تقاسمنّ تكاليفها، ولا يزال الناس يذكرون كم كان الأمير في هذا اليوم ساحراً خفيف الروح! فقد كان كالنار ويتدفق منه الكلام "ذو المعنيين" والقصص الغريبة، ووعد بالعودة بأسرع ما يستطيع إلى أرضه الجديدة التي ورثها على مقربة من مورداسوف، وأقسم أن مائدته ستكون عند عودته معدة للجميع، وأنه سوف يقيم الحفلات الراقصة والزينات التي لا نهاية لها..

وبعد رحيله، تحدثت السيدات عاماً بأسره عن هذا الحفل الموعود، وانتظرنّ بصبر نافذ عودة هذا الشيخ القصير اللطيف، بل وكنّ ينتظمنّ الرحلات إلى دوخانوفو ـ القرية التي ورثها الأمير ـ حيث كان يقوم قصر قديم جدير بالاعجاب، وحديقة واسعة مزينة بشجر اللبخ المنسق على شكل اسود، وتلال صناعية، وبحيرات تطفو على سطحها سفن صغيرة بها جنود أتراك من الخشب ينفخون في الناي.. وفيها أيضاً بيوت للمتعة وملذات أخرى كثيرة..

واخيراً عاد الأمير . . ولشد ما كانت دهشة الجميع وصدمتهم لعدم مروره بمورداسوف، واعتكافه بقرية دوخانوفو . . فدارت عنه شائعات غريبة، وأصبحت قصة حياة الأمير منذ هذه اللحظة غامضة وخيالية. فكان الناس يتكهنون أولاً أنه لم ينجح في أعماله في بطرسبورج، وأن ورثته بالنظر إلى حالته العقلية، كانوا يريدون أن يفرضوا عليه حراسة قضائية مخافة أن يبعثر أمواله مرة اخرى. وكانوا يقصّون أيضاً أن ورثته النهمين أرادوا أن يدخلوه مستشفى للأمراض العقلية! ولحسن حظ الأمير أن له قريباً ذا مركز هام دافع عنه وبرهن بوضوح تام على أن هذا الرجل المسكين الذي أشرف على الموت لن يعيش طويلاً دون شك. وهكذا، فإن الثروة ستئول إلى هؤلاء الورثة من غير حاجة إلى الالتجاء لمستشفى الأمراض العقلية . .

هذا هو ما يقال، والناس في مورداسوف ألسنتهم طويلة. وكان كل ذلك، قد أزعج الأمير إلى حد أنه غيَّر من طبعه وتحول إلى ناسك. وجاء قوم من أهل مورداسوف لتهنئته على ذلك بدافع من الفضول . . فلم يستقبلهم، أو أنه استقبلهم بطريقة غريبة جداً، فإن هذا الأمير لم يتعرف حتى على أصدقائه السابقين، أو بالأحرى لم يشأ أن يتعرف عليهم . .

وزاره كذلك حاكم الاقليم، ولكنه عاد وهو يقول إن الأمير قد فقد عقله! . . ولاحظ الناس بعد هذه الزيارة أن الحاكم كان يقطب الجبين حينما يحدثونه عن زيارته لقرية دوخانوفو . . وكانت السيدات تسخطن . . وعرف الناس أخيراً أمراً بالغ الأهمية، فقد كان الأمير واقعاً تحت سيطرة امرأة

مجهولة تدعى "ستبانيدا متفيفبنا" ويعلم الله أي صنف من النساء كانت هذه المرأة ـ وهي المرأة التي وصلت معه من مدينة بطرسبورج، وهي عجوز ذات كرش، ترتدي دائماً الملابس الهندية وتحمل في يدها على الدوام رزمة مفاتيح. ويطيعها الأمير في كل شيء كالطفل، ولا يجرؤ على أن يخطو خطوة واحدة دون استشارتها، وهي تدلله، وتنزهه، وتسليه كأنه طفل رضيع.. وهي أخيراً التي تقفل بابه في وجه أهله وورثته الذين بدأوا يعرفون طريقة قرية دوخانوفو.. وناقش الناس كثيراً ـ خاصة السيدات ـ هذه العلاقة غير المفهومة، وأضافوا أن "ستبانيدا" هذه كانت تشرف ـ وحدها ـ على كل ثروة الأمير.. إنها تعتبر مديرة أعماله، وخدم بيته في وقت واحد، وتقبض الدخل، وإدارتها جيدة يستريح لها الفلاحون..

أما الأمير، فانه أصبح لا يبرح مكان زينته حيث يتزين ويلبس ويخلع طيلة النهار ويلعب الورق أحياناً مع "ستبانيدا"، ويتنزه في بعض الأحيان على فرسة إنجيلزية لطيفة جداً.. وتصحبه على الدوام "ستبأنيدا" في عربة مغطاة وهي على استعداد لكل الاحتمالات.. ذلك أن الأمير قلما يمتطي صهوة الجواد إلا على سبيل الدلال ويسند نفسه على ظهره بجهد جهيد..

* * *

ويحدث له في بعض الأحيان أن يخرج سيراً على الأقدام وهو يرتدي معطفاً ورأسه مغطاة بقبعة من القش، ويلف حول عنقه "كوفية" نسائية ويلبس "مونكلا" في إحدى عينيه، ويمسك بيده اليسرى سلة ليضع فيها عش

الغراب وبعض أزهار الحقول. وتسير "ستبانيدا" خلفه، ويتبعها خادمان طويلان على مسافة معينة، ثم عربة. وحينما يقابلون أحد المزارعين يتوقف المزارع ويخلع غطاء رأسه ليحي الأمير في احترام عظيم، وهو يقول: "طاب يومك أيها الأمير الصغير الأب!.. يا صاحب السعادة! يا شمشون الصغير!" فيوجه الأمير له "المونوكل" نحوه ويحييه في طرفه بإيماءة من رأسه قائلاً له بالفرنسية: "طاب يومك يا صديقي.. طاب يومك!"

ولكن.. كم كانت دهشة الجميع حينما ذاعت ذات صباح شائعة مؤداها أن الأمير، هذا الناسك، هذا الرجل الغريب الأطوار، قد جاء بنفسه إلى مورداسوف ونزل في بيت ماريا الكسندرفنا!.. فانقلبت المدينة رأساً على عقب. وكان الجميع ينتظرون تفسيراً لهذا الحادث ويتساءلون: "ما معنى ذلك؟". وكان البعض يستعدون للذهاب إلى بيت "ماريا".. وكانت السيدات يتبادلن الخطابات والزيارات، ويرسلن خادماتهن وازواجهن لجمع المعلومات. وكان أغرب ما في الأمر أن الأمير قد نزل عند "ماريا الكسندرفنا" بالذات ولم ينزل في أي مكان آخر. وكانت "انا نيقولايفنا" تشعر بأنها مجروحة الإحساس أكثر من أي شخص آخر، لأن الأمير كان من أقربائها وكان يمتّ إليها حقاً بقرابة بعيدة..

الفصل الثالث

عـرض زواج

الساعة العاشرة صباحاً، ونحن الآن في بيت "ماريا الكسندرفنا" الذي يطل على الشارع الكبير، في الغرفة التي تُطلق عليها ربة البيت كلمة "صالون" في أيام الاستقبال (ولدى "ماريا" ايضاً غرفة خاصة بزينتها)، وهي غرفة أرضيتها الخشبية مطلية بطلاء جيد نسبياً، وجدرانها مكسوة بورق مُزخرف مُحكم اللصق، وأثاثها غير عملي يغلب فيه اللون الأحمر.. وبالغرفة مدفأة من فوقها مرآة، وفي مواجهة المرآة ساعة حائط يعلوها تمثال لكيوبيد إله الحب ينم عن ذوق كريه للغاية.. وعلى الجدران منضدتان من فوق كل منهما ساعة حائط أخرى.. وإلى جوار أحد الجدران، نرى "البيانو" وهو يكاد يغطي نصف مساحته (وقد أُحضر هذا البيانوا خصيصاً من أجل "زينا" إذ أنها تهوى الموسقى).. وإلى جوار المدفأة، نرى عدداً من المقاعد الكبيرة الوثيرة موضوعة في فوضى لطيفة للغاية.. وتتوسط الغرفة منضدة صغيرة، وهناك منضدة أخرى في الناحية المقابلة مغطاة بغطاء ناصع البياض ويغلي فوقها إناء فضي للشاي من حوله أقداح جميلة للغاية.

وتُقيم في بيت "ماريا" سيدة تدعى "ناستاسيا بتروفنا"، وهي تمت إلى ربة البيت بصلة قرابة بعيدة، ومختصة بإعداد الشاي وتقديمه.

إن "ناستاسيا" أرملة سمراء تجاوزت الثلاثين من عمرها، وهي على شيء من الجمال، وعلى قدر كبير من المرح وخفة الروح والدهاء أيضاً، وعيناها تشعان حيوية.. وهي تميل إلى اللغو وتحب أن تتحدث كثيراً عن الغير ـ وهذا في نظرها أمر طبيعي ـ وتعرف كيف تدير شؤونها. وكان زوج "ناستاسيا" ضابطاً، وقد انجبت منه ولدين هما الآن بمدرسة داخلية لا ندري أين. وهي تعيش عيشة مستقلة تماماً تعتمد فيها على نفسها اعتماداً كلياً، وتود من صميم قلبها أن تتزوج مرة اخرى...

ها هي "ماريا" جالسة إلى جوار المدفأة، منشرحة المزاج، ترتدي ثوباً من الحرير الأخضر الفاتح يناسبها تماماً وقد بدا عليها فرح عظيم لوصول الأمير، لا تفكر حتى في إخفائه (والأمير الآن بالطابق العلوي من البيت مشغول كعادته بإتمام زينته) وأمامها شاب يقص قصة ما ويقوم بيديه ووجهه بحركات وإشارات معينة كان واضحاً منها أنه يحاول جاهداً أن يظفر باعجاب مَن يستمعنّ إليه. وكان يمكن أن يكون مقبولاً لولا خياله الخصب وادعاؤه خفة الروح.. إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره، أشقر الشعر، أنيق الهندام، وسيم إلى حد ما. وقد سبق أن تحدثنا عنه، فهو السيد "بافيل الكسندر فتش موجلياكوف" الذي يبني آمالاً عريضة في الزواج من "زينا" وتجده "ماريا" تافهاً فارغ الرأس، ولكنها لا تكف عن أن تستقبله في بيتها استقبالاً حسناً للغاية. ويَدعي "موجلياكوف" أنه يحب "زينا" حباً جنونياً، ولا يكف عن الحديث إليها لعله يظفر منها بمجرد ابتسامة تطمئن خاطره بفضل حماسه المتدفق والإكثار من الكلمات الرقيقة، ولكن "زينا" لا تستجيب

لشيء من كل ذلك وترده عنها في برود شديد .. وها هي ذي واقفة إلى جوار البيانوا تقلب صفحات إحدى المجلات..

ولا شك في أن "زينا" من هؤلاء النساء اللاتي يُثرن إعجاب كل من حولهن حين يدخلن صالوناً من الصالونات.. فهي فارعة الطول، رشيقة القوام، خمرية اللون، بارعة الجمال، ذات عينين واسعتين سوداوين تقريباً، ورقبة رائعة، وكتفين وذراعين تذكرنا بتماثيل القدماء، وقدمين ساحرتين، ومشية كمشية الأميرات.. وهي اليوم شاحبة بعض الشيء، ولكنه شحوب يُبدي روعة شفتيها القرمزيتين اللتين تلمع من خلالهما أسنان صغيرة منتظمة كأنها اللؤلؤ المرصوص.

ويدل مظهر "زينا" على أنها فتاة جادة.. ويبدو أن السيد "موجلياكوف" يخشى نظرتها الثاقبة إليه، إذ أنه لا يرفع عينيه إليها على الأقل إلا ويشعر بالارتباك.. وترتدي "زينا" ثوباً غاية في البساطة من الحرير الخفيف الأبيض، فالأبيض يلائمها تماماً، بل وكل شيء يليق عليها في الواقع.. وهي تلبس في إحدى اصابعها خاتماً من الشعر المضفر. ويلحظ المرء حين ينظر إلى شعرها أنه لا يشبه شعر والدتها. ولم يجرؤ "موجلياكوف" قط على أن يسألها عمن عسى أن يكون شعره شبيهاً بشعرها من أفراد الأسرة!

وكانت "زينا" في ذلك الصباح صامتة لا تتكلم، بل وتكسو وجهها مسحة من الحزن.. وعلى العكس، كانت أمها "ماريا الكسندرفنا" بادية السرور، وعلى استعداد كبير لأن تثرثر كثيراً.. وكانت تختلس من حين إلى آخرة نظرة مشككة إلى ابنتها كما لو كانت هي أيضاً تخشى هذه الفتاة..

قالت الأم تخاطب "بافيل موجلياكوف" وكأنها دجاجة تصيح:

- إنني مسرورة تماماً إلى حد أنني على وشك أن أعلن فرحي على المارة بصيحة من خلال النافذة.. إني لا أتحدث عن المفاجأة اللطيفة التي قدمتها لنا أنا وابنتي بحضورك مبكراً خمسة عشر يوماً عما كنا ننتظرك، فهذا شيء يدعو للسرور حقاً، ولكنني سعيدة بصفة خاصة للفتة التي حبوتنا بها بإحضارك الأمير.. آه لو تعلم كما أعبد هذا الشيخ الساحر القصير القامة!.. إنك لا تستطيع أن تفهمني! فأنتم معشر الشبان لا تستطيعون أن تشعروا بمثل هذه العواطف.. أتعرف ماذا كان الأمير بالنسبة إليّ منذ ست سنوات مضت؟.. هل تذكرين ذلك يا "زينا"؟ آه! ولكنني نسيت أنك كنت تقيمين حينئذ عند خالتك.. إنك لا تصدقني يا "بافيل"، فقد كنت مرشدة الأمير وأخته وأمه، وكان يطيعني كطفل صغير. وكانت علاقتنا كلها سذاجة ونبل وحنان، ولا يحدث ذلك إلا في الريف، ولست أجد الكلمات التي أستطيع بها أن أعبر لك عن ذلك.. ولهذا، فقد تذكّر هذا الأمير المسكين بيتي في كثير من الاعتراف بالجميل!.. وهل تعرف أيضاً يا "بافيل" أنك ربما أنقذته بإحضاره عندي؟ إنني كنت خلال هذه الأعوام الستة التي ابتعد فيها عنا لا أستطيع أن أمنع نفسي وأنا أفكر فيه من الشعور بالقلق والانقباض!.. أتصدق أنني أحلم به؟ إنهم يقولون إن هذه المخلوقة سجانته قد سحرته وضيعته، ولكنك انتزعته أخيراً من مخالب هذه الشريرة! ويجب انتهاز هذه

الفرصة لإنقاذه نهائياً .. ولكن، قصّ عليّ ثانية كيف استطعت ذلك فإنني كنت منذ لحظة مضطربة تماماً، ولم أر إلا الخطوط، ولكن التفاصيل كلها ثمينة أيضاً بالنسبة إليَّ، فإنني أحب التفاصيل.. وينصرف انتباهي أول ما ينصرف إلى التفاصيل خاصة في الأحداث الكبيرة.. و.. حتى ينتهي الأمير من إتمام زينته..

وتعجل "موجلياكوف" بالحديث، فقاطعها قائلاً وهو يوشك أن يعيد عليها قصته للمرة العاشرة:

- ولكنني سبق أن قلت لك كل شيء، فقد سافرت طيلة الليل ولم يغمض لي جفن، وكنت أتعجل الوصول إلى أقصى حد مُستطاع! (وكانت هذه العبارة الاخيرة موجهة إلى "زينا") فاضطررت إلى أن أتشاجر كثيراً في محطات تغيير الخيل، وأعترف بأنني ثرتُ كثيراً.. ولكن دعينا من ذلك، فقد وصلت إلى آخر محطة من محطات تغيير الخيل في "ايجيشيفو" في تمام الساعة السادسة صباحاً، وكنت أرتجف من البرد.. ولكن هذا لا يهم فلم أكلف نفسي حتى عناء أن أستدفئ، بل صحت قائلاً: "جيئوني بخيل أخرى"!.. وأعتقد تماماً أنني أخفت زوجة رئيس المحطة ـ وكان على صدرها طفل رضيع ـ وأخشى أن يكون لبنها قد انقطع..

وصمت "بافيل موجلياكوف" لحظة قصيرة التقط فيها أنفاسه، ثم استطرد قائلاً:

- وكان شروق الشمس رائعاً.. إنك تعرفين هذه الكرات الصغيرة من الثلج ذات اللون الوردي والفضي، ولكنني لم أُعر أي شيء اهتماماً، بل ذهبت بأسرع ما أستطيع، وأخذت الخيل من عند أحد مديري المدارس بعد أن كدت أبارزه بالسيف. وقد قيل لي أنه منذ ربع ساعة مضت، مرَّ بهذه المحطة أمير من الأمراء مسافر في عربة وأنه قضى بها ليلته، ولكنني ما كدت أسمع ذلك حتى قفزت إلى العربة وانطلقت بها كسجين هارب من السجن.. وإننا لنجد مثل هذا الموقف في إحدى قصائد الشاعر الروسي "فيت".. ولكنني ما أن بلغت موضِعاً يبعُد ثلاث كيلومترات بالضبط عن المدينة حتى لمحت شيئاً عجيباً: رأيت عربة من عربات السفر مقلوبة على أحد جانبيها، وكان الحوذي وخادمان طويلان يقفان إلى جوارها وقد بدا على ثلاثتهم الارتباك الشديد. وكانت تتصاعد من داخل العربة صيحات تمزق القلوب.. وكنت أستطيع أن أتركهم وشأنهم، ذلك أمر لا يعنيني، ولكن الإنسانية تغلبت عليَّ كما يقول الشاعر "هنري هين" والإنسانية تتدخل في كل شيء..

توقفت إذن عن متابعة السير، أنا وتابعي "سيمن" ورجل روسي آخر، وأسرعنا إليهم ورفعنا العربة نحن الستة إلى أن جعلناها ترتكز على "الزحافات".. وكان هناك بعض الفلاحين الذاهبين من الغابة إلى المدينة فمدوا إلينا يد المعونة، فمنحتهم "بقشيشاً" محترماً.. وقلت في نفسي: "لا بد أنه هو الأمير الذي قضى الليل في محطة تغيير الخيل"، ونظرت إليه.. يا

الهي! إنه الأمير "جافريللا"!.. فيا له من لقاء!.. وصحت أقول له: "أيها العم الصغير!".. فلم يتعرف علي من النظرة الأولى، ولست أدري تماماً إذا كان قد تعرَّف عليَّ من النظرة الثانية، ولا أعرف إلى الآن ما إذا كان تعرَّف عليَّ بالفعل.. وأعتقد أنه قلما يتذكر القرابة التي بيننا، فقد رأيته لأول مرة في مدينة بطرسبورج، كان ذلك من سبع سنوات مضت.. وكنت صبياً حينذاك؟.. ولكنني أذكره تماماً.. ولكن هو، كيف يستطيع أن يتذكرني؟.. فقدمت نفسي إليه، فَسر سروراً عظيماً وقبلّني، ثم أخذ يرتجف بعد ذلك من الخوف وما لبث أن انفجر باكياً.. يا الهي! إنني رأيته يبكي بعيني هاتين!

وتبادلنا بضع عبارات، اقترحت عليه بعدها أن يجيء معي إلى مورداسوف لينال قسطاً من الراحة ولو ليوم واحد، فقَبل بلا تردد، وقال لي إنه كان في طريقه إلى بلده "سيفتوزرسكايا" لزيارة الأسقف "ميسائيل" الذي يشعر نحوه بتقدير عظيم، وأن "ستبانيدا متفيفنا" ـ ومن ذا الذي من بيننا نحن اقرباء الأمير لم يسمع عن "ستبانيدا متفيفنا"؟ فهي التي طردتني في العام الماضي من دوخانوفو بمكنسة ـ قد تلقت رسالة تخطرها بضرورة السفر إلى موسكو لوفاة فرد من أفراد أسرتها، أما أن يكون والدها وابنتها معاً، وفوق هذا فقد مات أيضاً أحد أبناء شقيقاتها وهو شاب يافع يعمل موظفاً في جمارك النبيذ.. وفي كلمة واحدة: كان عليها أن تترك أميرها لعشرة أيام، وأن ترحل إلى العاصمة بأسرع ما تستطيع.. وهكذا بقي الأمير وحده، يوماً، ثم يومين دون أن يتحرك وهو يجرب شعره المستعار (الباروكة)، ويضع الأدهنة والمساحيق، ويصفف شعره، ويلعب الورق بمفرده.. وباختصار: بدأت الوحدة

تثقل عليه، فأمر حينئذ بأن تشد الخيل إلى العربة واتخذ طريقه إلى سفيتوزسكايا. وخَشي أحد المحيطين به شبح "ستبانيدا متفيفنا" فتجاسر على أن يعارضه، ولكن الأمير رجل عنيد، فرحل بالامس بعد العشاء وقضي الليل في ايجبيشيفو، ثم غادر محطة تغيير الخيل مبكراً في الصباح، وعند ناصية الطريق المؤدي إلى بلدة الاسقف كاد أن يهوي هو وعربته في حفرة، فأنقذته واقنعته بأن يأتي إلى بيت صديقتنا المشتركة: "ماريا الكسندرفنا" المحترمة، وقد قال لي إنك ألطف سيدة رآها في حياته.. وها نحن اولاء هنا يا سيدتي.. والأمير الآن يتم زينته ومعه خادمه الخاص الذي يصر على الدوام على ألا يفترق عنه، وهو يفضل الموت على أن يدخل على سيدة بغير ذخيرته من الزينة.. هذه هي القصة كلها.. وإنها لقصة رائعة!

فصاحت "ماريا الكسندرفنا" قائلة:

- يا له من قصاص! يا لها من رواية! أليس كذلك يا "زينا"؟.. اسمع يا "بافيل".. أريد أن أسألك سؤالاً: وضّح لنا قرابتك للأمير، فإنك تخاطبه قائلاً: "يا عمي"..

فقال "بافيل".

- يا إلهي!.. إنني لا أعرف أنا نفسي مدى قرابتي له، إذ ربما يلزم لتحقيق ذلك أن نصعد إلى مائة جد حتى نصير من نفس فروع شجرة الأسرة.. ولكنني أقول له: يا عمي الصغير.. وهو يحبني هذه هي ـ حتى اليوم ـ كل قرابتنا..

- إن الله هو الذي ألهمك أن تأتي به إليَ، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الارتجاف كلما فكرت في أنه كان يمكن أن ينزل في مكان آخر غير بيتي، فقد كانوا خليقين حينئذ بأن يلتهموه التهاماً.. بأن يتهافتوا عليه كما يتهافتون على كنز أو على منجم، بل ربما نهبوا حقائبه، فإنك لا تستطيع أن تتصور أي نفوس شرهة ماكرة دنيئة تسكن مورداسوف!

- آه! يا الهي! إلى أين يمكن ان يُأخذ المرء إن لم يكن إلى بيتك..!

وقطعت "ناستاسيا بتروفنا" ـ المكلفة بتقديم الشاي ـ الحديث قائلة:

- ما قولك يا "ماريا الكسندرفنا" في أنه ما كان لينزل إلا في بيتك وليس في أي مكان آخر، وبالذات عند "انا نيقولايفغا"؟

فقالت "ماريا" وهي تنهض واقفة في صبر نافذ:

- بحق السماء!.. لماذا يبقى هكذا واقفاً وقتاً طويلاً؟ إن هذا لشيء غريب!

فأجابها "بافيل موجلياكوف" قائلاً:

- العم الصغير؟ إنه لا يزال أمامه خمس ساعات أخرى! ومن جهة أخرى، فأنت تعرفين أنه لم تعد لديه ذاكرة، فمن المحتمل جداً والحالة هذه أن يكون قد نَسيَ أنه ضيفك.. إنه رجل غير عادي يا سيدتي!.. آه لو تعلمين!

فسألته قائلة في لهفة:

- أعلم ماذا؟.. ماذا تريد أن تقول؟..

- الحقيقة يا "ماريا" إنه إنسان "آلي"، فأنتِ لم تشاهديه منذ ستة اعوام، ولكنني أعرفه حق المعرفة.. إنه بقايا إنسان.. ذكرى باقية من رجل نسيَ الناس أن يدفنوه، وله عين من الزجاج، وساق من الفلين، وكله أسلاك مضغوطة "زمبلكات"، وحتى صوته صناعي..

فصاحت "ماريا" تقول وقد شعرت بالحرج:

- يا إلهي! يا لك من طائش!.. افلا تخجل من أن تتحدث هكذا عن هذا الشيخ المحترم وأنت من أقربائه؟ لا تنس على الأقل طيبته التي لا حد لها.. وتذكّر أيضاً أنه من بقايا ارستقراطيتنا!..

يا صديقي.. إن هذه الافكار الهوائية تأتيك من تلك الآراء الجديدة التي لا تكف عن الحديث عنها. يا إلهي! إنني أشاطرك أفكارك هذه وأدرك ان المبدأ الذي تبني عليه آراءك نبيل وشريف وأشعر بأنه يكمن وراء هذه الآراء الجديدة شيء ما سامٍ وعظيم.. ولكن كل ذلك لا يمنعني من أن أرى الجانب العملي من المسألة، فقد عشت في هذا العالم، وأعرف الناس والاشياء خيراً مما تعرف لأنك لست إلا شاباً.. إنه ليبدو لك أن هذا الشيخ يثير السخرية بسبب عمره، وكنت تقول منذ أيام إنك تريد ان تحرر عبيدك، وأن المرء يجب أن يعيش في عصره.. وإنك تفعل كل هذا لا شك لأنك قرأته هنا أو هنا أو هناك في مؤلفات شسكبير!.. صدقني يا "بافيل" إن شكسبير هذا قد

مات من وقت طويل، وأنه لو بُعث حياً وعاد إلى الحياة الحديثة لما فَهم منها شيئاً على الرغم من عبقريتها.. ذلك ان ارتسقراطيتنا هي الشيء الوحيد العظيم الذي ينطوي على الفروسية في مجتمعنا الحديث، فإن الأمير سيظل أميراً على الدوام حتى ولو أقام في كوخ فسيعرف كيف يجعل منه قصراً، في حين أن زوج "ناتالي دميتريفنا" الذي بنى لنفسه قصراً سيظل على الدوام هو زوج "ناتاليا ديمتريفنا" ولا شيء أكثر من ذلك.. ومهما فعلت "ناتاليا" فستبقى على الدوام كما هي: ناتاليا ديمتريفنا.. وأنت ايضاً يا عزيزي، "بافيل": .. إنك تمثل الارستقراطية، فأنت منحدر منها، وأجرؤ أنا كذلك واعتبر نفسي منها.. حسناً! ويل للابن الذي يسخر من أجداده.. ومن ناحية أخرى، فستوافقني يا صديقي أنت نفسك على أنك ستضطر عاجلاً إلى التخلي عن شكسبير هذا وطرحه وراء ظهرك، إذ أتنبأ لك بذلك.. وإني لعلى يقين من أنك لست مُخلصاً بل مُدعياً في هذه اللحظة عينها.. آه! ولكنني اسرفت في الكلام!.. انتظر هنا يا عزيزي "بافيل" فإني ذاهبة لاستطلاع بعض أخبار الأمير. إذ ربما يكون في حاجة إلى شيء، وانت تعرف خدمي!..

واندفعت "ماريا الكسندرفنا" خارجة من غرفة الاستقبال..

وحينئذ قالت، "ناستسيا بتروفنا":

- يبدو أن "ماريا" مسرورة جداً لأن الأمير لم ينزل عند "انا نيقولايفنا" الانيقة. ومع ذلك، فإن "انا" تزعم أنها من قريبات الأمير ولا بد أنها الآن تموت من الغيظ!

ولكنها لاحظت أن أحداً لم يرد عليها، فألقت على "زينا" وعلى "موجلياكوف" نظرة فهمت منها أن وجودها يضايقهما، فخرجت هي أيضاً وكأنها تريد أن تبحث عن شيء ما، ولكنها لم تذهب بعيداً، بل ظلت واقفة وراء لتستمع إلى ما يدور بينهما من حديث!

وسرعان ما اقترب "بافيل" من "زينا".. وهو منفعل وصوته يرتجف.. وقال في خجل وبلهجة متوسلة:

- هل أنت غاضبة مني يا "زينا"؟

فرفعت "زينا" إليه عينيها الرائعتين. وسألته وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة:

- غاضبة منك!.. ولماذا إذن؟

لوصولي قبل الموعد الذي كان ينبغي أن أصل فيه، فقد كنت لا أستطيع فراقاً أطول من ذلك خمسة عشر يوماً أخرى، وكنت أراكِ في احلامي! فجئت لأعرف مصيري.. ولكنك تقطبين حاجبيك يا "زينا"، فهل أنتِ غاضبة مني؟.. ألا يمكن ان أعرف اليوم شيئاً قاطعاً؟

والواقع ان "زينا" اكتأبت، وبدأت تحدثه بصوت قاس تشيع في نبراته رنة غيظ، فقالت وهي تخفض عينيها:

- لقد كنت أحس بأنك ستحدثني في ذلك! وكان هذا الشعور بالنسبة إليَّ أليماً للغاية. وكلما انقشع الشك بسرعة عن أمر من الأمور وقطع فيه برأي كان ذلك أفضل.. إنك تلح.. أي أنك تطلب

الرد، أليس كذلك؟.. ليكن ما تريد، فسيكون ردي كما كان من قبل، انتظر إنني أكرر لك ذلك، فأنا لم اتخذ بعد قراراً في هذا الشأن، ولا أستطيع أن أعدك بأنني سأكون زوجة لك... إن المرء لا يحصل على ذلك بأن يلح في طلبه يا "بافيل". ولكنني أضيف لأطمئنك أنني لا أرفضك رفضاً.. ولاحظ مع ذلك أنني إن كنت أدعك تأمل في قرار يكون في صالحك، فإنما أفعل ذلك من قبيل الرأفة بك وبما تعانيه من قلق، وأكرر لك أنني أريد أن أتخذ قراري في حرية تامة، وإنني إذا انتهى بي الأمر بأن أقول لك إنني أرفضك، فينبغي ألا تتهمني بعد ذلك بأني أثرت في نفسك الآمال العريضة، فافهم هذا جيداً..!

فصاح "بافيل" بصوت لا تزال نبراته تنطق بالتوسل:

- ولكن.. ماذا؟ ماذا إذن؟ أهذا هو الأمل؟ وهل أستطيع أن أبني أي أمل على كلامك هذا يا "زينا"؟

- تذكر ما قلته لك وابن عليه ما تشاء، فأنت حر تماماً، لن أزيد على ذلك شيئاً آخر.. إنني لا أرفضك، ولكن أقول لك فقط انتظر! وأحتفظ لنفسي بالحق في أن أرفضك إذا ما رأيت ذلك ضرورياً.. وألفت نظرك أيضاً إلى هذا يا "بافيل": فإن كنت حضرت مبكراً عما قلت لتعمل بطرق ملتوية أو على أمل أن تستعمل نفوذ شخص ما ـ نفوذ والدتي مثلاً ـ فإنك تكون قد أخطأت التقدير.. وإن كان الأمر كذلك، فسأرفضك رفضاً قاطعاً وفي الحال. أتفهم

ذلك؟.. والآن، كفى.. أرجوك! ولا تقل لي كلمة واحدة في هذا الموضوع بعد الآن حتى أحدّثك أنا فيه مرة أخرى.

نطقت "زينا" بكل هذه العبارات في لهجة جافة قاطعة، وبلا تردد، كما لو كانت تحفظها مقدماً عن ظهر قلب.. وأحسَّ "بافيل" بوطأة الصدمة فتضاعف شعوره بالخجل.

وفي تلك اللحظة دخلت "ماريا" ودخلت في أعقابها أيضاً مدام "زيابلوفا" (ناستاسيا بتروفنا)

قالت "ماريا":

إنه على وشك النزول يا "زينا".. أعتقد أنه سينزل في الحال!

ثم التفتت نحو مدام "زيابلوفا" قائلة:

يا "ناستاسيا بتروفنا".. أعدي الشاي بسرعة!

كانت "ماريا الكسندرفنا" مضطربة تماماً!..

وقالت "ناستاسيا" وهي تسرع إلى إناء الشاي:

- لقد نشطت "أنا نيقولايفنا" لاستقاء الأخبار، إذ جاءت خادمتها "انيوتكا" لتعرف الأخبار من الخدم.. آه لشد ما تشعر بالغيظ!..

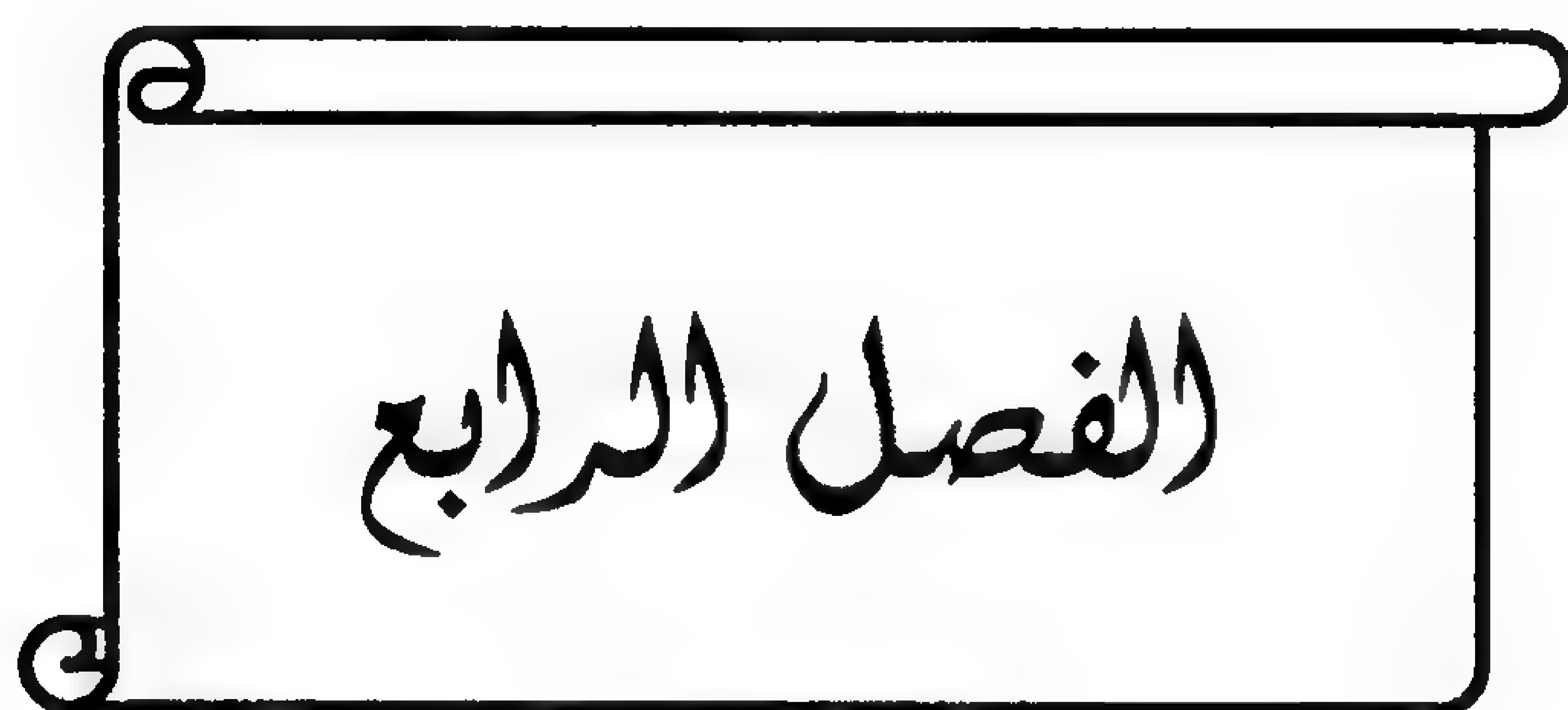
فأجابتها "ماريا" قائلة دون أن تتنازل وتنظر إليها:

- هذا لا يهمني!.. إنني لا أهتم على الاطلاق بما يمكن أن تفكر فيه "انا نيقولايفنا" وكوني على ثقة من أنني لن أرسل أحداً أبداً ليستقي

الأخبار من خدمها ، وأضيف لك إنني في دهشة عظيمة من أن الناس يعتبرونني عدوة لهذه المرأة المسكينة..! فهذا هو رأي سكان مورداسوف جميعاً! فما رأيك أنتَ يا "بافيل"؟ إن كل واحدة منا تعرف الأخرى، فلماذا أكون عدوتها؟.. أيكون ذلك لصراع على النفوذ في المدينة؟.. إنني لا أهتم بمثل هذه الأمور.. فلو كانت هي السيدة الأولى في مورداسوف، لذهبت إليها لاهنئها على ذلك. وأخيراً فإن هذا ظلم، فأنا أريد أن أدافع عنها، إذ أن هذا من واجبي.. ولماذا نفتري عليها؟ ولماذا نُلقي عليها تبعة كل شيء يحدث؟.. إنها شابة وتحب التزين، أفيكون ذلك سبباً في أن نتهمها؟.. إنني أعتبر من ناحيتي أن من الأفضل للمرأة أن تحب التزين عن أن تحب أموراً اخرى تعجب "ناتاليا ديمتريفنا" كثيراً، وهي أمور لا يستطيع المرء حتى أن يذكر أسماءها! وهل يكون اتهام الناس لها راجعاً إلى حبها للزيارات وأنها لا تستطيع البقاء في بيتها؟ ولكن يا إلهي إنها لم تنل أي قدر من التعليم، وسيكون من الصعب عليها حقاً أن تفتح كتاباً أو تشغل نفسها بأي شيء لعشرة دقائق متتالية.. إنها متبرجة، وتغمز بعينها من خلال النافذة لكل من يمر، وفوق هذا.. ولكن لماذا يتحدث الناس عنها كما لو كانت ذات جمال يُلفت الانظار؟.. إنها شاحبة إلى درجة مخيفة، وترقص بطريقة بلهاء تثير السخرية. فلماذا يُقال عنها إذن انها ترقص "البولكا" بطريقة مدهشة؟ إنها تلبس قبعات غريبة الشكل ومستحيلة.. ولكن، هل هذا خطؤها إن كان يعوزها الذوق؟

فلو أن احداً من الناس أكد لها أنها تحسن صنعاً بتثبيت ورق تغليف الحلوى في رأسها لفعلت ذلك بلا شك.. وهي تحب أن تتحدث عن غيرها، وتحب ان تعرف اخبار الغير، ولكن الكل يفعلون ذلك في مدينتنا هذه. إن السيد "سوشيلوف" بسوالفه الضخمة يظل عندها من الصباح إلى المساء، وأعتقد أيضاً أنه يظل عندها كذلك من المساء إلى الصباح.. آه!.. يا الهي! لماذا يلعب زوجها الورق حتى الخامسة صباحاً؟.. إن هناك كثيراً من امثلة السوء في مدينتنا هذه! ومن ناحية أخرى فربما كان ذلك ايضاً مجرد افتراء.. وباختصار، فإنني سأدافع عنها على الدوام.. على الدوام. ولكن، آه! يا الهي! ها هو الأمير.. إنه هو! هو! وإنني أعرف وقع أقدامه، وأستطيع أن أميزه من بين ألف.. وأخيراً، فإنني أراك يا أميري!

* * *


الفصل الرابع

جثة متحركة

إنك لا تستطيع لأول وهلة ان تأخذ الأمير على انه شيخ هرم، ولكنك ترى في وضوح حين تفحصه عن قرب انه جثة تحركها "الزمبلكات".. وقد استعمل الفن كل الحيل الصناعية المعروفة لتحويل هذه المومياء إلى إنسان مراهق: هو يلبس "باروكة" مدهشة وسوالف منتظمة ويغطي نصف وجهه شارب مستعار في لون الابنوس، وخداه مطليان بطريقة ماهرة للغاية، ووجهه خال من التجاعيد.. فأين هي؟.. وهو يرتدي ثياباً على أحدث طراز، ويبدو كنموذج من النماذج التي يعرضها الحائكون لتفصيل الملابس.. انه يرتدي الآن حلة الزيارة، وهي شيء انيق تماماً أُعدَّ خصيصاً لزيارات الصباح، كما يرتدي قفازاً "وصديرية" وربطة عنق ناصعة البياض تنم عن ذوق رفيع...

ويشرب الأمير الخمر، ولكن بمقادير قليلة للغاية.. ويبدو أن شرب الخمر لديه هو احد مقتضيات "الموضة".. وهو يضع على أحد عينيه "مونوكلا" وهي بالذات العين الزجاجية، وكله مضمخ بالعطور، ويتهته حين ينطق ببعض الكلمات، وربما كان ذلك بسبب شيخوخته، أو لأن أسنانه صناعية، أو أيضاً من قبيل حرف "الألف".. ويبدو عليه شيء من الخمول الذي نتج من حياته كرجل محظوظ.. وهو إن لم يفقد عقله تماماً، ولم تعد

لديه ذاكرة على الأقل، فهو يخطيء في كل لحظة، ينسى ويخرف ويتلعثم، ويلزم المرء أن يكون يقظاً حاضر البديهة كي يستطيع أن يتتبع كلامه أو يتابع الحديث معه.. ولكن "ماريا الكسندرفنا" تعرف تماماً قوتها وتثق من نفسها كل الثقة، ومن الواضح ان رؤية الأمير تملؤها بالحماس..

أمسكت "ماريا" ضيفها من كلتا يديه واجلسته على مقعد وثير، وصاحت قائلة:

- إنك لم تتغير أبداً.. لم تتغير على الاطلاق! اجلس.. اجلس أيها الأمير.. ست سنوات! ست سنوات كاملة دون ان ترانا أو ترسل رسالة واحدة! أو حتى سطراً واحداً!.. آه! كم أنت مخطئ في حقي ايها الأمير! ولشد ما أنا غضبى منك يا أميري العزيز!.. ولكن الشاي.. الشاي!.. يا "ناستاسيا بتروفنا".. أحضري الشاي!..

فتهته الأمير قائلاً:

- ش.. ش.. شكراً. إنني م.. م.. متشكر.

ثم اضاف قائلاً وهو يدور بعينه الوحيدة في أرجاء الغرفة:

- م.. م.. مخطئ! تصوري إنني كنت أ.. أ.. أريد حتماً أن أحضر إلى هنا، ولكنهم أخافوني وقالوا لي أن الك.. ك.. كوليرا منتشرة عندكم!

فقالت "ماريا":

- كلا أيها الأمير.. لم تكن الكوليرا منتشرة عندنا.

فقاطعها "موجلياكوف" قائلاً وهو يريد أن يظهر امتيازه:

- بل كان عندنا مرض صدري أيها العم الصغير.

فنظرت "ماريا"إاليه نظرة قاسية...

فقال الأمير:

- الج.. ج.. جديري، أو اي شيء آخر من هذا القبيل، فبقيت هناك إذن ولم احضر إلى هنا.. وأنت يا ع.. ع.. عزيزتي "ماريا" ألا زال زوجك يعمل في سلك القضاء؟

فقالت "ماريا" كلا:

- كلا أيها الأمير.. إن زوجي لا يعمل في القضاء..

فصاح "موجلياكوف" اليقظ قائلاً:

- أراهن أن العم الصغير يخلط بينك وبين "نيقولايفنا"!

ولكنه سرعان ما عض شفيته حينما لاحظ ان عبارته لم تصادف هوى في نفس "ماريا"!

وأكد الأمير قائلاً:

- بالطبع.. بالطبع.. إنها "انا نيقولايفنا".و..و. انني انسى دائماً.. حسناً! "انتيبوفا" على وجه الدقة.. ان..ت.. يوفا..

فقالت "ماريا" وعلى شفتيها ابتسامة مرة:

- كلا أيها الأمير.. أنت مُخطئ.. إنني لست "انا نيقولايفنا" واعترف لك بأنه لم يخطر لي ببال أن من الممكن أن تنساني.. إنك تدهشني أيها الأمير، فأنا صديقتك القديمة "ماريا الكسندرفنا".. أتذكر يا أمير "ماريا الكسندرفنا".

- ماريا الك.. س.. سندرفنا! تصوري! وانا الذي حسبتك "انا فاسيليفنا"!.. هذا شيء لذيذ!.. إنني لم أنزل إذن عند.. وأنا الذي كنت اعتقد يا صديقي "موجلياكوف" أنك كنت تأخذني تماماً إلى بيت "انا"!. ان هذا ش.. .. . شيء لطيف!.. وعلى أية حال، فكثيراً ما يحدث لي أن انزل في مكان آخر غير الذي أ.. أ.. أريد أن أنزل فيه، واكون م.. م.. م.. مسروراً بصفة عامة على الدوام، مهما حدث.. ألست أنت إذن "ناستاسيا فاسيليفنا"؟ هذا شيء مسل!.. فقاطعته "ماريا" قائلة وهي تتوسل بالصبر:

- إنني "ماريا الكسندرفنا" أيها الأمير! ماريا الك.. سند.. رفنا! آه! كم هذا مؤلم! انك تنسى أحسن صديقاتك!..

فصفر الأمير وهو يركز انتباهه على "زينا" ثم قال:

- بالطبع.. إنك أحسن صديقاتي! فمعذرة! مع.. مع.. معذرة!.

- هذه هي ابنتي "زينا".. إنك لم تعرفها بعد أيها الأمير، فهي لم تكن هنا اثناء زيارتك الاخيرة.. اتذكر ذلك؟

فتمتم الأمير قائلاً وهو ينظر إلى "زينا" في نهم:

- ابنتك!.. انها فاتنة! انها فاتنة!.

والتقط انفاسه ثم اضاف يقول في انفعال باد:

- ولكن.. يا له من جمال رائع!

وقالت "ماريا الكسندرفنا" وهي تلفت نظر الشيخ إلى خادم صبي يقف امامه ممسكاً بصينية في يديه:

- الشاي أيها الأمير!..

فتناول الأمير قدحاً من الشاي، وتأمل الخادم الصبي المتورد الخدين لحظة ثم قال مخاطباً ربة البيت:

- آه! آه! أهو ابنك؟ إنه ج. ج.. جميل جداً!.. و.. ومن المحتمل ان يكون حسن السير والسلوك..

فتعجلت "ماريا الكسندرفنا" الحديث إليه قائلة:

- ولكن.. أيها الأمير، لقد قصوا عليَّ الحادث الرهيب الذي حدث لك. إنك هويت في حفرة فهل أحسست بشيء من الألم؟.. ينبغي ألا يخاطر المرء بنفسه في مثل هذه المغامرات!..

فصاح الأمير قائلاً في انفعال غريب:

- لقد انقلبت العربة! لقد انقلبت العربة! لقد قلب الحوذي العربة وأنا فيها! وكنت اعتقد انها نهاية العالم أو شيء ما م..م.. من هذا القبيل. فليغفر لي القديسون.. انني شعرت بالخ.. خ.. خوف

ورأيت النجوم في وضح النهار.. وكنت لا ان.. ان.. انتظر حدوث ذلك! وكل ذلك بسبب "فيوفيل" الحوذي الذي يعمل عندي. وإنني لاعهد بكل ذ.. ذ.. ذلك اليك يا صديقي "موجلياكوف" لتقوم بعمل تحقيق في هذا الحادث فانني و.. و.. واثق من أنه حاول النيل من حياتي!

فأجابه "بافيل الكسندر فتش" قائلاً:

- حسناً! حسناً!.. سأقوم بعمل كل شيء.. ولكن، فقط.. أنصت إليَّ.. ما رأيك في ان تصفح عنه هذه المرة؟

فقال الأمير:

- كلا.. على الإطلاق.. إنني و.. و.. واثق من أنه حاول النيل من حياتي، ويشترك معه كذلك "لافرنتي" الذي تركته... هناك عندي. تصور أنه متحمس لبعض الافكار الجديدة، وهي آراء س.. س.. سلبية! إنه اشتراكي متطرف بمعنى الكلمة، وأنا لا اقابله، و.. و.. وجهاً لوجه دون أن أشعر بالذعر.

فأجابه "موجلياكوف" قائلاً:

- آه يا لها من حقيقة مرة أيها الأمير! إنك لم تصدق كم أُقاسي أنا أيضاً من هؤلاء الاشرار! فقد اضطررت إلى تغيير اثنين من خدمي.. إن هؤلاء الناس أغبياء للغاية ويجب على المرء أن ينهرهم من الصباح إلى المساء!!

فعلّق الأمير قائلاً في سرور، شأن كل الشيوخ الذين ينصت المرء إلى ثرثرتهم باحترام:

- بالطبع! بالطبع! إنني أحب أن يكون الخادم غبياً بعض الشيء، بل إن الغ.. غ.. غباء مع الاخلاص هو الميزة الاساسية في الخادم في بعض الظروف، وذلك يضفي عليه شيئاً من الو.. و.. وجاهة أو الهيبة، وبالاختصار هذا هو كل ما يرضيني، وانني أطلب أولاً من كل من يقوم بخدمتي ان يرضيني.. و.. و.. وهكذا، فلدي "تارنتي".. هل تذكره يا صديقي؟.. "تارنتي"؟ لقد عرفت العمل الذي يصلح له حينما رأيته لأول مرة، وعيناه تشبهان عيني الكبش المشرف على الغرق.. ولكن، يا لهيبته ويا لمنظره، فهو ـ بربطة العنق البيضاء ـ يحدث أثراً طيباً للغاية، وأنا أ.. أ.. أحبه بإخلاص، وأنظر إليه في بعض الأحيان فلا أ.. أ.. أمل رؤيته.. انه يؤلف كتاباً، فهو فيلسوف حقاً.. على الطريقة الالمانية. انه "كانت" بعينه.. او، على الاصح: انه كالديك الرومي السمين المتخم بالطعام!.. انه شخص ناقص لا يصلح إلا خادماً..

واخذت "ماريا الكسندرفنا" تقهقه ضاحكة وتصفق بيديها.. وحذا "موجلياكوف" حذوها، فالعم يسليه كثيراً. وضحكت "ناستاسيا بتروفنا" هي أيضاً.. وحتى "زينا" نفسها، ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة..

وصاحت "ماريا الكسندرفنا" تقول:

- آه! يا لخفة الروح! يا للمرح أيها الأمير! يا لها من موهبة ثمينة تجعلك تلاحظ عيون الغير.. وبعد هذا كله تختفي من المجتمع، وتحرم الناس من هذه العبقرية ستة اعوام طويلة!.. انك تستطيع أيها الأمير أن تؤلف المسرحيات الهزلية، وتستطيع أن تُعيد لنا مجد "فيزين" و"جريبويدوف" و "جوجول"!

فقال لها الأمير في سرور بالغ:

- بالطبع.. بالطبع.. إنني أستطيع ان أ.. أ.. اعيد هذا المجد. هل تعرفين ذلك؟ لقد كنت فيما مضى على قدر كبير من خفة الروح، بل انني كتبت مسرحية من نوع الفو.. فو.. فودفيل بها مقطوعات غنائية رائعة. ومع ذلك، فان هذه المسرحية لم تُمثَّل أبداً!.

فقالت "ماريا" في اهتمام، توجه الحديث إلى ابنتها:

- آه!.. كم سيكون ذلك مسلياً!.. أتعرفين يا "زينا" أن هذه المسرحية "الفودفيل" تأتينا في الوقت المناسب؟

ثم التفت إلى الأمير واضافت قائلة:

- لقد كونا أيها الأمير فرقة مسرحية من سيدات ورجال المجتمع، تستهدف خدمة وطنية لصالح جرحى الحرب، ونحن نرحب كثيراً بمسرحيتك.

فبدا الارتباك على وجه الأمير وهو يجيب قائلاً:

- بالطبع.. بالطبع.. انني على استعداد لكتابتها. ومع ذلك، فقد نسيتها تماماً.. ولكنني اتذكر موقفين أو ثلاثة من المواقف ذات المغزى المزدوج التي.. (ويقبل الأمير أطراف أنامله).. وبوجه عام، فانني كنت اثير الحب في قلوب النساء حينما كنت في الخارج. وكنت اعرف لورد "بايرون"، وكانت تربطني به أواصر الصداقة، وكان يرقص الرقصات الروسية في مؤتمر فينا بطريقة مدهشة...

فقاطعه "موجلياكوف" قائلاً في دهشة:

- لورد "بايرون"؟.. ماذا يا عمي؟.. ماذا تقول؟!

وأجابه الأمير قائلاً في حماس:

- بالطبع.. "بايرون".. ومع ذلك، فربما كان شخصاً آخر غير "بايرون".. آه! تماماً.. فقد كان رجلاً بولندياً، وأ.. أ.. اتذكره الآن جيداً. وكان هذا البولندي غريب الاطوار، وكان يزعم انه "كونت" ثم ع.. ع.. عرف الناس اخيراً انه كان طاهياً، ولكنه كان يرقص على الطريقة الروسية بشكل مدهش، وقد كسرت ساقه.. وبهذه المناسبة، كتبت فيه هذه الابيات:

"ان رجلنا البولندي..

"كان يرقص رقصاً مدهشاً..

يا الهي! انني لم اعد اتذكر.. (وأطرق الأمير مفكراً لحظة، ثم تذكر بقية ابياته الشعرية فقال: آه!

"لقد كسرت ساقه..

فكف عن الرقص!"

فصاح "موجلياكوف" قائلاً وهو يقفز من فرط السرور:

- آه! يا عمي الصغير! لابد أن يكون هذا هو الرجل البولندي لا لورد بايرون!

- بالطبع.. يبدو لي أنه هو، أو شيء ما من هذا القبيل. ومع ذلك، فمن الممكن الا يكون هو، فإنني أعرف فقط أن أبيات الشعر كانت موفقة للغاية.. وهناك أشياء تفلت مني، فإنني م..م.. مشغول تماماً!

فسألته "ماريا" قائلة في اهتمام:

- بالطبع أيها الأمير.. ولكن، ماذا يشغلك في عزلتك هذه؟.. إنني فكرت فيك كثيراً، وكنت اتحرق شوقاً لاعرف عنك في عزلتك بعض التفاصيل!

قال الأمير:

- ماذا يشغلني؟.. حسناً.. هذا هو.. انني اكون عادة مشغولاً للغاية، ف.. ف.. فتارة استريح، وتارة اتنزه وانا اتخيل أ..أ.. اشياء كثيرة..

فقاطعه "موجلياكوف" قائلاً:

- لابد أن خيالك خصب أيها العم الصغير..

فأجابه الأمير:

- ان خيالي خصب تماماً يا عزيزي، و... و.. ويحدث لي في بعض الأحيان أن اتخيل أموراً ثم أندهش أنا نفسي منها. فحينما كنت في كدويفو.. وبهذه المناسبة، ألم تكن أنت نا.. نا.. نائب الحاكم هناك؟

فصاح "موجلياكوف" قائلاً في ذهول:

- وأنا؟.. أنا يا عمي الصغير!.. ماذا تقول من فضلك؟

- وأنا الذي كنت أعتقد أنك نائب الحاكم في كدويفو!.. إنني كنت أقول في نفسي: لماذا تغير هكذا اذن؟ ذلك لأن الحاكم كان ذا و.. و.. وجه يفرض الاحترام وكان خفيف الروح للغاية.. انه رجل ع.. ع.. عجيب الذكاء، وكان لا يكف عن قرض الشعر في مختلف المناسبات.. واذا ما نظر إليه المرء من الجانب لاحظ أنه ي.. يشبه تماماً "ملك الكوتشينة".

فقاطعته "ماريا" قائلة في دهشة مصطنعة:

- كلاً أيهاالأمير!.. أقسم لك أن هذه الحياة ستؤدي بك إلى الضياع! أتسجن نفسك في عزلة تامة خمس سنوات فلا ترى أحد ولا تسمع أحد؟.. ولكنك رجل ضائع لا محالة أيها الأمير! واسأل اي صديق لك ممن تثق فيهم وممن ظلوا مخلصين لك، تجدهم يقولون لك مثل ما اقول: إنك رجل ضائع!

فتلعثم الأمير قائلاً:

- ح.. ح.. حقاً؟

فكررت تقول له في يقين:

- اؤكد لك ذلك.. واني اقوله لك كما لو كنت اختاً لك، لأنني أحبك، ولان ذكرى الماضي مقدسة لديَّ.. ثم، ما هي مصلحتي في ان أخدعك؟.. كلا، كلا.. يجب عليك حتماً ان تُغير طريقة حياتك، وإلا فانك ستموت.

فصاح الأمير مذعوراً:

- آه! يا الهي! هل سأموت بهذه السرعة؟... ولكنك قد فهمت يا سيدتي فان "البواسير" تعذبني وخاصة منذ بعض الوقت.. وحينما تفاجئني الازمات، فانني أ.. أ.. احس باعراض عجيبة سأصفها لك الان بالتفصيل...

فقال "موجلياكوف":

- أيها العم الصغير.. أرجو أن تقص ذلك علينا في وقت آخر.. أما الآن، ألم يحن الوقت لتذهب للنزهة؟

فأجابه الأمير موافقاً:

- بالطبع.. ليكن ذلك.. فإلى مرة اخرى، ولكن، ربما كان ذلك لا أهمية له.. ومع ذلك، فان المرض شيء غ.. غ.. غريب جداً، وله

تطورات متشعبة تماماً!.. ارجو ان تذكرني يا صديقي بأن أ.. أ.. اقص ذلك عليكم هذا المساء بكل التفاصيل، فانه نوع خاص من "البواسير"...

ومرة اخرى، قاطعت "ماريا الكسندرفنا" حديثه قائلة:

- استمع اليَّ أيها الأمير.. يجب أن تُعالج في الخارج.

فقال لها مؤمناً:

- بالطبع!.. بالطبع! فسأعالج حتماً في الخارج. وبهذه المناسبة، اتذكر اننا في عام 1820 كنا نتسلى تماماً في الخارج، وكدت أن أتزوج "كونتس" فرنسية كنت أحبها كثيراً وأريد ان أ.. أ.. أكرس لها حياتي، ولكنها تزوجت شخصاً آخر. يا له من شيء عجيب! فانني كنت قد تركتها سا.. سا.. ساعتين فقط، فغزاها خلالهما بارون ألماني، وانتهى به الأمر إلى المستشفى، م..م.. مستشفى الأمراض العقلية.

فقالت "ماريا الكسندرفنا":

- ولكنني يا عزيزي الأمير كنتُ أُحدثكَ عن صحتك، وكنت أقول لك ان من واجبك ان تفكر فيها بصورة جدية، فهناك اطباء كبار في الخارج.. ومن ناحية اخرى، فإن تغيير نمط الحياة ينطوي في نفس الوقت على اهمية بالغة.. فمن واجبك إذن على الاقل ان تترك الحياة في دوخانوفو، ولو فترة من الوقت..

- تماماً.. انني مصمم على ذلك، وأُريد استشفى بالمياه المعدنية.

- بالمياه المعدنية؟

- بالطبع.. بالطبع.. هذا ما كنت أقوله: بالمياه المعدنية. وقد س.. س.. .. سبق ان عولجت بها وسافرت إلى الاماكن التي بها عيون معدنية. وكانت هناك سيدة من موسكو نسيت اسمها، ذات روح شاعرية للغاية، وكانت في نحو السبعين من عمرها، ولها ابنة تناهز الخمسين على احدى عينيها سحابة، وكانتا تتحدثان معاً بالشعر اكثر الوقت، و.. و.. وكانت قد ترددت في كا.. كا.. كارثة، إذ قتلت خادمها في نوبة من نوبات الغضب، وكانت لها م.. م.. مشاكل مع رجال الشرطة والقضاء. وكنت اعالج نفسي وقتئذ بالمياه المعدنية وإن لم أكن مريضاً في ذلك الحين! وكان الناس يكررون لي قائلين: عالج نفسك! عالج نفسك!.. فاخذت اشرب المياه المعدنية من قبيل م.. م.. مجاراتهم، وشعرت في الواقع بان صحتي في تحسن، فشربت منها وشربت! وشربت وشربت! ش ش.. شربت بحيرة بأسرها! ان العلاج بالمياه المعدنية شيء جميل، وقد أ.. أ.. أفادتني كثيراً. ولو لم اكن قد مرضت بعد ذلك، لكانت صحتي الآن أ.. أ.. أحسن بكثير!

فقال "موجلياكوف":

- هذا صحيح يا عمي الصغير.. ولكن، قل لي: هل درست المنطق؟

فقالت "ماريا" وقد صدمتها هذه الكلمات:

- يا الهي.. يا له من سؤال!.

واجاب الأمير على سؤال "موجلياكوف" قائلاً:

- لا شك يا صديقي.. لا شك.. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، اذ درست الفلسفة في المانيا وتابعت كل المحاضرات، ثم نسيت كل ش.. ش.. شيء بعد ذلك في الحال. ولكن، أعترف لكم بأنكم أثرتم الذعر في نفسي بحديثكم عن هذه الامراض.. إلى حد إنني أشعر بأنني م..م.. منقلب رأساً على عقب..

- إنني سأعود في الحال، أ..أ.. أتأذنون لي؟

فصاحت "ماريا" تقول في دهشة:

- إلى أين تذهب أيها الأمير؟

- انني ساعود.. سأعود في الحال. انني ذاهب ف.. ف.. فقط لادون فكرة خطرت لي!.. إلى اللقاء..

فقهقه "بافيل الكسندر فتش" ضاحكاً، وصاح يقول مخاطباً ماريا:

- حسناً!.. كيف تجدينه؟

ففقدت كل صبرها وأجابته قائلة في حماس:

- لست أفهم حقاً.. لا أستطيع أن أفهم ما يُضحك!.. أتضحك من أحد أقربائك وهو شيخ محترم؟ وتقهقه لكل كلمة من كلماته؟ وتستغل

طيبته الملائكية؟.. إنني أشعر بالخجل من أجلك يا "بافيل".. ولكن، قل لي إذن: ماذا تجد فيه يثير السخرية؟ إنني شخصياً لا أرى فيه اي شيء من ذلك!

فقال لها "موجلياكوف":

- ولكنه يهذي.. ولا يتعرف على احد!.

- إن هذا نتيجة لسجنه لنفسه خمسة أعوام تحت حراسة هذه المرأة الشريرة، فيجب إذن أن نشفق عليه ونترفق به بدلاً من ان نسخر منه.. بل انه لم يتعرف حتى عليَّ، وقد رأيت ذلك بنفسك.. أليس هذا شيئاً رهيباً؟.. فينبغي إذن أن ننقذه، وإني لأقترح عليه ان يسافر إلى الخارج إلاعلى أمل أن يترك هذه.. المرأة الشريرة الماكرة:

فقال "موجلياكوف":

- أتعرفين أنه يجب أن نزوجه؟!..

- أيضاً!.. إنك يا سيد "موجلياكوف" إنسان لا يمكن اصلاحه!

- كلا يا "ماريا".. كلا، فانني هذه المرة جاد تماماً.. فلماذا لا نزوجه؟ إنها فكرة وجيهة.. وفي أي شيء سيضره الزواج؟ ففي حالته هذه لابد أن يُنقذه مثل هذا الإجراء، والقانون لا يزال يسمح له بالزواج.. وهكذا يستطيع ان يتخلص من هذه الخبيثة الماكرة،

فيتخير إذن اي فتاة مناسبة أو اي أرملة لطيفة، على ان تكون ذكية وحنوناً، وفقيرة بوجه خاص، فتعني به كل العناية، وتدرك ما ينبغي ان تدين له من جميل، فهو لن يجد أحسن من ذلك: قلباً حنوناً ومخلصاً، بدلاً من هذه المرأة المخرَّفة. ويجب من غير شك أن تكون زوجته هذه جميلة، لأن العم لا يزال يعبد الجمال.. ألم تلحظي كيف كان ينظر إلى "زينا"؟

فقالت "ناستا بتروفنا" التي كانت تصغي بانتباه:

- واين تجد مثل هذه الزوجة المثالية؟!

فقال "موجلياكوف":

- آه! يا له من سؤال!.. إنها يمكن أن تكون أنت لو أنك أردت ذلك.. واسمحي لي أن اسألك هذا السؤال: لماذا لا تتزوجين أنت هذا الأمير؟ فأنت جميلة وأرملة.. ثم أنك نبيلة و.. فقيرة، و.. شريفة للغاية، وسوف تحبينه وتعنين به، وتطردين سجانته هذه، وترافقين الأمير إلى الخارج ،وتطعمينه الثريد والفطائر والحلوى.. وسيستمر ذلك إلى اليوم الذي يبرح فيه الأمير عالم الآلام هذا، وسيحدث ذلك حتماً في مدى عام واحد، بل وربما في مدى شهرين اثنين.. وحينئذ تظلين أميرة وأرملة وثرية، ومن أجل غنائك وإخلاصك تتزوجين جنرالاً أو ماركيزاً.. إنه لشيء جميل حقاً، أليس كذلك؟

فصاحت تقول في حماس:

- آه! يا الهي! لشد ما كنت أحبه لو أنه طلب يدي، على الاقل من قبيل الاعتراف بالجميل! ..

كانت عيناها تومضان ببريق الأمل..

ثم تنهدت "ناستاسيا" بصوت مسموع، واضافت قائلة:

- ولكن هذه كلها.. أحلام!

فقال لها "موجلياكوف":

- أحلام؟.. هل تريدين أن تتحق هذه الاحلام؟ اطلبي مني فقط أن أعاونك في الحصول على هذه السعادة، وأراهنك على أنك ستكونين اليوم بالذات مخطوبة للأمير.. ذلك أن إقناع عمي من أيسر الأمور، فهو يقول دائماً: "بالطبع"، وقد سمعتيه بنفسك.. واننا سنزوجه دون أن يدري. صحيح إننا سنخدعه، ولكن ذلك سيكون في صالحه، أليس كذلك؟ وينبغي على أية حال أن تتزيني بهذه المناسبة يا "ناستاسيا بتروفيا"..

وتحول اندفاع "بافيل" إلى حماس.. وعلى الرغم من أن "ناستاسيا" امرأة رزينة عاقلة، فقد سال لعابها، وقالت:

- أعرف أنني مهملة في حق زينتي دون حاجة إلى ان تذكرني بذلك.. ألست أبدو كأنني طاهية؟..

وقطبت "ماريا" وجهها بشدة، فقد استمعت إلى اقتراح "موجلياكوف" في

شيء من الذعر.. ولكنها استعادت أخيراً رباطة جأشها، وقالت في لهفة جافة:

- إن هذا كله جميل للغاية، ولكنه نسيج خيوط واهية وفي غير موضعها!

فقال لها "موجلياكوف":

- ولما إذن يا عزيزتي "ماريا"؟.. انه ليس نسيجاً خيوطه واهية وفي غير موضعها كما تقولين!

فأجابته قائلة بلهجة اكثر حدة:

- انك في بيتي يا سيدي.. والأمير ضيفي، ولن أسمح لأحد كائناً من كان بان ينسى ما يجب نحو بيتي من الاحترام! وإنني أعتبر كلامك هذا سخرية يا "بافيل".. ولكن شكراً لله! فها هو ذا الأمير..

وصاح الأمير قائلاً وهو يدخل عليهم:

- ها أ.. أ.. أنذا. إن من المدهش يا صديقتي العزيزة أن يكون خيالي اليوم خصباً وبديهتي حاضرة! انك لن تصدقيني إذا قلت لك أن قد يحدث لي أن أظل يوماً كاملاً دون أن تمر برأسي ف.. ف.. فكرة واحدة!

فقال له "موجلياكوف":

- لا بد أن يكون سقوطك اليوم بالعربة قد هز اعصابك..

فرد الأمير قائلاً:

- وهذا ه.. ه.. هو رأيي أيضاً يا صديقي، فانا اعتبر هذا الحادث نا.. نا.. نافعاً. ولهذا، فإنني مُصر على الصفح عن خادمي "فيوفيل".. أتعرف؟ يبدو لي أ.. أ.. أنه لم يكن يحاول أن ينال من حياتي. ومع ذلك، فقد نال الجزاء الذي يستحق، إذ أنني أمرت بقص لحيته...

فقاطعه "موجلياكوف" قائلاً في دهشة:

- أمرت بقص لحيته؟ ماذا تقول؟.. إن لحيته طويلة للغاية!

فاجابه الأمير موافقاً كعادته:

- لا شك.. أنها طويلة للغاية، وأن استنتاجك عادة صحيحة تماماً، ولكنها لحية مستعارة.. هل تتصور ذلك؟ فقد تسلمت منذ وقت قريب "كتالوجا" جاءني من الخارج به عينات ممتازة من اللحى الحوذية والنبلاء، وبه ايضاً عينات منتقاة من السوالف والشعر المستعار (الباروكات).. وكل ذلك من أجود ص.. ص.. صنف، وباثمان معتدلة للغاية. فطلبت أن يرسلوا لحية لأرى ك.. ك.. كيف تكون مصطنعة لحية الحوذي، فأرسلوها إليَّ لحية را.. را.. رائعة! ولكن لحية "فيوفيل" كانت أطول منها مرتين.. ولذا وجدت ن.. ن.. نفسي في حيرة تماماً: فهل كان علي أن أ.. أ.. أُعيد اللحية المستعارة إلى مرسليها؟ أم أقص لحيلة فيوفيل؟.. وبعد ت.. ت.. تفكير طويل، اخترت اللحية المستعارة.

فقال "موجلياكوف":

- هل معنى هذا يا عمي الصغير أنك تفضل الفن على الطبيعة؟

- بالطبع.. ولشد ما تألم "فيوفيل" حينما قصصت له لحيته، إ.. إ.. إذ كان يبدو أن انتزاع كل شعرة من شعراتها معناه إضاعة يوم من ايام ح.. ح.. حياته! ولكن، ألم يحن بعد وقت الخروج يا عزيزي؟..

فأجابه "موجلياكوف" قائلاً:

- إنني يا عمي رهن إشارتك..

وصاحت "ماريا" تقول في انفعال شديد:

- أيها الأمير.. آمل أن تكون زيارتك فقط لحاكم الاقليم، وان تعود بعدها حالاً! إنك ملك لي أيها الأمير، فأنت من أفراد أسرتي طيلة اليوم. حقاً انني ليس لدي ما اقوله لك عن مدينة مورداسوف، فربما أردتَ أن تزور "انا نيقولايفنا" وليس من حقي أن أمنعك من زيارتها. وفوق هذا، فانني مقتنعة بأن التجربة ستنيرك بشأنها في وضوح. واذكر أنني أختك، وأمك، وخادمك طيلة هذا النهار. آه! انني ارتجف من أجلك يا أيها الأمير!.. كلا، كلا،.. إنك لا تعرف.. انك لا تعرف هؤلاء الناس! آه.. اذ يلزم المرء وقت طويل ليعرفهم!

فقال لها "موجلياكوف":

- اعتمدي عليَّ يا "ماريا" وسيسير كل شيء كما وعدتك.

فقالت "ماريا":

- إنني أنتظر على العشاء أيها الأمير، ونحن نتعشى عادة في ساعة مبكرة.. ولشد ما أسفت بهذه المناسبة لوجود زوجي بالريف! اذ كان خليقاً بان يُسر كثيراً لرؤيتك لو انه كان هنا، فهو يكن لك كل احترام وتقدير، وهو يحبك حقاً باخلاص!

فقال لها الأمير وقد بدت عليه الدهشة:

- زوجك!.. هل لك ز.. ز.. زوج اذن؟

فأجابته قائلة وهي تصطنع المزيد من الصبر والتجلد:

- آه! يا الهي! إن ذاكرتك ضعيفة جداً أيها الامير. هل نسيت إذن الماضي تماماً؟ وهل نسيت حقاً زوجي "افاناسي"؟.. إنه الآن في الريف ولكنك رأيته كثيراً فيما مضى، فتذكر إذن أيها الامير: "افانسي متيفتش"..

- "افاناسي م.. م.. متيفتش"؟ في الريف؟ هل هذا صحيح؟ إن ذلك شيء لذيذ! ان لك زوجاً؟.. ان هذا الشيء ع.. ع.. عجيب! فهناك مسرحية من نوع "الفودفيل" عنوانها: "الزوج المطرود والزوجة في..." آه! عفواً! فقد نسيت بقية العنوان.. اعتقد ان الزوجة في هذه المسرحية ت.. ت.. تسافر إلى مدينة "تولا" أو إلى مدينة "ياروسلاف" وباختصار: فهي م.. م.. مسرحية لطيفة للغاية!

وهمس "موجلياكوف" في إذن الأمير قائلاً:

الزوج المطرود والزوجة في مدينة "تفير" أيها العم الصغير. فقال الأمير:

- بالطبع.. بالطبع.. اشكرك يا صديقي.. في مدينة "تفير" تماماً. هذا شيء لطيف! ل.. ل.. لطيف! نعم، نعم.. والزوجة في مدينة "كستروما".. أي اخيراً: أنها رحلت. هذا لطيف! ل.. ل.. لطيف! آه ولكني نسيت ما كنت اقول: آه! نعم.. إننا خارجون، اليس كذلك؟ إلى اللقاء يا سيدتي! الوداع يا أنستي الساحرة! .

ويُقبل الأمير انامل "زينا"..

وتصيح "ماريا" قائلة وهي تهرول من خلفه نحو الباب:

- العشاء.. العشاء أيها الأمير.. عُد مبكراً بأسرع ما تستطيع!

* * *

الفصل الخامس

محاولات مستميتة

قالت "ماريا الكسندرفنا" بعد أن رافقت الأمير حتى الباب:

- حسناً تفعلين يا "ناستاسيا بتروفنا" أن ذهبت لالقاء نظرة على المطبخ، فإنني أشعر بان هذاالمجرم "نيكتيكا" قد سكر وحرق طعام العشاء..

فأطاعت مدام "زيابلوفا" وألقت وهي تخرج نظرة على "ماريا" فلاحظت أن هذه السيدة الرزينة قلقة للغاية. وبدلاً من أن تذهب "ناستاسيا" لمراقبة هذا المجرم "نيكيتكا"، فإنها مرَّت بغرفة مجاورة خرجت منها إلى الدهليز، ثم إلى غرفتها. ومن هناك، دلفت إلى داخل غرفة للمهملات مملوءة بالحقائب والملابس القديمة ومخلفات البيت بأسره، ثم اقتربت على أطراف أصابعها من باب مغلق، وحبست أنفاسها وراحت تختلس النظر من خلال ثقب المفتاح.. وكان هذا الباب موصداً على الدوام، وهو احد الابواب الثلاثة التي تفتح على غرفة الصالون".

وكانت ماريا تعرف تماماً ان "ناستاسيا" ماكرة عديمة الذوق، وأن من عادتها أن تسترق السمع بلا ضمير من وراء الأبواب، ولكن ربة البيت كانت في تلك اللحظة مشغولة تماماً إلى حد أنها أهملت أن تتخذ أي

احتياط، فجلست على مقعد كبير والقت على "زينا" نظرة ذات مغزى، واحست "زينا" بهذه النظرة تثقل عليها فانقبض قلبها..

وقالت "ماريا":

- "زينا"!..

فأدارت "زينا" وجهها الشاحب نحو والدتها ببطء ورفعت عينيها الحالمتين..

فقالت الأم:

- "زينا".. يجب أن أحدثك في أمر هام..

كانت "زينا" واقفة تنتظر وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وكان يبدو على وجهها مزيج من الغيظ والسخرية..

قالت "ماريا":

- أريد أن أعرف رأيك في "موجلياكوف" هذا..

فقالت "زينا" على مضض:

- إنك تعرفين رأيي فيه منذ وقت طويل..

- نعم يا ابنتي.. ولكن يبدو لي أنه أصبح وقحاً وجريئاً.. هذا فضلاً عن أن إلحاحه يثيرني.

- إنه يقول أنه يحبني.. ولو كان هذا صحيحاً، فمن الممكن ان نغفر له هذا الالحاح..

- هناك شيء يدهشني.. فانك كنت فيما مضى لا تغفرين له بهذه السهولة.. بل كنت على العكس قاسية جداً حياله حين كنتُ أُحدثك عنه..

- وأنا.. هناك شيء آخر يُدهشني، فانك كنت فيما مضى تدافعين عنه، وها أنت ذي تهاجمينه الآن!

- أعترف بأنني رغبت في هذا الزواج، إذ كان مما يؤلم نفسي أن أراك حزينة على الدوام. وكنت أفهم حزنك حق الفهم، لأنني قادرة على ان افهمه بالرغم من كل ما يمكن ان تظنيه بي. وكان حزنك يطرد النوم من عيني.. واخيراً، اقتنعت بأن شيئاً واحد فقط يمكن ان ينقذك: هو حدوث تغيير كبير في حياتك. وهذا التغيير لا بد أن يكون هو الزواج. إننا لسنا أغنياء، ولا نستطيع السفر إلى الخارج. ويبدي هؤلاء الأغبياء الذين يسكنون هذه المدينة دهشتهم لرؤيتك بلا زواج حتى الآن وقد اصبحت في الثالثة والعشرين، وهم يخترعون الأساطير بشأنك.. ولكن، هل أستطيع أن أُزوجكِ مثلاً أحد مستشاري هذه المدينة البلهاء؟ أم أزوجك "ايفان ايفانتش" محضر المدينة؟.. هل يوجد هنا زوج يليق بك؟ لا شك في أن "موجلياكوف" ليس إلا شخصاً مغروراً، ولكنه يُعتبر "مقبولاً" إلى حد ما بين هؤلاء الناس، فهو من أسرة طيبة، ويملك أرضاً يعيش عليها مائة وخمسون شخصاً.. وهذا خير على أية حال من موظف يعيش على الرشوة، ويعلم الله على أية ألاعيب أخرى. ولهذا فقد فكرت في!

"موجليا كوف".. ولكنني على كل حال لم أشعر نحوه باستلطاف حقيقي، وانني اليوم واثقة من ان الله سبحانه قد أوحى إليَّ بهذا الحذر من قبيل الانذار، ففكري اذن! فإن تقدَّم إليكِ الآن زوج يفضله، أفلن تثني عليَّ لأنني لم ارتبط بعد بكلمة مع اي شخص؟ واياك يا "زينا" ان تكوني اليوم قد وعدتيه بشيء.

فقالت "زينا" بلهجة قاطعة:

- لماذا كل هذا الكلام يا أماه في الوقت الذي تستطيعين فيه ان تعبري عما تريدي في كلمتين؟
- أتلومينني على كلامي يا "زينا"؟ كيف استطعت أن تُخاطبي أُمك بهذه اللهجة! آه! إنك لا تثقين فيَّ على الاطلاق! انك تعتبرينني عدو لا أماً!
- كفى يا أمّاه.. أنتشاجر من أجل بعض الكلمات.. إن كل واحدة منا تعرف الأُخرى حق المعرفة..
- ولكنك تشتمينني يا ابنتي.. ألا ترين أنني مصممة على عمل كل شيء.. كل شيء لإسعادكِ؟

فنظرت "زينا" إلى والدتها نظرة غريبة امتزج فيها السخط بالسخرية، وسألتها قائلة وهي تبتسم ابتسامة غامضة:

- ألا ترغبين أن أتزوج الأمير لاسعادي؟
- إنني لم أنطق لك بكلمة واحدة في هذا الشأن، ولكن بما انك

تتحدثين عنه، فإنني أقول لكِ أن زواجك منه ـ إن امكن ـ سيحقق لك السعادة.

فصاحت "زينا" تقول في غضب:

- وإني اجد هذا شيئاً تافهاً.. تافهاً! كما أجد يا والدتي انك خصبة الخيال اكثر مما ينبغي، فأنت امرأة شاعرة.. وهكذا يقول عنك اهل موردا سوف، ولا تكفين عن التفكير في المشاريع الضخمة، ولا تقفين امام المستحيل.. انني شعرت حينما رأيت الأمير بان هذه الفكرة ستراودك. وحينما كان "موجلياكوف" يسخر منه، ويقول اننا يجب أن نزوجه، قرأت كل افكارك في وجهك، وفوق هذا، فقد بدأت تحدثينني عن "موجلياكوف" لتحولي مجرى الحديث بعد ذلك إلى هذا الشيخ.. ولكن أحلامك تضايقني إلى حد الموت.. اتفهمينني؟ كفى ارجوك.. فلست أريد أن أسمع عنه كلمة واحدة.. ارجوك ان تأخذي ما اقوله لك الآن مأخذ الجد.. اتفهمينني يا أماه.. ولا كلمة واحدة في هذا الموضوع. فأجابتها والدتها قائلة بصوت رقيق:

- إنك طفلة "يا زينا".. طفلة مريضة وسريعة الغضب.. ولا تحترمينني الاحترام الواجب، وتجرحين كرامتي. وليست هناك أم تحتمل ما أحتمله منك كل يوم. ولكنك تتألمين، وانا والدتك، واعاملك قبل كل شيء كما يأمر الدين بأن تعامل الأم ابنتها، فأتحملك وأغفر

لك.. لكن هناك كلمة واحدة فقط يا "زينا".. فإذا كنت حقاً قد حلمت بهذا الزواج، فماذا ترين فيه من تفاهة؟ انني ارى حقاً ان "موجلياكوف" لم يتحدث قط بطريقة منطقية مثلما تحدث الآن وهو يبرهن على أن الزواج أمر ضروري بالنسبة للأمير. ولكنه أخطأ فقط حين فكر في "ناستاسيا" هذه المرأة النهمة..

- قولي لي بصراحة يا أُماه إذا كنت تحدثينني في هذا الموضوع بدافع من حب الاستطلاع فقط أو لغرض مبيت في نفسك..

فلم تجب "ماريا" على سؤال ابنتها، وانما قالت:

- ارجوك ان تردي على سؤالي: ماذا تجدين في هذا الزواج من تفاهة؟

فأجابتها "زينا" قائلة وهي تدق الارض بقدمها:

- آه! ما كل هذه المضايقة؟ يا للمصير البائس الذي تعدينه لي! وإنني سأقول لك الحقيقة إذا كنت لم تفهميها بعد فأنت تريدين أن ننتهز فرصة ارتداد هذا الشيخ إلى الطفولة فنخدعه لأتزوجه وهو عاجز جسمياً، وفان، وذلك كي نسلبه ماله ونتمنى موته في كل يوم. هذا هو الأمر كما أراه، وهو ليس تفاهة فقط، بل ودناءة ايضاً.. وانني لا أُهنئك على مثل هذه الافكار يا أماه!

وانقضت لحظة صمت.. وفجأة، قالت الأم تسأل ابنتها:

- "زينا".. هل تذكرين ما حدث منذ عام؟..

فانتفضت "زينا" وقالت بانفعال شديد:

- لقد وعدتيني بعدم العودة إلى الحديث أبداً في هذا الموضوع!

- إنني لم أفعل ذلك أبداً حتى هذه الساعة.. حسناً يا ابنتي، وأرجوك أن تحليني من وعدي مرة واحدة فقط.. لقد دقت ساعة التفاهم الصريح بيننا يا "زينا" وكان هذان العامان من الصمت قاتلين بالنسبة إليَّ، ولا يمكن أن تستمر الأمور على هذا المنوال.. انني على استعداد لان أتوسل إليك راكعة كي تسمحي لي بأن أتكلم.. افهميني يا "زينا".. إن أمك نفسها ستركع أمامك. وأعدك من جهة أخرى وعداً قاطعاً ـ وهذا كلام صادر من أم بائسة تعبد ابنتها ـ بأنني لن أحدثك بعد اليوم في هذا الموضوع مهما حدث، وفي أي ظرف من الظروف، حتى ولو تعلق الأمر بحياتي. إنه أول وآخر مرة أُحدثك فيها بشأنه، ولكن يجب أن أفعل ذلك..

فقالت "زينا" وهي شاحبة للغاية:

- تكلمي!..

كانت "ماريا" قد قدَّرت كل شيء بدقة تامة، فقالت لابنتها:

- شكراً يا "زينا".. فمنذ عامين، جاء إلى منزلنا مدرس صغير السن بمدرسة ريفية، وكان ذلك من أجل المرحوم أخيك الصغير "ميتيا"..

فقاطعتها "زينا" قائلة في اشمئزاز:

- ولكن يا أُماه.. لماذا هذه اللهجة المهيبة؟ ولماذا كل هذه الفصاحة، وكل تلك التفاصيل الاليمة عديمة الفائدة التي نعرفها أنا وانت حق المعرفة؟

- لأنه يجب عليَّ - وأنا أمك - أن أُبرر موقفي في نظرك. وفوق هذا، أريد أن أعرض عليك هذا الموضوع بأسره في ثوب جديد بالنسبة إليك هو ــ فيما أرى ــ ثوبه الصحيح. وأخيراً، فبغير كل هذه المقدمات، لن تستطيعي ان تفهمي تماماً ما أريد أن أستنتجه من هذا الموضوع. وارجو الا تعتقدي يا ابنتي أنني أريد أن ألعب بعواطفك. كلا يا "زينا" فستجدين فيَّ أُماً بمعنى الكلمة، بل وربما بكيت وركعت أمام قدمي متوسلة أن أُتم عقد هذا الصلح الذي حال كبرياؤك منذ زمن طويل أن تقبليه.. فيجب عليَّ إذن أن أرجع إلى مصادر الأمور أو أن ألزم الصمت..

فأخذت "زينا" تلعن فصاحة أُمها من كل قلبها وكررت قائلة:

- تكلمي!..

- حينئذ، أستطيع ان اتابع الحديث.. كان مدرس المدرسة الريفية هذا لا يزال صبياً تقريباً، ولكنه أثَّر فيك تأثيراً عجيباً لا أستطيع أن أفهمه، وكنت اعتمد على حكمتك وسمو عواطفك، كما كنت أعتمد أيضاً على أنه غير جدير بك - ذلك لأن من واجبي أن أقول الآن كل شيء ــ لأوقن أن حدوث أي شيء بينك وبينه أمر

مستحيل. فجأة، جئتِ إليَّ وصرحتِ لي في صلابة بأن في نيتك أن تتزوجيه. لقد كان ذلك يا "زينا" كطعنة خنجر نفذت إلى قلبي، فأخذت أصيح وهويت فاقدة الوعي، ولكنك تذكرين كل ذلك.. ولا شك في أنني رأيت من الضروري أن استعمل كل سلطتي في هذه المناسبة، فلم تتواني في وصفي بأنني طاغية.. فكري إذن في أنه كان صبياً تقريباً، وفي أن والده خادم في الكنيسة، ومرتبه إثنا عشر روبلاً في الشهر، وكان يكتب أشعاراً رديئة كانت مكتبة القرية تطبعها له من قبيل الشفقة به، وكان لا يعرف كيف يتحدث إلا عن شكسبير الملعون هذا.. هذا الصبي، زوج لك؟! زوج لابنتي "زينا موسكاليفا"؟! ولكن هذا لا يحدث إلا في المسرحيات الريفية التي ألفها الشاعر الفرنسي "فلوريان".. سامحيني يا "زينا".. ولكن هذه الذكرى تثيرني للغاية.. فرفضت ان اقبل ان تتزوجيه، ولم ينجح شخص من الأشخاص ـ ولا حيلة من الحيل ـ في إيقافك عند حدك. وبالطبع، ظل والدك على الحياد، لانه كان عاجزاً عن ان يفهم حينما شرحت له الأمر، وكان ما كان يعرفه هو أن يطرف بعينيه كالعادة..

استمررت إذن في علاقتك بهذا الصبي، بل وحددت له بعض المواعيد، وياله من شيء رهيب! فقد جرؤت على الكتابة إليه! وسرعان ما أخذ الناس يتناقلون الشائعات عنك، وبدأوا يلمحون لي تلميحات جارحة، وشعروا بسرعة بشعور الشماتة والفرح، وشرعوا ينفخون في أبواق الافتراء..

وحدث حينئذ ما كنت أتنبأ به بالحرف الواحد، إذ نشب الخلاف بينكما، وتشاجرتما، وأظهر أنه غير جدير بك، وهَدَّدك بأن يعرض رسائلك على الناس، فثرتِ أنت ثورة عارمة وصفعته على وجهه.. نعم يا "زينا" فأنا أعرف أيضاً هذا الظرف، أعرف كل شيء.. أعرف كل شيء!..

وفي اليوم نفسه، أعطى هذا الصبي إحدى رسائلك إلى "زاروشين" الشرير، وبعد ساعة واحدة كان هذا الخطاب في يد "ناتاليا ديمتريفنا" عدوي اللدود. وفي ذلك المساء ذاته، حاول هذا الأبله أن ينتحر بتناول السم نادماً بسرعة على فعلته الرهيبة. وباختصار: كانت فضيحة كبيرة! وجاءت "ناستاسيا" النهمة هذه مذعورة تعلن أن خطابك هذا في قبضة "ناتليا ديمتريفنا"، ساعة والمدينة بأسرها ستتحدث بفضيحتك. وضغطت على أعصابي ضغطاً رهيباً حتى لا أفقد الوعي.. يا لها من ضربة يا "زينا" سددتها إلينا هذه الشقية الوقحة!..

وساومتنا "ناستاسيا" على هذا الخطاب، وطلبت منا مائتي روبل ثمناً لاسترداده. فارتديتُ حذاءً خفيفاً، وجريت بنفسي على الجليد لأرهن علبة جواهر عند اليهودي "بومشتاين".. وهي تذكار من والدتي الفاضلة. ولم تمضِ ساعتان حتى حصلت على الخطاب، فقد سرقته "ناستاسيا" بأن حطمت العلبة التي كان بها وهكذا عاد شرفك سليماً مرة اخرى.. لقد محونا كل أثر لتلك الرسالة، ولكن يا له من يوم رهيب!.. وفي اليوم التالي، لاحظت في رأسي بعض شعرات بيضاء، وكانت هذه يا "زينا" أول شعرات بيضاء في رأسي!..

وفَهمتِ بنفسك كم كان هذا الصبي غير جدير بك، إذ أنك تعترفين الآن ـ وربما كان ذلك بمرارة ـ بأنه كان من الجنون أن تربطي مصيرك بمصيره. ومع ذلك، فانك تعذبين نفسك منذ ذلك الحين، وتتألمين ولا تستطيعين نسيانه، وهو طبعاً لم يفعل ذلك، فإنه كان على الدوام سافلاً للغاية، ولا يستحق أن ترفعي إليه عينيك.. ولكنه كان اول حلم حب بالنسبة اليك. واليوم، فان هذا الشقي على فراش الموت، ويُقال أنه مُصاب بذات الرئة. وأنتِ ـ يا ملاك الرحمة ـ ترفضين كل زواج ما دام حياً لتجنبيه الألم.. ومع ذلك، فإنني واثقة من أنه لم يحبك قط حباً صادقاً سامياً! وهذا لا يمنعه من التجسس على حركات "موجلياكوف" كما أنه يتجسس على بيتنا، ويحصل على معلومات عنا.. إنك ترثين لحاله يا ابنتي، وقلبي يفهمك، ويعلم الله مقدار الدموع الساخنة المرة التي اغرقت وسادتي..

فقاطعتها "زينا" قائلة في اشمئزاز:

- ولكن.. لا داعي لكل ذلك يا أماه، فذكر وسادتك هنا ليس ملائماً على الاطلاق!.. الا تستطيعين ان تتكلمي ببساطة؟

- انك لا تصدقينني يا "زينا"!.. لا تعامليني هكذا يا ابنتي معاملة سيئة، فمنذ عامين وأنا لا أكف عن البكاء أُخفي دموعي. وأؤكد لك يا "زينا" انني قد تغيرت كثيراً ويا للاسف اثناء هذين العامين القاتلين!.. انني اعرف مشاعرك منذ وقت طويل، وقد قست كل ابعاد حزنك.. فهل يمكن أن أُتهم يا صديقتي بأنني قد نظرت إلى

هذه العلاقة على أنها خيال رومانتيكي نشأ تحت تأثير هذا اللعين شكسبير؟.. فأي أم تستطيع أن تلومني على الاحتياطات التي اتخذتها أو تعتبر حكمي عنيفاً قاسياً اكثر مما ينبغي؟ ومع ذلك، فإنني استعيد في خاطري آلامه الطويلة، وأفهم وأقدِّر مدى حساسيتك.. صدقيني إذا قلت لك إنني ربما افهمك خيراً مما تفهمين نفسك. وإنني لعلى يقين من أنك لا تحبينه، هذا الصبي المضحك: إنما تحبين فيه حلم حبك، وسعادتك المفقودة وأوهامك التي طارت منك.. فقد أحببت أنا أيضاً، وبطريقة أكثر عمقاً منك، وقاسيت أنا أيضاً، وكانت لي أنا الاخرى خيالاتي! فأنا لا أتكلم إذن عن غير تجربة، واذا ما قلت ان زواجك بالأمير سيكون بالنسبة اليَّ بمثابة الانقاذ، فربما استحق حينئذ ان تنصتي اليَّ!

* * *

واستمعت "زينا" في دهشة إلى هذه المرافعة الطويلة وهي تعلم تماماً أن والدتها لا تتخذ قط مثل هذه اللهجة المؤثرة دون أن يكون هناك هدف خفي تضمره وإصرار سابق. ومع ذلك، فقد جاءت النتيجة لتقذف بالفتاة في حالة من الارتباك التام!..

واستولى الذهول على "زينا" وصاحت تقول وهي تنظر ملياً إلى والدتها التي اتخذت مظهر الوقار والجلال:

- إن زواجي بالأمير ليس إذن مجرد مشروع في الهواء، وانما نية مبيتة؟ ولكن.. كيف يمكن أن ينقذني هذا الزواج؟ و.. و.. أي علاقة بين هذا كله وبين كل تلك القصة الطويلة التي سردتيها على مسامعي منذ لحظة؟.. حقاً إنني لا أفهمك يا أماه!

فقات الأم في دهشة وقد سيطر عليها الاندفاع فجأة:

- وإنه ليدهشني يا ملاكي ألا تفهميني!.. فأولاً: إن مجرد هذه الحقيقة وهي انك ستنقلين إلى مجتمع آخر وعالم آخر وتبرحين إلى غير رجعة هذه المدينة الصغيرة التي تثير الاشمئزاز، المملوءة بالذكريات الرهيبة بالنسبة إليك، والتي ليست لك فيها أي عاطفة، وفيها أُثيرت حولك الشائعات، ويمقتك فيها كل هؤلاء النساء الثرثرات بسبب ما تتمتعين به من جمال.. أقول إن مجرد هذه الحقيقة وحدها ذات أهمية بالغة.. ثم إنك تستطيعين منذ هذا الربيع أن تسافري إلى الخارج: إلى ايطاليا.. إلى سويسرا.. إلى اسبانيا يا "زينا" حيث "قصر الحمرا" و"الوادي الكبير" في غرناطة!.. وكفاك نظراً إلى هذا النهير الصغير القذر في مورداسوف، وسماع اسمه الذي يبعث على الملل والنفور!

فقالت "زينا":

- ولكن.. أتسمحين يا أُماه؟.. إنك تتحدثين كما لو كنت متزوجة بالفعل، أو ـ على الاقل ـ كما لو كان الأمير قد طلب يدي!..

فأجابتها والدتها بلهجة أكثر ترفقاً:

- لا تقلقي من هذه الناحية.. لا تقلقي يا ملاكي فانني اعرف ما اقول.. ودعيني اتمم كلامي، فقد ذكرت النقطة الأولى وهذه هي الثانية، فانني ادرك يا ابنتي كم يكون اليماً بالنسبة اليك ان تتزوجي "موجلياكوف".

فقاطعتها "زينا" قائلة في انفعال بالغ:

- أعرف أنني لن أكون أبداً زوجته دون حاجة لأن يقول لي ذلك أي إنسان..

- آه لو تعلمين يا عزيزتي الصغيرة فلشد ما أعرف هذا الشعور بالاشمئزاز! أن من المرعب حقاً أن يُقسم المرء أمام المذبح المقدس يمين الحب والاخلاص لشخص لا يحبه ولا يستطيع أن يحبه.. نعم، من المرعب أن تُنتسب المرأة إلى رجل لا تستطيع أن تشعر نحوه بالاحترام!.. إنه سيطالبك مع ذلك بالحب.. وهو سيتزوجك لتملكك، ويمكن استنتاج ذلك إلى درجة كافية من نظراته التي وجهها إليك حين لا تكونين ناظرة اليه!

ولكن كيف يستطيع المرء ان يمثل الحب على الدوام؟.. آه يا ابنتي!.. ها أنذا أُقاسي أنا نفسي من هذه المهزلة المفروضة عليَّ منذ خمسة وعشرين عاماً.. فقد ضيعني والدك، بل أستطيع أن أقول أنه سمَّمَ شبابي كله.. وكم من مرة رأيت فيها دموعي تسيل!..

ومرة اخرى، قاطعتها "زينا" لتقول في مزيج من الغضب والحماس:

- إن "بابا" في الريف.. وارجوك ألا تهاجميه، خاصة في غيابه!

- نعم.. إنك تدافعين عنه على الدوام.. إنني أعرف ذلك.. آه يا "زينا"! إن قلبي كان ينقبض حين كانت الحيطة تضطرني إلى أن اتمنى أن تتزوجي "موجلياكوف"! أما الأمير، فلن تكوني معه في حاجة إلى تمثيل أية مهزلة، فغني عن البيان أنك لا تستطيعين أن تحبيه بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، وهو من ناحية أخرى عاجز عن أن يطلب منك مثل هذا الحب..

فاندفعت "زينا" تقول بصوت حاسم النبرات:

- يا إلهي! يا لها من حماقة! اؤكد لك أنك مخطئة تماماً من أول الأمر إلى آخره وليس في نيتي أن أُضحي بنفسي، واجهل من ناحية اخرى لاي هدف افعل ذلك.. ألا فاعلمي أنني لا أريد أن اتزوج.. لن أتزوج أحداً على الاطلاق، وسأبقى أبداً فتاة عذراء.. إنك قد تسببت في عذابي طيلة هذين العامين، و..

فقاطعتها أمها قائلة بلهجة رفيقة متوسلة:

- بالله لا تغضبي يا "زينا" دون أن تُنصتي إليَّ يا صديقتي الصغيرة!، يا لرأسك الصلبة!.. دعيني أعرض عليك الأمر من وجهة نظري، فستتفقين حينئذ معي.. ومن المحتمل أن يعيش الأمير عاماً آخر، أو ربما عامين على الأكثر.. فمن الأفضل أن تكوني أرملة شابة من أن

تظلي عانساً متقدمة في السن. وفوق هذا فإنك تظلين بعد وفاته أميرة وثرية وطليقة حرة.. قد تحتقرين يا عزيزتي هذا التقدير المبني على موت رجل، ولكنني أُمّ، ومن ذا الذي يستطيع أن يلومني على بُعد نظري واحتياطي للمستقبل؟؟.. واخيراً، فإن كنت ـ أنت يا ملاك الرحمة ـ لا تزالين تندمين على هذا الصبي، وترفضين ـ كما أشك في ذلك ـ أن تتزوجي أي رجل آخر ما دام هو على قيد الحياة، ففكري إذن في أنكِ بزواجك من الأمير ستحبين من تحبين.. فإن كان لا يزال على شيء من المنطق السليم، فسيفهم حقاً أنه لا مجال للغيرة من الأمير، إذ أن الغيرة هنا تبعث على السخرية، وسيفهم أنك لا تتزوجين الأمير إلا من قبيل المصلحة وتحت ضغط الضرورة.. وسيفهم أخيراً أنكِ ـ بعد وفاة الأمير ـ تستطيعين أن تتزوجي بعده مَن تشائين..

فقالت لها "زينا" في برود وسخرية:

- إنك تريدين أن أتزوج الأمير، وأجرده من أمواله، ثم أنتظر وفاته لأتزوج بعد ذلك مَن أُحب، أليس كذلك؟.. إنك ماهرة جداً، وتريدين إغرائي بأن تقترحي عليَّ...! إنني أفهمك يا أماه.. أفهمك جيداً!.. هذا مع عجزك عن الامتناع عن إظهار المشاعر النبيلة حتى في مسألة كريهة كهذه!.. لقد كان من الأشرف أن تقولي لي بكل بساطة: "يا زينا.. إنه عمل دنيء، ولكنه مُربح..

فاقبليه إذن" فإن ذلك كان خليقاً بأن يكون أكثر صراحة على الأقل.

- ولكن، لماذا تصرين على النظر إلى هذا الموضوع من زاوية المكر والخداع والجشع، وتعتبرين تقديري هذا خبثاً دنيئاً؟.. استحلفك بكل ما هو مقدس أن تُبيني لي أين هي الدناءة والخُبث هنا؟.. انظري إلى نفسك في المرآة، فأنت جميلة إلى حد يجعلك قادرة على غزو دولة بعينيك وحدهما!.. ثم تضحين ــ وأنت رائعة الجمال! ــ بأجمل أيام عمرك من أجل شيخ.. أنت أيها النجم الرائع تجملين غروب حياته، وكالنبات المتسلق المزهر تزينين شيخوخته!.. لقد اعتاد أن يعاشر ساحرة تسجنه بعيداً عن العالم.. وأنت يا "زينا" ـ أنت ـ تخلفين هذه الساحرة.. فهل يكثر عليك إذن ماله ولقبه؟ وأي خُبث وأي دناءة تجدينها هنا؟.. إنك يا "زينا" لا "تعرفين" ما تقولين!

فقالت لها "زينا" بلهجة أكثر سخرية:

- بالطبع!.. إنني اساوي ماله ولقبه، لأنني كي أحصل عليهما اتنازل واتزوج رجلاً عاجزاً.. اسمعي يا أُماه.. فلنسم الأشياء بأسمائها ولنضع النقاط فوق الحروف: إن هذا خُبث دنيء!

- بل على العكس يا صديقتي، على العكس! اننا نستطيع ان ننظر إلى الموضوع من وجهة نظر سامية، من وجهة نظر الدين.. لقد

قلت لي في يوم من الايام في لحظة من لحظات اليأس انك تريدين ان تصبحي راهبة من راهبات الرحمة، وكان قلبك حينئذ يمتلئ حباً بفكرة آلام البشر، وكان أي حب آخر يبدو في نظرك صغيراً لا طعم له. حسناً إن كُنتِ أصبحت لا تعتقدين في الحب، فاعتقدي في الإخلاص والتفاني بكل نقاء.. كرّسي نفسك لغيرك يباركك الله!.. إن هذا الشيخ قد قاسى كثيراً، وهو بائس يضايقه الناس، فأنا أعرفه منذ سنوات، وقد احسست نحوه دائماً باستلطاف لا يمكن تفسيره، بل وبنوع من الحب. وكنت أتنبأ بالمستقبل. فكوني صديقته وابنته، بل ولعبته، وبثي الدفء في قلبه.. إنك تقولين إنه يُثير السخرية، ولكنه لا يفكر في ذلك على الإطلاق.. وتقولين إنه نصف رجل، فارثي لحاله لانك متمسكة بأهداب الدين.. اضغطي على نفسك، فإن المرء يستطيع أن يقوم بمثل هذه الاعمال الجليلة. إن تضميد الجراح في المستشفيات أمر مؤلم، واستنشاق هواء المصحات المشبع بالميكروبات شيء كريه.. ولكن هنا ملائكة يقومون بهذه الاعمال المنفردة دون ان يشعروا بالاشمئزاز، ويشكرون الله على مصيرهم المحزن.. هذا هو الدواء الذي يحتاجه قلبك المحطم، وهو عمل كله بطولة! فأي انانية ترينها هنا واي دناءة؟.. انك لا تصدقينني، وتعتقدين أنني أقوم معك بدور تمثيلي ولا تستطيعين أن تفهمي أن سيدة مجتمع مثلي تعيش في هذا الجو المنحرف يمكن أن تكون ذات مشاعر سامية هكذا!.. لا تصدقيني

يا ابنتي! وتشككي في قلب والدتك، ولكن اعترفي بأن كلامي هذا حكيم ومنقذ.. انسي أنني أنا التي أُخاطبك.. أغمضي عينيك وأديري لي ظهرك، وتخيلي أن صوتاً خفياً يوجه إليك هذا الحديث.. إن ما يحيرك خاصة هو مسألة المال، فهو مظهر البيع والشراء.. حسناً، ارفضي المال إن كنت تكرهينه إلى هذا الحد، ولا تقبلي منه إلا ما هو ضروري وامنحي الباقي للفقراء. مدي مثلاً يد المعونة إلى هذا البائس الذي يرقد على فراش الموت والذي تفكرين في الزواج منه..

فقاطعتها "زينا" قائلة في رفق وكأنها تحدث نفسها:

- إنه لن يقبل شيئاً.. أي شيء!..

فشعرت الأم بأنها قد لمست هنا من ابنتها وتراً حساساً فقالت:

- إن رفض فستقبل أُمه بدلاً منه.. ستقبل دون أن يعرف هو ذلك.. إنك قد بعت قرطك. وهو هدية من خالتك - لنجدته من ستة أشهر مضت.. أعرف ذلك، وأعرف أيضاً أن أُمه العجوز المسكينة تغسل الثياب في بيوت الناس كي تطعم ابنها المسكين هذا..

- إنه لن يعود بحاجة إلى شيء في القريب!

فتلقفت "ماريا" هذه الكلمة من فم ابنتها وقد هبط عليها وحي مفاجئ، وقالت في لهجة مؤثرة:

- إنني أفهمك أفهمك.. يقولون عنه أنه يموت بمرض الصدر، ولكن مَن ذا الذي يقول ذلك؟.. إنني سألت عنه "كاليست ستانز لافتش" منذ أيام.. ذلك لأنني أنا أيضاً أهتم بهذا الفتى المسكين، إذ أن لي قلباً كذلك يا "زينا".. فقال لي "كاليست" إن مرضه خطير حقاً، ولكنه حتى اليوم لا يعدو أن يكون إصابة في القصبة الهوائية، ثم اضاف قائلاً إن تغيير الجو وتغيير حالته النفسية قد يشفيه وإن في اسبانيا ــ وقد سمعت هذا ايضاً من غيره وقرأت عنه ــ جزيرة عجيبة تُدعى جزيرة "ملقا" على ما أعتقد... وأخيراً، فإن اسمها يذكرني بصنف من أصناف النبيذ. وفي هذه الجزيرة، يُشفى المريض بالقصبة الهوائية وحتى المرضى بمرض السل شفاء تاماً؛ وذلك بتأثير الجو. ويذهب النبلاء وأغنياء التجار إلى هناك للعلاج.. والواقع أن قصر الحمراء الساحر، والريحان واشجار الليمون، والاسبانيون على ظهور بغالهم.. كل ذلك يحدث أثراً طيباً عجيباً في نفس طبيعتها شاعرية كنفسه..

إنك تعتقدين أنه سيرفض مالك.. اخدعيه إن كنت تشفقين عليه، فالكذب مغفور حين يتعلق بحياة إنسان.. امنحيه الأمل بحبك، وقولي له أنك ستتزوجينه حين تصبحين أرملة.، وهناك طريقة يستطيع بها المرء أن يقول كل شيء بنبل، ولن تنصح لك أمك بنصائح ضارة "يا زينا"!.. انك ستفعلين كل شيء لانقاذه، وهذا يبرر كل شيء.. وستعود إليه شجاعته حينما يعود إليه الأمل في انه سيتزوجك في يوم من الايام.. وسيعالج نفسه، ويتتبع في

امانه تعليمات الطبيب، ويتمنى أن يعيش من أجل السعادة المرتقبة. واذا ما تم له الشفاء ــ حتى لو لم تتزوجيه ــ فستكون النجاة قد كُتبت له بفضلك!.. وإن كان الشقاء قد غيَّره وجعله جديراً بك، فإنك تستطيعين حينئذ ان تتزوجيه، وتستطيعين بعد شفائه ان تحصلي له على مركز في المجتمع وان تشقي له طريق عمل جديد، ويكون زواجك به في هذه الحالة امراً ممكناً. أما اليوم، فماذا تنتظران إن ارتكبت العمل الجنوني وتزوجتيه، فلسوف يحتقرك الجميع حينئذ وتظلين في شقاء مقيم. وهل تعتقدين ان قراءتكما شكسبير معاً ستعزيك عن كل ذلك؟.. إنكما سوف تعيشان في مورداسوف عيشة بائسة إلى أن يموت، ولن يلبث ذلك أن يحدث. ولكنك تستطيعين أن تبثي في نفسه الفضيلة والميل إلى العمل.. اغفري له زلته تجديه يعبدك.. إن شعوره بالندم من جراء فعلته المخجلة يثير الذعر في نفسه، وصفحك عنه خليق بأن يمحو كل شيء ويجعله يتصالح مع نفسه.

وهكذا فانه سيعود إلى العمل وينال الترقيات. واذا ما مات، فانه على الأقل سيموت سعيداً بين ذراعيك (لأنك سوف تستطيعين أن تكوني إلى جواره) وهو واثق من حبك وغفرانك تحت ظلال الريحان واشجار الليمون، وتحت سماء زرقاء رائعة.. يا "زينا"! إن كل ذلك بين يديك، فما عليك إلا أن تقبلي الزواج بالأمير.

وكفت "ماريا الكسندرفنا" عن الكلام، وتلت ذلك فترة صمت طويلة كانت "زينا" خلالها بادية الانفعال..

ولن نأخذ على عاتقنا وصف مشاعر "زينا" في تلك اللحظة، فنحن لا

نعرفها ولكن يبدو أن "ماريا" قد وجدت الطريق الصحيح إلى قلب ابنتها الفتاة. حقاً إن هذه الأم الممتازة قد تخبطت قليلاً، ولكنها لمست أخيراً الوتر الحساس. إنها قد نكأت في البداية بلا حذر أهم المواضع الحساسة في جروح لا تزال تدمي، وذلك على الرغم من أنها قد ابدت بعض المشاعر النبيلة في اسلوب فصيح، ولكنها نجحت الآن في أن تُدخل في رأس "زينا" الفكرة التي كانت تريدها، وحصلت على النتيجة المرجوة وبلغت هدفها.. وها هي ذي "زينا" الآن تنصت إليها في نهم وخداها ملتهبان وصدرها يعلو ويهبط..

وعلى الرغم من الشحوب المفاجئ الذي اعتراها مبيناً في وضوح ما يكلفها إصرارها، فإنها قالت أخيراً في تصميم:

- أنصتي يا أُماه.. أنصتي يا أُماه..

ولكن في تلك اللحظة سمع صوت في الدهليز، وارتفع صوت حاد يطلب "ماريا الكسندرفنا"..

ونهضت "ماريا" مندفعة، وصاحت تقول:

- آه! يا إلهي!.. إنها زوجة الكولونيل.. ليحمل الشيطان هذه الببغاء!..

وصمتت بضع ثوان ثم أضافت قائلة في يأس:

- لقد طردتها تقريباً من بيتي من خمسة عشر يوماً مضت! ولكن، من المستحيل أن أستقبلها الآن من المستحيل!.. ومع ذلك، فقد

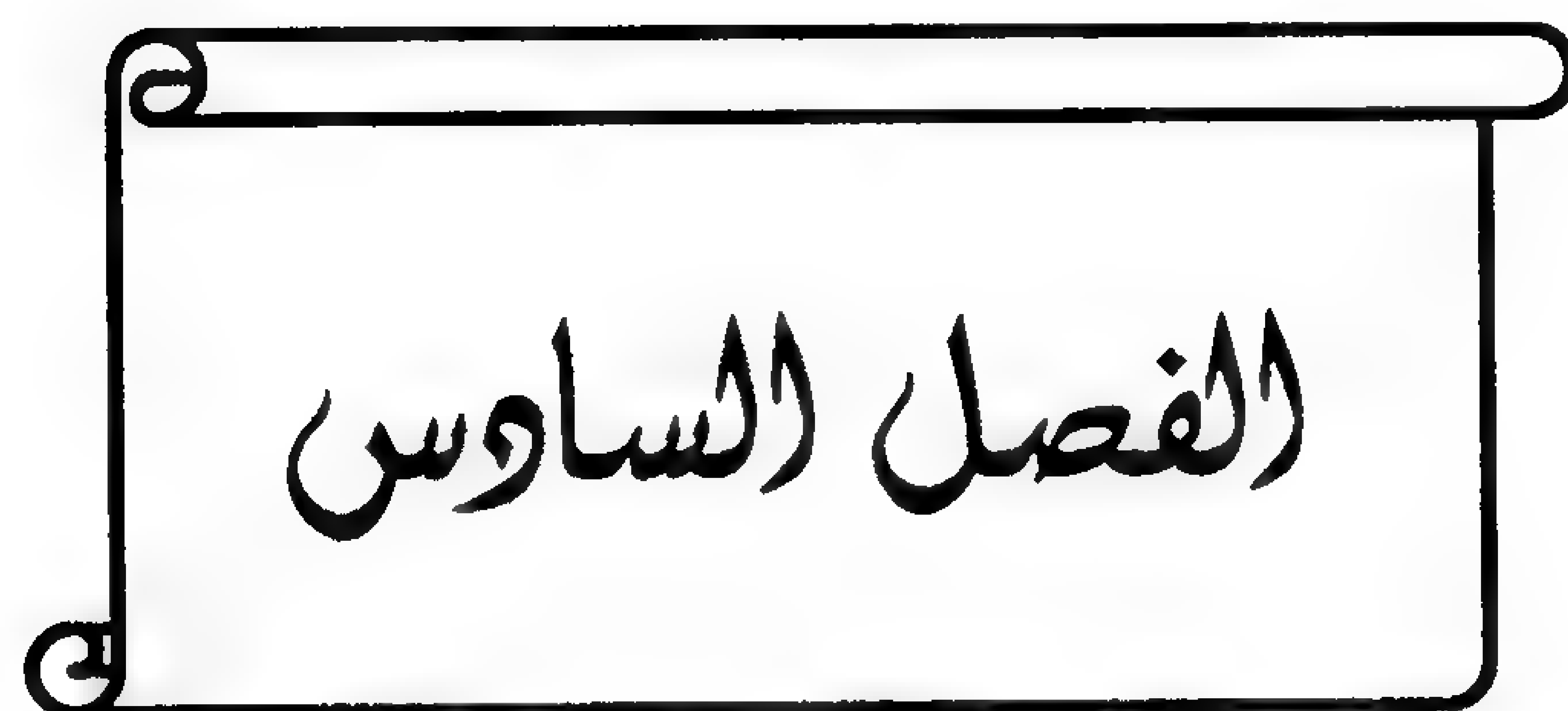
جاءت بلا شك تحمل بعض الأخبار، وإلا لما جَرؤت على أن تفعل ذلك.. لا بد أن يكون هناك أمر خطير يا "زينا" ويجب أن أعرف، إذ ينبغي ألا أهمل أي شيء..

وصاحت تقول وهي تندفع للقاء زوجة الكولونيل:

- لشد ما أعترف لك بالجميل على زيارتك الطيبة! ويا للمصادفة السعيدة التي جعلتك تتذكرينني يا عزيزتي "صوفياً بتروفنا" الغالية! يا لها من مفاجأة ساحرة حقاً!..

واندفعت "زينا" خارجة من الغرفة فيما يشبه الفرار..

* * *


الفصل السادس

زوجة الكولونيل

لا تذكرنا "صوفيا بتروفنا" زوجة الكولونيل بالببغاء إلا من حيث الثرثرة وترديد الكلام، أما من حيث الجسم والحركة فهي شبيهة بالعصفور.. إنها امرأة قصيرة القامة في نحو الخمسين من عمرها: تنتشر في وجهها بقع حمراء وصفراء، وعيناها في حركة دائمة، وجسمها الهزيل يختفي تحت ثوب فضفاض من الحرير القاتم يصدر عنه حفيف على الدوام، لأنها لا تستطيع أبداً أن تبقى ثابتة في مكان واحد.. انها امرأة شريرة تحب الثأر وتعشق تناقل أخبار الغير. وهي مجنونة بهذه الفكرة: "انها زوجة الكولونيل!".. وزوجها ضابط متقاعد برتبة كولونيل كانت صوفيا تتشاجر معه على الدوام، وكان يحمل في وجهه آثار هذا الشجار.

وتشرب "صوفيل بتروفنا" أربعة كؤوس صغيرة من الفودكا في الصباح ومثلها في المساء، وهي تكره "انا نيقولايفنا"، و "ناتانيا ديمتريفنا" كراهية جنونية، إذ طردتها كل منهما من بيتها منذ ثمانية أيام مضت!

وقالت "صوفيا بتروفنا":

- إنني اتيت يا ملاكي للحظة واحدة فقط، ولا أريد حتى أن أجلس لقد جئت فقط كي أُحدثك عن الأحداث العجيبة التي تجري في

بلدتنا. لقد قلب هذا الأمير، "مورداسوف" رأساً على عقب، فإن أهل مدينتنا المحتالين ـ كما تعرفين ـ يطاردونه ويبحثون عنه، ويجرونه في كل اتجاه، ويسقونه الشمبانيا، إنه شيء لا يمكن تصديقه.. فكيف تركتيه يخرج؟.. أتعرفين أنه الان عند "ناتاليا ديمتريفنا"؟

فصاحت "ماريا الكسندرفنا" وهي تقفز في مقعدها:

- عند "ناتاليا ديمتريفنا"!.. ولكنه كان ذاهباً فقط لزيارة الحاكم وليس عند "ناتاليا" وكان ذلك أيضاً لوقت قصير!

فقالت زوجة الكولونيل بلهجة لها مغزاها:

- آه! نعم.. لوقت قصير! ولكن، ابحثي عنه الآن!.. إنه لم يجد الحاكم فذهب إلى بيت "انا نيقولايفنا" ووعدها بأن يتناول عندها طعام العشاء. وكانت هناك "ناتاليا" الحقيرة، وهي كما تعرفين لا تخرج أبداً من عند "انا"، فاصطحبت الأمير للغداء عندها.. هذا هو أميرك!

- كيف ذلك؟.. و "موجلياكوف" الذي وعدني..

فقاطعتها زوجة الكولونيل قائلة في حماس:

- آه! نعم.. "موجلياكوف" هذا صديقك الذي تثنين عليه كثيراً؟ إنه معهم! خذي حذرك من أن يجعلوه يقامر ويخسر ثانية كما فعل في العالم الماضي.. ولا شك عندي في أنهم سيورطون الأمير أيضاً فمن

السهل توريطه.. ويالها من افتراءات تذيعها "ناتاليا" الحقيرة! وقد قالت "ناتاليا" ذلك للأمير نفسه، فلم يفهم شيئاً وهو جالس هناك كالقط المبلول ويجيب على كل شيء قوله: "بالطبع!.. بالطبع!". ولنضف إلى ذلك ما فعلته "ناتاليا" نفسها، فقد قدمت له ابنتها "سونيا" الحقيرة.. تصوري! إن هذه الصبية عمرها خمسة عشر عاماً ولا تزال ترتدي ثياباً قصيرة إلى ركبتيها!.. كما ارسلت "ناتاليا" ايضاً تستدعي "ماريا" اليتيمة الحقيرة بثوب أقصر أيضاً، وألبست الفتاتين قبعات صغيرة ذات ريش أحمر لا أدري لماذا، وأخذتا ترقصان أمام الأمير على انغام البياني رقصة "كوزاتشوك" الروسية.. ولكنك تعرفين ضعف الأمير. فقد سال لعابه وأخذ يقول: "يا له من م.. م.. منظر جميل! ياله من م.. م.. منظر جميل!".. وأخذ ينظر إليهما نظرات طويلة من خلال "المونوكل"! واخذت هاتان الصبيتان ترقصان برشاقة كبيرة، وتحمران خجلاً من كثرة ما رفعتا ساقيهما!.. واتركك تتصورين كم كان الجميع يضحكون!.. آه! إنهم يسمون هذا رقصاً!.. لقد رقصت أنا نفسي وأنا البس الوشاح (الشال) حينما اتممت دراستي بمدرسة (جارني) الداخلية الارستقراطية، وكان لذلك أثر عجيب ونبيل، فصفق لي بعض اعضاء مجلس الشيوخ.. وكانوا لا يقبلون في هذه المدرسة إلا بنات الأمراء والنبلاء.. ولكن رقصة كوزاتشوك هذه ليست إلا رقصة "فرنش كان كان" المبتذلة!! وأُقسم لك بشرفي أنني كنتُ

أتصبب عرقاً من شدة الخجل! وكنت اتصبب عرقاً.. أقول انني كنت اتصبب عرقاً ولم استطع البقاء معهم...

فقاطعتها "ماريا الكسندرفنا" قائلة بلهجة ذات مغزى خاص:

- ولكن.. هل كنت إذن أنت نفسك عند "ناتاليا ديمتريفنا"؟.. كنت أظن أنك...

- آه! نعم.. إنها أهانتني في الأسبوع الماضي ولم أتوان في أن أقول ذلك لكل الناس. ولكنني يا عزيزتي أردت أن أرى الأمير، ولو من خلال نافذة. ولهذا.. فقد ذهبت إلى البيت "ناتاليا" بالرغم من كل شيء، ولولا مناسبة الأمير لكانت انتظرتني طويلاً!.. تصوري أنهم قدموا "الشوكولاتة" لكل الحاضرين، وأنا؟. لا شيء، حتى ولا كلمة اعتذار! إنها تعمدت أن تفعل ذلك، وهذه "البرميل"! وسوف أُريها كيف يكون شأني معها.. ولكن، إلى اللقاء يا ملاكي فإنني متعجلة جداً، إذ يجب حتماً ان أزور "اكولينا بنفيلوفنا" لأاقص عليها هذه المسألة...آه! إنك تستطيعين أن تأسفي على ضياع هذا الأمير الجميل منك، فهو لن يأتي عندك.. إنه فقد الذاكرة كما تعرفين، وستعرف "انا نيقولايفنا" كيف تمنعه من الخروج.. إنهن يخشين جميعاً أن.. إنك طبعاً تفهمين.. أعني بشأن "زينا"..

- آه.. يا للبشاعة!.

- إن الأمر تماماً كما أقول، فالمدينة كلها تتحدث عن ذلك.. لقد احتفظت به "انا نيقولايفنا" للعشاء، وستمنعه بعد ذلك من

الانصراف.. انها تدبر كل خططها ضدك يا عزيزتي، وقد نظرت أنا بنفسي في فناء بيتها، ويا له من هرج ومرج!.. انهم يعدون عشاء لثلاثين شخصاً وقد ارسلوا في طلب الشمبانيا.. ولكن، إليكن صيحة أخرى أقدمها إليك: أسرعي إذن بمفاجأته وهو في طريق عودته إلى بيت "ناتاليا".. إنه ملك لك، فهو ضيفك! ولا تدعي هذه الماكرة الحقيرة تلعب بك، فهي لا تساوي نعل حذاء، على الرغم من أنها زوجة موظف محترم.. وأنا زوجة كولونيل، وقد ربيت عند مدام "جارني" بمدرستها الداخلية الاستقراطية.. آه! وداعاً يا ملاكي! إن معي زحافتي في الخارج، ولولا ذلك لرافقتك..

واختفت "وكالة الانباء" المتنقلة فجأة كما هبطت فجأة!

اخذت "ماريا" ترتعد من فرط الانفعال.. حقاً إن نصيحة زوجة الكولونيل عملية ومؤكدة، فليس أمامها إذن وقت تضيعه، ولكن كانت لا تزال هناك صعوبة كبرى. فاندفعت الأم إلى غرفة "زينا" وكانت هذه تروح وتغدو فيها وقد عقدت ذراعيها على صدرها وهي مطأطأة الرأس، شاحبة كالأموات، ويهزها اضطراب بالغ.. وكانت الدموع تنحدر من عينيها، ولكنها حين لمحت أمها لمع في وجهها تصميم عجيب، فأخفت دموعها في ابتسامة فاتنة وعضت شفتها وقالت تسبق الأم بالكلام:

- أماه!.. إنك اسرفت في الحديث عن شرفي بفصاحة كبيرة، أسرفت للغاية، ولكنك لم تستطيعي أن تمنعي عيني عن رؤية الحقيقة، فأنا لست طفلة.. إنك تريدين إقناعي بأنني بزواجي من الأمير إنما

أقوم بعمل يتسم بالبر والإحسان ـ ولست أميل من ناحيتي إلى البر والإحسان ـ وتبررين أنانية دنيئة بهدف نبيل.. وذلك كله غاية في الحقارة والضعة.. هل تفهمينني؟

فقالت الأم:

- ولكن.. يا ملاكي...

فقاطعتها "زينا" قائلة في حدة:

- صمتاً يا أماه.. اصبري واستمعي إليَّ حتى النهاية.. إنني إذن أدركت خُبثك تماماً، وانني لمقتنعة كل الاقتناع بأن الهدف الحقيقي وراء ذلك كله حقير ودنيء. ومع ذلك، فإنني أقبل عرضك.. أتفهمينني؟ أقبله كلية، فأنا على استعداد لأن أتزوج الأمير، بل وعلى استعداد أيضاً لأن أعاونك في الجهد الذي تبذلينه لاقناعه بأن يتزوجني.. وليس من شأنك أن تعرفي السبب الذي دفعني إلى اتخاذ هذا القرار، بل يكفيك أن تعرفي أني على استعداد لكل شيء، فسأُعينَهُ على ارتداء حذائه، واكون خادمته، وارقص ليضحك ويتسلى، وافعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يندم على أنه تزوجني.. ولكنني أرجوك في مقابل ذلك أن تقولي لي كيف تنوين ان تتصرفي لتصلي إلى هذه النتيجة، إذ لا شك عندي في أن لديكِ خطة موضوعة مقدماً لأنك تفكرين جدياً في هذا الموضوع. فأفصحي لي عن هذه الخطة، وكوني صريحة معي مرة واحدة في حياتك.. هذا هو شرطي الوحيد..

فاستولت الدهشة على "ماريا الكسندرفنا" إلى حد أنها ظلت صامتة جامدة بلا حراك لا تطرف لها عين: ذلك أنها كانت على استعداد لأن تُكافح أفكار ابنتها الرومانتيكية، فتملكها الذهول لما رأت ابنتها مصرة على ان تتصرف على عكس ما هي مقتنعة به. ومنذ تلك اللحظة، تجسدت المسألة تجسداً حقيقياً واتخذت مظهراً آخر.. وكاد قلب "ماريا" أن يثب من الفرح، فصاحت تقول لابنتها في حماس بالغ:

- آه يا "زينا" العزيزة!.. إنك حقاً لحمي ودمي!

ولم تستطع أن تزيد كلمة أخرى، بل ارتمت بين ذراعي "زينا" فقالت لها هذه في اشمئزاز:

- آه! يا إلهي!.. أرجو أن تعفيني من قبلاتك يا أُماه، فهذا الحماس ليس له مكان هنا على الاطلاق!.. إنني أُصر على أن أحصل على جواب عن سؤالي. هذا كل ما هنالك..

- ولكن يا "زينا".. أنا أحبك وأعبدك عبادة ثم تلفظينني؟! إنني إنما أعمل لاسعادك!

وانحدرت من عيني الأم دموع مخلصة. إنها حقاً تحب "زينا" ولكن على طريقتها. وكانت شدة الانفعال من جهة اخرى قد حولت هذه المرأة التي تشبه قائداً حربياً إلى امرأة عاطفية كزوجة ريفي بسيط. وأحست "زينا" على الرغم من كل شيء بأن أمها تحبها، ولكن هذا الحب كان ثقيلاً على نفسها، وكانت تفضل عليه كراهية أمها..!

وقالت الفتاة كي تطمئن والدتها:

- حسناً!.. لا تغضبي.. إنني لا أدري تماماً حقيقة ما افعل فأنا مضطربة للغاية!

فأجابتها الأم قائلة وكأنها دجاجة مذعورة تعودها الشجاعة:

- إنني لا أغضب.. إنني لا أغضب يا ملاكي الصغير، وأفهم اضطرابك تماماً.. إنك تناشدينني يا صديقتي أن أكون صريحة معك. حسناً.. ليكن ذلك. صدقيني، فسأكون صريحة معك كل الصراحة.. انني لم أضع بعد خطة أستيطع أن أعتبرها نهائية تماماً، بل ولا أستطيع أن أضعها، فكل شيء رهن بالظروف.. بل وأكثر من هذا، أستطيع أن أتنبأ ببعض الصعوبات. فمنذ لحظة قصيرة، نقلت إليَّ هذه الببغاء "صوفيا بتروفنا" كومة من الأخبار السيئة! (يا إلهي! ليس أمامي أي وقت أضيعه!).. سأكون إذن صريحة. أُقسم لك على أنني سأبلغ هدفي، ولا تظني أنني أفكر في سراب أو في وهم، فكل خطتي تقوم على بلاهة الامير. فهي رقعة من القماش يستطيع المرأ أن يُطرز عليها ما يريد. والعامل المهم في المسألة هو أن تُتاح لنا حرية التصرف..

وصمتت الأم بضع ثوان لتلتقط أنفاسها، ثم صاحت قائلة وهي تدق المنضدة بقبضة يدها:

- ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء النساء الثرثارات لا يستطيعن أن يفعلن ضدي شيئاً!.. لتكن لديك الثقة، ولكن يجب أن نتصرف بسرعة! ولنفعل اليوم بالذات الشيء الرئيسي إن أمكن ذلك..

فقالت "زينا" باهتمام بالغ:

- حسناً يا أُماه.. واستمعي كذلك إلى شيء آخر أُصارحك به. اتعرفين لماذا اهتم بمشروعك هذا كل الاهتمام؟ ذلك لأنني لست واثقة من نفسي.. فقد قلت لك إنني صممتُ على ارتكاب هذا العمل الدنيء. ولكن إذا كانت تفاصيل خطتك كريمة للغاية، فأصارحك بأنني سأكون مضطرة إلى العدول.. إنني أعرف أنني سأرتكب هنا دناءة اخرى، وهي الرضوخ للتمرغ في الوحل دون أن تكون لديَّ الشجاعة لأظل أتمرغ فيه.. ولكن، ما العمل؟ إن الامور سوف تسير هكذا بلا شك.

فأجابتها والدتها قائلة في خجل:

- ولكن يا "زينا" يا ملاكي.. إن الأمر يتعلق بزواج طيب، يتعلق بأمر عادي.. انظري إليَّ من وجهة النظر هذه، وسيبدو لك كل شيء معقولاً للغاية..

- اه! لا تتبعي معي طريقة اللف والدوران بحق السماء يا أماه، فأنت ترين انني على استعداد لكل شيء.. ماذا تريدين اكثر من ذلك؟.. ارجو الا تجرحي شعوري.. وانني كنت اسمي الاشياء بأسمائها، فربما كان ذلك الآن هو عزائي الوحيد..

وابتسمت "زينا" في حزن..

فقالت لها والدتها:

- هيا! هيا!.. حسناً جداً يا ملاكي الصغير.. إن من الممكن أن تقدر كل واحدة منا الأخرى دون أن تكون لنا نفس المعتقدات. أما عن

خطتي. فأؤكد لك انها لن تمسك بسوء.. أُقسم لك على ذلك. وهل من المعقول ان اكون أنا التي اعرض سمعتك للخطر؟ إن كل شيء سيسير على ما يرام، وبشرف تماماً، بل بنبل تام.. ولن تكون هناك اي فضيحة. ومع ذلك، فلو ان فضيحة حدثت لسبب أو اخر فسنكون حينئذ بعيدتين عن هنا.. فنحن سنغادر مورداسوف.. ولتصرخ نساؤها كما يحلو لهن، فهذا لم يعد يعنينا.. وهل هم حقاً جديرات بأن نشغل انفسنا بهن؟ كيف تخافين يا "زينا" وانت الفتاة التي لا تبالي بأحد؟

فاجابتها "زينا" قائلة في حنق:

- اه! انني لا اخشاهن يا "ماما" على الاطلاق.. انك لا تفهمينني.

- حسناً يا روحي الصغيرة.. لا تغضبي! فانني كنت اريد فقط ان أقول ان هؤلاء الناس يرتكبون الدناءة في كل يوم، وانت لمرة واحدة، ولكن ماذا اقول؟.. ما احمقني! فالامر يتعلق بعمل نبيل! .إن كل شيء يتوقف على وجهة نظرنا..

فصاحت "زينا" في غضب:

- كفى! كفى يا أماه!

ودقت الأرض بقدمها..

- ليكن يا ملاكي الصغير، فلن افعل ذلك!..

وساد بينهما الصمت.. وبعين خجلة، راحت الأم تتبع بنظرة ذليلة ابنتها "زينا" التي كانت تروح وتغدو عبر الغرفة..

واستأنفت الفتاة حديثها قائلة في اشمئزاز:

- لا أستطيع حتى أن أفهم كيف سيكون في استطاعتك ان تتصرفي في موقف كهذا.. إنني واثقة من أنك لن تجني من ذلك إلا الإهانة.. انني من ناحيتي لا ابالي، ولكنك أنت ستقاسين من ذلك!..

- أوه! ان كان هذا هو كل ما يقلق بالك يا ملاكي، فكوني مطمئنة. فما دمنا متفقتين، فان الباقي لا يهم. اه لو علمت كم خرجت من كثير من المآزق سليمة لم أُمس! أخيراً، اسمحي لي بأن أحاول، إذ يجب أن أقابل الأمير وجهاً لوجه بأسرع ما استطيع، فكل شيء يتوقف على ذلك، واستطيع ان اتنبأ بما سيلي ذلك.. ولست اخشى الا "موجلياكوف"..

فقالت "زينا" في احتقار:

- "موجلياكوف"؟

- طبعاً.. "موجلياكوف"! ومع ذلك، فلا تخافي يا "زينا" فسأعرف كيف استدرجه لمعاونتنا، فأنت لم يتح لك ان تشاهديني وأنا اعمل. اه، لقد جالت بخاطري هذه الفكرة لحظة أن سمعتهم يتحدثون عن الأمير! وكان هذا ضرباً من الكشف والالهام.. ومن ذا الذي كان يصدق ان الأمير يأتي يوماً إلى بيتنا؟ بل لقد كان من الممكن ان ننتظر ألف عام كي تواتينا فرصة كهذه. اه! ما أجملك يا "زينا"! يا له من جمال رائع!.. لو أنني كنت رجلاً لوددت أن أُلقي تحت قدميك بمملكة بأسرها.. كيف لا يقبل المرء هذه اليد الصغيرة؟ (وتقبل

"ماريا" يد ابنتها بحنان بالغ).. ان هذا اللحم قطعة من لحمي.. يجب حتماً ان نزوجه بالقوة، هذا الغبي.. وكم ستكون حياتنا رغدة معاً بعد ذلك يا "زينا"! إذ أننا لن نفترق، أليس كذلك؟.. إنك لن تطردي أمك حين تنعمين بالسعادة؟.. صحيح أننا تشاجرنا، ولكنك لن تجدي صديقة مثلي في اي مكان آخر! إنني مع ذلك..

فقاطعتها "زينا" قائلة وقد نفذ صبرها:

- أماه! إن كنت قد اتخذت قرارك، فقد حان الوقت لتفعلي اي شيء.. إنك تضيعين دقائق ثمينة!

- نعم، لقد حان الوقت حقاً وأنا أُثرثر! هنا! وهنّ يُردنّ الاستحواذ على الامير! إنني خارجة تواً، سأذهب إلى هناك، واستدعي "موجلياكوف". وسأعيد الأمير بالقوة اذ لزم الامر.. فإلى اللقاء يا "زينا".. ولا تحزني هنا، فكل شيء سيتم على مقتضى الشرف والنبل، وكل شيء يتوقف على وجهة النظر.. اخيراً، إلى اللقاء! إلى اللقاء!

ورسمت الأم علامة الصليب على "زينا" وخرجت، ثم اسرعت إلى غرفتها ووقفت لحظة أمام المرأة، ولم تمضي عشر دقائق حتى كانت منطلقة بعربتها "الزحافة" في شوارع موردا سوف..

وراحت "ماريا الكسندرفنا" تحدث نفسها قائلة: "كلا، فلستَ أنت يا "موجلياكوف" الذي يستطيع أن يلعب معي هذه اللعبة الدقيقة.. إن "زينا" قد وافقت، وهذا نصف النجاح.. أما الفشل فسيكون حماقة كبرى!.. آه يا

زينا! إذن فهناك اعتبارات اخرى لها اثرها عليك.. وقد لمست منك وتراً حساساً حين صورت لك المستقبل حلواً.. كم كنت جميلة اليوم! ولكنني أستطيع بجمالك هذا أن أقلب نصف أوروبا رأساً على عقب.. واخيراً، فلننتظر قليلاً، فإنها سوف تنسى آراء شكسبير حينما تصبح أميرة.. إنها لا تعرف سوى مورداسوف وضواحيها!.. يا لها من أميرة نفسها؟.. إنها فهمت ذلك اخيراً! وسابقى إلى جوارها، وستقبل كل ما اريد.. وبدوني لن تستطيع ان تتصرف، ولكنني لن افارقها، وساكون أميرة أنا أيضاً، وسيتحدث الناس عني حتى في بطرسبورج.. وداعاً أيتها المدينة البلهاء.. وسيموت الأمير والصبي المريض، وأزوجها أحد الملوك!.. ولست أخشى إلا شيئاً واحداً: أوَ لم اكن صريحة معها اكثر مما يجب، وحساسة اكثر مما ينغبي؟ إنها تخيفني! اه! لشدة ما تخيفني".

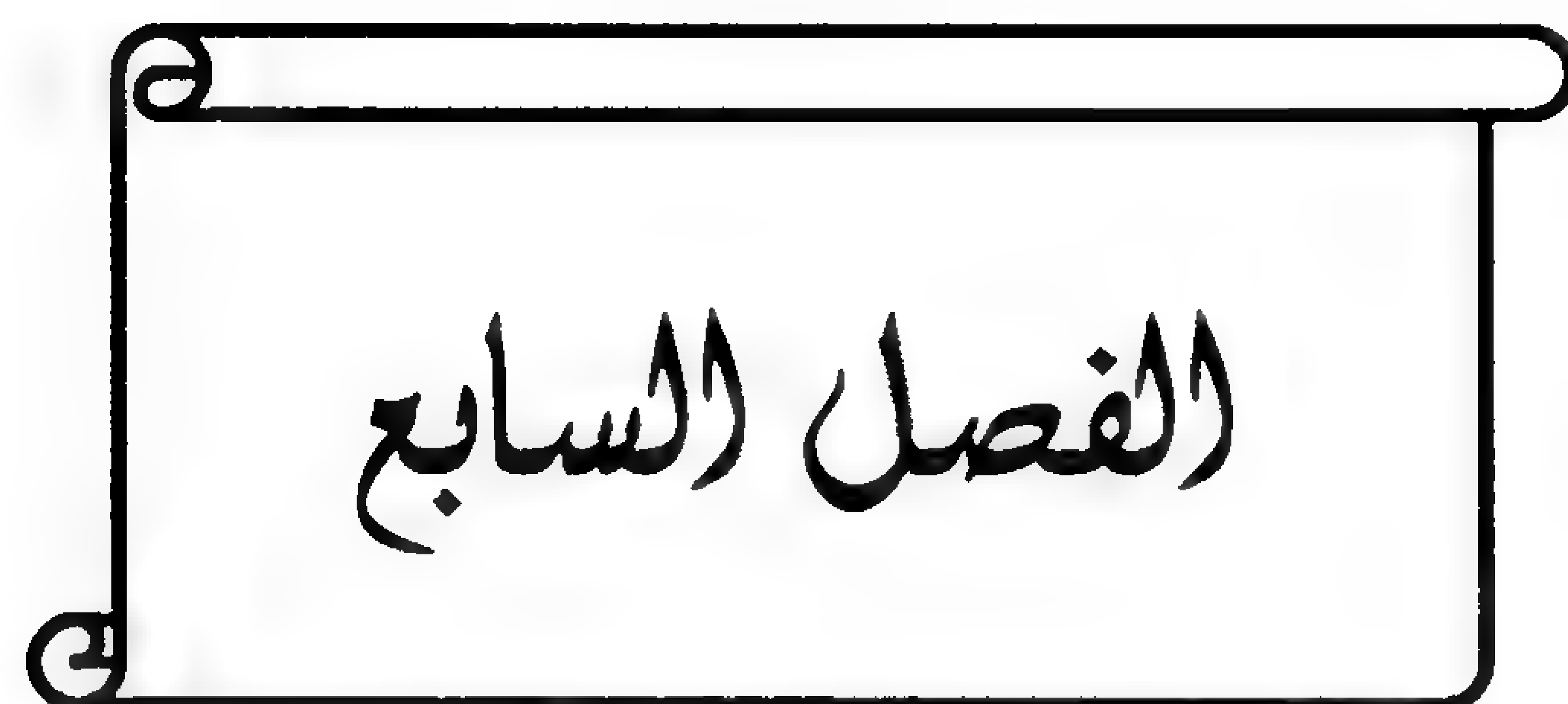
وغرقت "ماريا الكسندرفنا" في أحلامها..

ولما أصبحت "زينا" وحدها، أخذت تروح وتغدو في غرفتها وقتاً طويلاً وهي حالمة وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وكان لديها من الافكار ما يكفيها. واخذت تكرر في نفسها قائلة بطريقة تكاد تكون آلية: "لقد حان الوقت.. لقد حان الوقت تماماً.. وكان يجب ان يحدث ذلك من زمن بعيد!".. فماذا كانت تعني بهذا الكلام؟

ولمعت الدموع أكثر من مرة على اهدابها الحريرية الطويلة، وكانت لا تفكر في تجفيف هذه الدموع. وكانت امها مخطئة في قلقها، اذ كانت "زينا" على استعداد لكل شيء..

فكـرت "ناستاسـيا بتروفنـا" وهـي تخـرج مـن غرفتهـا بعـد رحيـل زوجـة الكولونيل، وقالت في نفسها : "انتظري إذن قليلاً.. وأنا التي كنت أتوقع أن أتزوج بهذا الامير! يا لي من بلهاء!.. كنت أحلم بـأن اتزوجه! آه يـا "ماريـا الكسندرفنا"! إنني إذن شقية ثرثارة. واخذت منك مائتي روبـل لاحطم لـك درجاً للحصول على الخطـاب.. آه! نعم! إنـني انتهـزت الفرصـة، ولكـنني مـن ناحية اخرى فعلت بدافع من الكرم.. وفوق هـذا، فقـد دفعـت لبعضهم شـيئاً من المال.. انتظري قليلاً.. فسأريكما ما إذا كنتُ ثرثارة، وستتعلمان كيـف تعرفان "ناستاسيا بتروفنا"!"

* * *


الفصل السابع

المشروع الكبير

كانت "ماريا الكسندرفنا" مندفعة بعبقريتها، فأعدت مشروعاً كبيراً جريئاً: ستُزوج ابنتها لرجل ثري، لأمير يحتضر.. سيتزوجها على الرغم من الجميع مستغلة تفاهة عقل ضيفها.. كان ذلك كله أمراً جريئاً، بل وقحاً.. حقاً انه مشروع به كثير من الاغراء، ولكنه ـ في حالة الفشل ـ قد يغرق صاحبه في عار واضطراب لم يعرفها قبل. كانت "ماريا" تعرف ذلك جيداً، ولكنها كانت من النوع الذي لا يتقهقر.

ولا شك في أن المشروع كان شبيهاً بعض الشيء بأعمال قُطاع الطرق، وكانت "ماريا" لا تدقق كثيراً في هذا الجانب من الموضوع، وكانت لديها في شأنه كلمة صحيحة جداً، إذ كانت تقول: "إن من تَتزوج، تَتزوج إلى الأبد" وكانت هذه الفكرة بسيطة جداً، ولكنها كانت تصور لتفكيرها مزايا كبيرة إلى درجة كانت تجعلها ترتجف..

واعدَّت "ماريا" مشروعها بسرعة كأمرأة ملهمة واسعة الحيلة والخيال، حقاً إن هذا المشروع كان لا يرتسم في رأسها الا بخطوطه العريضة وبشيء من الغموض، اذ كانت تنقصه التفاصيل، وكان عليها ان تعتمد على الظروف التي لا تستطيع ان تتنبأ بها، ولكنها كانت واثقة تماماً من نفسها..

آه! كلا، إنها كانت لا تخشى الفشل، وانما كان نفاذ صبرها من جراء تعجلها البدء في الكفاح. وكانت تنتظر من ناحية اخرى حدوث عقبات جدية من جانب أهالي مورداسوف النبلاء، وعلى الاخص من مجتمع سيدات مورداسوف النبيلات. اذ كانت تجربتها معهن قد جعلتها توقن من حقدهن، فكانت لا تشك مثلاً في ان الجميع يعرفون نواياها في هذه اللحظة بالذات، بالرغم من ان احداً لم يتحدث مع الآخر في هذا الأمر. وكانت تعرف بتجربتها الحزينة أنه لا يحدث حادث في حياتها في الصباح - حتى ما تحرص على إخفائه تماماً - إلا وتعرفه في المساء أقل النساء ثرثرة في المدينة. وكانت "ماريا" تشعر بالخطر المقبل. ولم يكن شعورها قد خدعها ابداً قبل ذلك في مثل هذه الامور، وكان لا يخدعها في هذه المرة ايضاً..

هذا هو في الواقع ما كان قد حدث وما كانت لا تعرفه بعد. ففي منتصف النهار على وجه التقريب، اي بعد وصول الأمير إلى مورداسوف بثلاث ساعات تماماً، ذاعت في المدينة شائعات عجيبة لم يكن أحد يعرف مصدرها، ولكنها انتشرت في الحال تقريباً. وكان الكل يؤكدون ان "ماريا" قد خطبت ابنتها "زينا" التي تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً للامير، وإنها ليست لها بائنة، وان "موجلياكوف" قد أُبعد وان كل شيء قد تم ووقّع عليه!

فما سبب هذه الشائعات؟.. هل كان الناس يعرفون "ماريا" معرفة تجعلهم يتسللون إلى باطن افكارها؟ ولم يثن اي شيء اهالي مورداوسف عن تصديق هذه الشائعة: لا افتقار مثل هذا الخبر إلى المنطق، ولا كون مشروع

كهذا لا ينفذ في ساعة واحدة، ولا كونهم لا يعرفون مصدر هذا الخبر. وأغرب ما في الأمر أن هذه الشائعة كانت قد بدأت تنتشر تماماً في نفس اللحظة التي بدأت فيها "ماريا" تتحدث في هذا الموضوع. هكذا تكون فراسة اهل الريف! فغريزة الناس في القرى الصغيرة في تخمير الاخبار تصل في بعض الاحيان إلى درجة عجيبة. ومع ذلك، فهناك تفسير لهذه الظاهرة: فهي تتركز على دراسة قريبة ووثيقة ومثابرة لشؤون الغير. فكل شخص في الأقاليم يعيش كأنه في بيت من زجاج، ويستحيل عليه تماماً أن يُخفي أي شيء عن اهل بلدته. فهم يعرفون عنه ما يجهله هو عن نفسه. ويجب ان يكون ساكن الريف بطبيعته سيكولوجيا عميقاً جداً. ولذلك، كان يدهشني كثيراً في بعض الاحيان حين أُقابل في الريف قليلين جداً من البسكولوجيين وكثيرين جداً من البُلهاء.. ولكن لندع ذلك جانباً.

انتشر الخبر كالصاعقة.. وكان هذا الزواج بالأمير يبدو للجميع لامعاً جداً ومفيداً لـ "زينا" وأمها حتى أنه لم يندهش أحد لغرابته، ولكن كان هنالك ظرف آخر: كانت "زينا" مكروهة على الأقل مثل أُمها.. لماذا؟ لم يكن احد يدري على التحديد سبب ذلك.. وربما كان لجمال "زينا" دخل في هذا الموضوع، وربما ايضاً لان "ماريا الكسندرفنا" ـ مهما كانت ـ كانت اكثر من ابنتها من نفس سيدات مورداسوف الاخريات. ومن يدري؟ فربما كُنّ سيشعرن بالاسف عليها لو انها غادرت المدينة فقد كانت تبعث الحركة في المجتمع بطرق مختلفة، ولولاها لشعر الناس بالضيق. وعلى العكس، كانت "زينا" تبدو بموفقها المتعالي كأنها ساكنة في النجوم وليس في مورداسوف.

انها لم تكن من نفس المعدن، وربما كانت ذات طابع متكبر اكثر مما يجب. وها هي ذي نفس "زينا" هذه التي كانت تدور حول شخصها كثير من القصص الفاضحة، هذه المتكبرة، ها هي ذي تصبح مليونيرة واميرة وتدخل الطبقة الارستقراطية. وربما اصبحت ارملة بعد عام أو عامين، فتقترن حينئذ بدوق أو بضابط عظيم. مَن يدري؟ فربما تزوجت حاكماً من الحكام. وها هو ذا حاكم مورداسوف بالذات ارمل ويعشق الجمال.. انها ستصبح حينئذ السيدة الأولى في الاقليم، وكان اهل مورداسوف لا يستطيعون ان يتحملوا مثل هذه الفكرة، ولم يحدث قط ان أثار خبر اخر مثل هذا السخط في مدينة مورداسوف.

كانت صيحات الغضب ترتفع في كل مكان: فكانوا يقولون ان هذا شيء دنيء، وان الشيخ قد فقد عقله، انهم خدعوه ولعبوا به ويجب انقاذه من مخالب هذه الطيور الجارحة.. واخيراً، ان هذا العمل ينافي الاخلاق، وهو عمل قطاع طرق، وان هناك ايضاً فتيات اخريات يضاهين "زينا" كن يستطعن أيضاً ان يتزوجن الأمير.

كانت "ماريا الكسندرفنا" تفترض حدوث ذلك كله قبل ان تعلم به، وكان هذا يرهقها للغاية، اذ كانت تعرف تماماً ان الجميع على استعداد لعمل كل ما يمكن، لعرقلة مشاريعها. افلم يستولوا على الأمير؟.. أفلا يجب عليها الآن ان تكافح كفاحاً مريراً لتستولي عليه مرة ثانية؟ ثم إنها حتى لو نجحت في ان تضع يدها عليه وتعيده إلى بيتها، فهي لن تستطيع أن تضمن أنه في نفس هذا اليوم بعد ساعتين ستهرع كل سيدات مورداسوف إلى بيتها بحجة تجعل من المستحيل عليها ان تمتنع عن استقبالهن، فاذا اغلقت بابها، دخلن

من النافذة. وباختصار، لم يكن لديها لحظة واحدة تضيعها، ومع ذلك فلم تكن قد فعلت اي شيء حتى الآن..

وفجأة، نبتت في رأسها فكرة عبقرية ونضجت فيها بسرعة. وسنتحدث عن هذه الفكرة في حينها، أما في هذه اللحظة، فكانت بطلتنا تجوب بسرعة شوارع مورداسوف وهي مصرة على شن الحرب للاستيلاء ثانية على الامير.. كانت لا تعرف بعد كيف تتصرف ولا اين تقابله ولكنها كانت تعرف بكل تأكيد انه من الافضل ان تهلك مورداسوف كلها على ان يفشل مشروع واحد من مشروعاتها..

ونجحت جولتها الأولى نجاحاً تماماً، اذ التقت بالامير في احد الشوارع وصحبته إلى بيتها لتناول العشاء..

ولو انني سئلت كيف استطاعت "ماريا" ان تصفع "انا نيكولايفنا" هذه الصفعة بالرغم من كل الفخاخ التي نصبتها لـ "ماريا" سيدات المدينة، لقلت انني اعتبر هذا السؤال اهانة لـ "ماريا الكسندرفنا" فانها أوقفت الأمير في اللحظة التي بلغ فيها بيت منافستها، ووضعت هذا الشيخ القصير في عربتها بالرغم من كل شيء وبالرغم من اعتراضات "موجلياكوف" نفسه الذي كان يخشى حدوث فضيحة، وحقاً كانت "ماريا" تتفوق على منافساتها تماماً في هذه الناحية، ففي الظروف الحاسمة كانت لا تتراجع أمام الفضيحة وهي تضع في الاعتبار ان النجاح يبرر كل شيء. وبديهي ان الأمير لم يقاوم مقاومة كبيرة، بل نسي كل شيء كعادته وكان مسروراً كل السرور..

ولم يكف الأمير عن الثرثرة اثناء العشاء ، وكان بادي المرح ، وأكثر من سرد الكلام الذي يتضمن التورية ، ويقص قصصاً لا يُنهيها ، وينتقل من قصة إلى اخرى دون ان يدري. وكان قد شرب ثلاثة كئوس من الشمبانيا عند "ناتاليا ديمتريفنا" وشرب الشمبانيا مرة اخرى مع العشاء ، وانتهى به الأمر بأن اصبح مرحاً للغاية. وكانت "ماريا" تصب له الشراب بنفسها . وكان الطعام لا غبار عليه ، فقد نسي الطاهي "نيكتيكا" ان يحرقه! وكانت سيدة البيت تحاول ان تُحمس الجميع بسحر ظرفها ولكن "زينا" كانت تخلد إلى الصمت وكان "موجلياكوف" غاية في القلق ، فكان قليل الأكل مشغول البال مفكراً ، وكان ذلك نادراً ما يحدث له. وكانت "ماريا" مشغولة الذهن ايضاً . وكانت "ناستاسيا" بادية الاكتئاب وتشير لـ "موجلياكوف" اشارت خفية كان لا يلاحظها . ولولا "ماريا" والامير لكان هذا العشاء جنائزيا! ..

ومع ذلك ، كانت "ماريا" تُخفي انفعالاً عميقاً .. كانت "زينا" تُخيفها بمظهرها الحزين وعينيها المحمرتين .. وفوق هذا لم يكن امامها متسع من الوقت. وكان وجود "موجلياكوف" ـ هذا الحاجز المادي ـ يبدو في نظرها عتبة كأداء ..

ونهضت "ماريا" من على المائدة وهي فريسة لقلق شديد . ولكن كم كانت دهشتها حين اقترب منها "موجلياكوف" وعبَّر لها عن أسفه البالغ لأنه مضطر إلى الرحيل في الحال!

فسألته "ماريا" قائلة في ود :

- الى أين أنت ذاهب إذن؟

فأجابها قائلاً في ارتباك :

- لقد حدث لي أمر غريب.. ولست ادري حتى كيف اعبر لك عنه.. ولكن بالله.. اسدي إليَّ النصيحة.

فسألته قائلة في دهشة :

- ماذا؟.. ماذا حدث؟

لقد قابلني اليوم شبيني "بوردونيف".. انك تعرفينه.. هذا التاجر.. وكان غاضباً جداً واخذ يلومني قائلاً انني متكبر. ولي الآن ثلاثة ايام في مورداسوف دون ان اذهب إلى بيته. فقال لي :

- "تعال عندي اليوم لتناول قدح من الشاي." والساعة الان الرابعة تماماً، وهو يشرب الشاي على الطريقة القديمة الساعة الخامسة بعد فترة استرخاء تعقب طعام الغداء .. فما العمل؟ انني افهمه يا "ماريا" فكري معي جيداً! انه قد حال بين والدي وبين الانتحار حينما بدد اموال الدولة. وهو من جهة اخرى، اراد ان يكون شبيني بتلك المناسبة. واذا تم زواجي بـ"زينا" فأنت تعرفين انني املك ارضاً يعيش عليها مائة وخمسون شخصاً فقط، في حين ان شبيني هذا مليونير، بل يقول البعض عنه اكثر من ذلك، وهو لا ولد له، واذا كانت علاقتي به طيبة، فانه يستطيع ان يترك لي مائة الف روبل، وهو في السبعين من عمره ففكري اذن..

فصاحت "ماريا" قائلة وهي لا تكاد تخفي فرحها :

- آه! يا الهي! ولكن حينئذ .. ماذا تفعل هنا؟ ولماذا تتلكأ؟ .. ارحل! إذ لا ينبغي الاستخفاق بمثل هذه الامور . انك كنت إذن مشغول الفكر اثناء العشاء لهذا السبب .. ارحل إذن يا صديقي! ارحل! كان يجب ان تراه منذ الصباح حتى تبرهن له على انك تقدر عطفه عليك! آه! يا للشباب!

فصاح "موجلياكوف" قائلاً في دهشة :

- ولكنك كنت تلومينني على هذه العلاقة أنت نفسك، وكنت تقولين انه فلاح، وإن اقاربه ..

فقاطعته قائلة بلهجة تنم عن الاسف :

- آه! يا صديقي .. إن المرء يقول أشياء كثيرة مع عدم التفكير .. ومن الممكن أن أُخطئ أنا أيضاً ، فلست معصومة من الخطأ . وفوق هذا ، فانني لا أتذكر ذلك، وربما كنت وقتها في حالة نفسية سيئة .. واخيراً ، فانك لم تكن قد طلبت بعد يد ابنتي . حقاً ان هذا من ناحيتي صادر عن انانية الأمومة، ولكن يجب عليَّ الآن ان انظر إلى الاشياء من وجهة نظر جديدة ، فأي أم تستطيع ان تلومني على ذلك. ارحل ولا تضع لحظة واحدة . اقض السهرة عنده و .. انصت إليَّ : حدثه عني وقل له انني احبه واقدره .. افعل ذلك بمهارة .. آه! يا الهي! لقد غاب عني ذلك، وكان من واجبي ان اذكرك أنا نفسي بهذا الامر ..

فصاح "موجلياكوف" قائلاً: هو مسرور للغاية:

- لقد أعدت إليَّ الحياة يا "ماريا"! وسأطيعك الآن في كل شيء، وانا الذي كنت لا اجرؤ على ان اتحدث إليك في مثل هذا الامر. حسناً.. إلى اللقاء.. اني راحل.. اعتذري عني لـ"زينا" الغالية، وقولي لها انني ساعود.

فردت عليه "ماريا" قائلة في ود:

- عليك بركتي يا صديقي، ولا تنس أن تحدثه عني، فهو حقاً شيخ لطيف للغاية، وقد غيرت نظرتي إليه منذ زمن بعيد. وفوق هذا، فقد احببت فيه على الدوام الروسي القديم الذي يسير بوحي الفطرة.

وفكرت "ماريا" قائلة في نفسها وهي تختنق من شدة الفزع:

- "يا للسعادة! ليحمله الشيطان! كلا، بل إن الله نفسه هو الذي يمد ليَّ يد المعاونة"

كان "موجلياكوف" لا يزال في الدهليز يرتدي معطفه حين برزت له "ناستاسيا بتروفنا" فجأة، "ولسنا ندري من اين خرجت" وامسكت بذراعه قائلة له:

- الى اين تذهب؟..

فأجابها قائلاً في غير اكتراث:

- عند "بوردونيف" يا "ناستاسيا".. عند شبيني.. انه تشرف بتعميدي، وهو شيخ ثري وشبين ذو مال سيورثني إياه، ورجل يستحق حقاً ان أُعنى بأمره.

فقالت في جفاء:

- أذاهب أنت إذن عند "بوردونيف"؟ حسناً.. تخل إذن عن خطيبتك!

فقال لها "موجلياكوف" في دهشة:

- كيف ذلك؟..

فقالت في جفاء:

- هكذا.. هل تعتقد أنها قد أصبحت لك؟.. حسناً! إنها ستتزوج الأمير تواً!

فسألها قائلاً وقد تحولت دهشته إلى اهتمام:

- الامير! ماذا تقولين يا "ناستاسيا"؟

- ماذا؟ ماذا اقول! اتريد ان ترى بنفسك؟.. اترك معطفك إذن وتعال معي..

فاستولى الذعر عليه، وترك معطفه، وتركها تقوده إلى الغرفة المظلمة التي لها باب مغلق يفتح على الصالون.. وقال:

- ولكن.. أفهميني يا "ناستاسيا".. إنني لا أفهم شيئاً مما يدور!

فأجابته قائلة في ثقة:

- انك ستفهم حين تسمع، فلن تلبث المهزلة أن تبدأ.

- المهزلة!.. اي مهزلة؟..

فقالت "ناستاسيا" وهي ترفع اصبعها إلى شفتيها محذرة:

- صه! لا ترفع صوتك.. اي مهزلة! انها المهزلة التي تدور على حسابك.. إنهم يخدعونك: ففي هذا الصباح، حينما انصرفت مع الامير، ارهقت "ماريا" "زينا" بالحديث اكثر من ساعة لتقنعها بأن تتزوج هذا الشيخ "الآلي"، وكانت تقول أنه ليس هناك ما هو أسهل من طيه.. وكانت تقترح وسائل عجيبة كانت تثير الألم في قلب، وقد سمعتهما من هنا، وقبلت "زينا" ذلك في النهاية. لقد خدعتاك كلاهما الاثنتان وتعتبرانك غبياً ابله، وصرحت "زينا" في وضوح بأنها لن تتزوجك ابداً.. ابداً!.. وأنا ـ يالي من بلهاء! ـ كنت قد فكرت في أن اتزين من أجل الأمير.. ولكن، انصت اذن!

فتمتم "موجلياكوف" قائلاً وهو ينظر في عيني "ناستاسيا" بغباء:

فقالت في شيء من نفاذ الصبر:

- ولكن!.. من الخير لك ان تنصت! أنصت إذن، فستسمع اشياء جميلة!..

فقال "موجلياكوف":

- أنصت أين؟..

- ضع اذنك على هذا الثقب..

فقال وقد علت خديه حمرة مفاجئة:

- ولكن يا "ناستاسيا".. انني لست رجلاً ينصت من وراء الابواب!

- انك تضيع الوقت الثمين سدى!.. انصت هنا يا ولدي الصغير، ويجب الآن أن تتغاضى عن كرامتك.. وبما انك قد حضرت فأنصت..

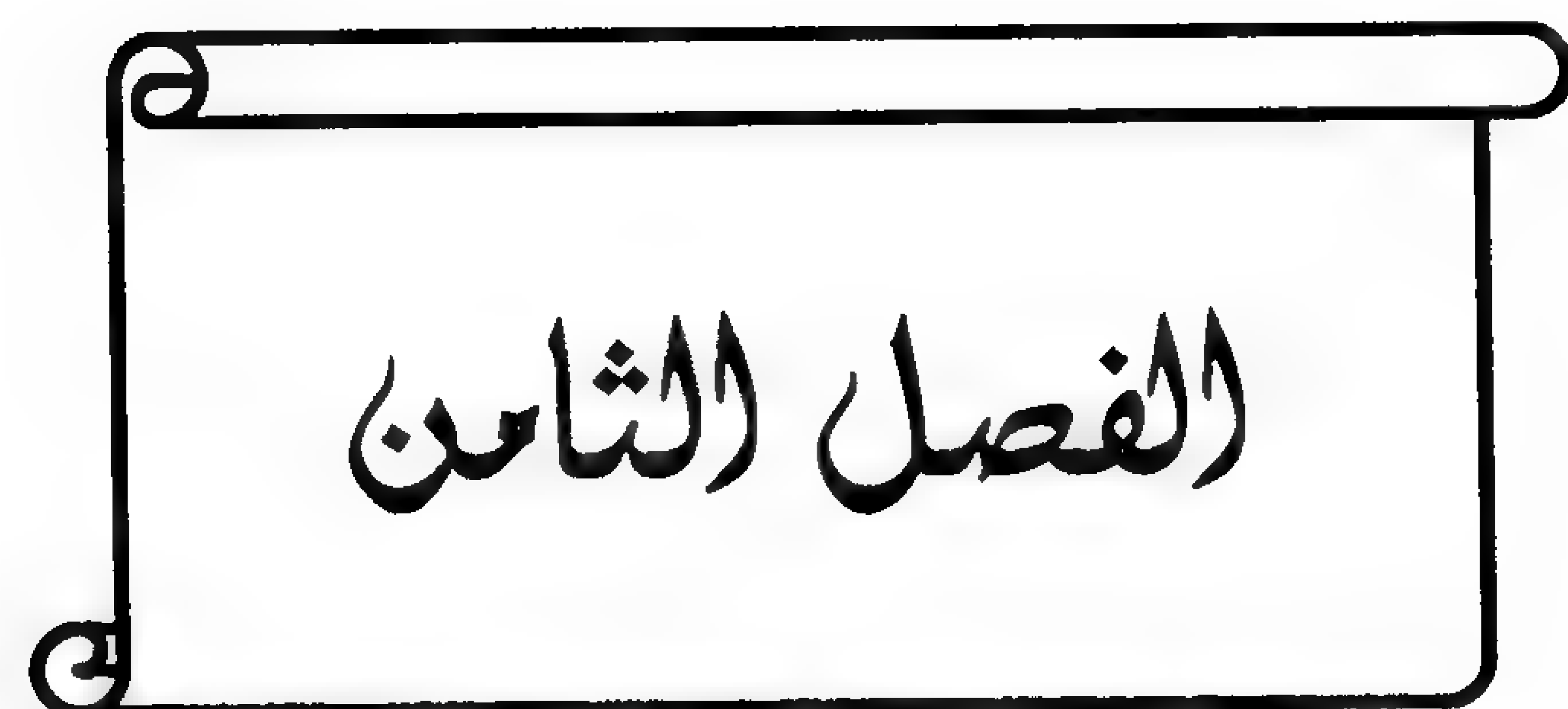
- ومع ذلك...

فقاطعته قائلة في مزيج من العطف والسخرية:

- ان كنت لا تريد ان تنصت فأنت وشأنك.. فماذا يهمني؟ انني فقط ارثي لحالك.. وها أنت ذا تتمنع! هل أنا اعمل من اجل نفسي؟.. انني سأغادر هذا البيت هذا الليلة إلى غير رجعة!

وانحنى "موجلياكوف" واخذ ينصت كارهاً.. كان دمه يغلي في عروقه، ولكنه كان لا يفهم شيئاً مما يجري حوله!

* * *


الفصل الثامن

الإغـراء

القت "ماريا الكسندرفنا" على الاميرة نظرة كتلك التي يلقيها الطير الجارح على فريسته وسألته قائلة:

- هل تسليت كثيراً أيها الأمير عند "ناتاليا ديمتريفنا"؟

(وبدأت "ماريا" الهجوم عمداً باكثر الطرق براءة وقلبها يدق من فرط الانفعال) وبعد العشاء، أدخلا الأمير في الصالون الذي كان به في الصباح وكان هذا الشيخ القصير قد شرب ستة كئوس من الشمبانيا فكان يترنح وقد فقد توازنه. وكان ايضاً لا يكف عن الثرثرة. وكانت "ماريا" تعرف ان حالة الأمير هذه ليست الا نشوة مؤقتة وانه سرعان ما يستغرق في النوم.. فكان عليها إذن ان تتلقف هذه الفرصة السانحة.. ولاحظت بسرور ان هذا الشيخ الشهواني المحب للملذات يلقي على "زينا" نظرات نهمة، وفرحت لذلك مشاعر الامومة لديها..

وقال الأمير رداً على سؤال "ماريا":

- ت.. ت.. تماماً.. اتعرفين انها سيدة لام..م.. مثيل لها "ناتاليا ديمتريفنا" هذه، سيدة لا مثيل لها؟

وبالرغم من كل هموم "ماريا"، فقط ايقظ هذا المديح الموجه إلى منافستها غيرتها العارمة.

فصاحت والبرق في عينيها:

- ماذا ايها الامير؟ "ناتاليا ديمتريفنا" سيدة لا مثيل لها؟ لم يعد لديَّ إذن ما اقول!.. ولكن لا بد انك حقاً لا تعرف مجتمع بلدتنا، فهو ليس الا استعراضاً وقحاً تنقصه المشاعر، ومهزلة وطلاء خارجياً.. ازل هذه المظاهر، تر جهنم الحمراء مختفية وراء هذه الازهار، وشرذمة من الافاعي.

- ص.. ص.. صحيح؟ انك تثيرين د.. د.. دهشتي!

- اقسم لك على ذلك! آه.. ايها الامير!.. اسمعي يا "زينا".. انني مضطرة لان اقص على الأمير مغامرة تثير السخرية حدثت في الاسبوع الماضي مع "ناتاليا" هذه، اتذكرين ذلك؟ نعم ايها الأمير "ناتاليا ديمتريفنا" هذه التي تُعجب بها كل الاعجاب. آه! يا اميري العزيز، واؤكد لك انني لا احب ان انقل الاخبار، ولكن يجب ان اقص عليك ذلك، فقط لأُعطيك عينة حية ومخجلة لمجتمعنا. فمن خمسة عشرة يوماً، جاءتني "ناتاليا"، وقدمت لها القهوة، وكنت مضطرة للخروج. واذكر تماماً عدد قطع السكر التي كانت في وعاء السكر الفضي، اذ كان مملوءاً. فماذا رأيت حينما عدت؟ لم يكن بالوعاء الا ثلاث قطع من السكر فقط، وكانت "ناتاليا ديمتريفنا" قد بقيت وحدها بالغرفة، فكيف تجد فعلتها هذه؟ ان لها بيتاً ولديها مال وكل

ما تريد وتشتهي ان هذه فعلة دنيئة تثير السخرية، ولكنها تعطيك فكرة صريحة عن مجتمع مورداسوف.

- ح.. ح.. حقاً! يا للشراهة غير الطبيعية! ولكن، كيف استطاعت ان تلتهم وعاء السكر بأسره؟

- ها هي ذي سيدتك التي لا مثيل لها ايها الامير! اليس هذا شيئاً يدعو إلى الخجل؟ انه ليبدو لي انني كنت افضل الموت على ان ارتكب مثل هذا العمل الكريه الذي يثير الاشمئزاز.

- بالطبع!.. بالطبع! ولكن، اتعرفين انها سيدة جميلة بالرغم من كل شيء؟.

- "ناتاليا ديمتريفنا" جميلة؟! ماذا أيها الامير؟ انها ليست سوى برميل.. آه! أيها الامير.. ماذا تقول هنا؟ كنت اعتقد ان ذوقك ارفع من ذلك!

- بالطبع.. انها "برميل".. ولكن، فقط.. اتعرفين ان جسمها لطيف للغاية؟ ثم ان تلك الفتاة الصغيرة التي كانت ترقص كانت ايضاً را.. را.. رائعة الجمال؟

- تقصد الصغيرة "وسنيا"! ولكن لا تزال طفلة ايها الامير، فهي في الرابعة عشرة من عمرها فقط..

- بالطبع.. انها الفتاة اليتيمة.. انها قذرة وكان يجب على الاقل ان تغسل يديها. ولكن، كم هي س.. س.. ساحرة!

وكان الأمير اثناء الحديث ينظر إلى "زينا" بنهم متزايد .. وتمتم قائلاً وهو مشدوه تماماً :

- ولكن، يا له من ظرف وسحر! ..

فقالت "ماريا":

- "زينا" .. اعزفي لنا شيئاً او .. غني .. انها تغني بطريقة ساحرة ايها الامير، واستطيع ان أقول ان لها موهبة عجيبة في عزف الموسيقى ..

واستطردت "ماريا" قائلة بصوت منخفض و"زينا" تقترب من البيانو بمشيتها البطيئة المتبختره التي كانت تثير انفعال الشيخ :

- آه لو عرفت ايها الامير! .. اه لو عرفت انها كنز، وانها تعرف كيف تحب .. وانها حنونة معي، يا له من قلب! يا لها من عواطف.

فقال الأمير وهو يبلع ريقه :

- بالطبع .. العواطف .. اتعرفين انني لم اعرف قط الا سيدة واحدة نستطيع ان نقارنها بها من حيث الجمال .. انها المرحومة الكونتس "نواينسكايا" وقد ماتت منذ ثلاثين عاماً .. يا لها من س .. س .. سيدة مدهشة رائعة الجمال! ولكنها تزوجت الطاهي الذي كان يعمل عندها ..

فصاحت "ماريا الكسندرفنا" تقول في دهشة :

- الطاهي الذي كان يعمل عندها.

- بالطبع.. الطاهي.
- بالطبع.. الطاهي الذي كان يعمل عندها، وكان فرنسيا، وقد ت.. ت.. تزوجته في الخارج.. وجعلته يحصل في الخارج على لقب كونت، .هو رجل م.. م.. مثقف تماماً، وله شارب قصير.
- وكيف عاشا إذن معاً ايها الامير؟
- عاشا معاً حياة رغدة، ولكنهما ما لبثا ان انفصلا، فقد سرق مالها ورحل.. واعتقد انهما تشاجرا بسبب "صلصلة" من "الصلصات".

وسألت "زينا" امها قائلة:

- ماذا تريدين ان اعزف يا أماه؟
- بل غني يا "زينا".. آه لو عرفت ايها الأمير كم غناؤها ساحر!.. هل تحب الموسيقى؟..

فقال:

- آه! نعم! انها شيء س.. س.. ساحر! س.. .س. ساحر! انني احبها كثيراً، وقد عرفت بيتهوفن في الخارج..

فصاحت "ماريا" تقول في دهشة:

- بيتهوفن! تصوري يا "زينا" ان الأمير يعرف بيتهوفن! آه ايها الامير! احقاً قد عرفت بيتهوفن؟

بالطبع.. فقد كنا صديقين حميمين، وكانت رائحة الطباق تفوح دائماً من انفه.. يا له من رجل ساذج يثير السخرية!

- بيتهوفن؟

- بالطبع.. بيتهوفن.. ومن جهة اخرى، فربما لم يكن بيتهوفن، بل رجلاً المانيا آخر، اذ ان هناك كثيراً من الالمان.. ومن الممكن ان أكون مخطئاً..

وسألت "زينا" والدتها قائلة:

- ماذا تريدين ان اغني يا أماه؟

فقالت الأم:

- غني لنا قصيدة الغزل هذه التي تذكرينها وبها طابع الفروسية، والتي تتحدث عن سيدة القصر هذه و"مداحها" الشاعر. آه ايها الامير! كم احب الفروسية وحياة القصور، وحياة القرون الوسطى هذه والشعراء المداحين ومباريات الفرسان على صهوة الجياد!

فقال الأمير وهو يحملق بعينه الوحيدة في "زينا":

- بالطبع.. القصور.. وانا ايضاً احب القصور.. ولكن.. يا الهي! قصيدة الغزل هذه.. ولكنني اعرفها وقد سمعتها منذ زمن بعيد، وهي تذكرني بـ.. آه يا الهي!

ولن نأخذ عن عاتقنا ان نصف ما حدث للامير حين اخذت "زينا" تغني.. انها كانت تغني قصيدة غزل فرنسية قديمة على طريقة العصور الغابرة، وغنتها بطريقة مدهشة، وكان صوتها النقي الساحر يذهب إلى القلب مباشرة. وكان الشيخ المسكين مسحوراً بوجهها الجميل وعينيها

الـرائعتين. وأناملـها الرقيقـة الـتي كـان تقلـب صـفحات النوتـة الموسـيقية، وشعرها الاسود اللامع الغزير، وصدرها الذي يعلو ويهبط، وبكل شخصيتها الجميلة المتعالية.. ولم يحول بصره عنها طالما كانت تغني، وكـان يختنق مـن فـرط الانفعـال. وكـان قلبـه العجـوز الـذي ادفأتـه الـشمبانيا والموسـيقى والذكريات ينبض بـشدة متزايـدة كمـا لم ينـبض قـط منـذ زمـن بعيـد . ومـا كادت "زينا" تفرغ من الغناء حتى اوشك الأمير على البكاء .

وصاح الأمير قائلاً وهو يقبل أنامل "زينا":

- آه يا ابنتي الرائعة! لـشدة مـا تـسحرينني! فانني الان اتـذكر قـط.. ولكن.. ولكن.. آهي ا ابنتي الساحرة!

ولم يستطع الأمير ان يتم حديثه، وشـعرت "ماريـا" بـأن اللحظـة المواتيـة قد حانت، فبدأت حديثها بطريقة مهيبة قائلة:

- لماذا تجـري إلى حتفـك ايهـا الامـير؟ فانـك لا تـزال مفعمـاً بالمـشاعر الكـبيرة والقـوى الحيويـة الـوفيرة والثـروة الاخلاقيـة الـضخمة؟ ومـع ذلك، فانك تـسجن نفسك في سجن بين اربعة جدران! وتهـرب مـن المجتمـع ومـن اصـدقائك! ان هـذا شـيء لا يُغتفـر! فكـر إذن ايهـا الامـير، وانظـر إلى الحيـاة نظـرة واضـحة، وتـذكر الماضـي.. تـذكر شبابك الذهبي، وأيامك التي كانت بـلا همـوم.. أُحيـي هـذا الماضـي مرة أخـرى.. عـش ثانيـة في مجتمـع الاحيـاء، وسـافر إلى الخـارج.. إلى ايطاليـا.. إلى اسـبانيا.. إلى اسـبانيا ايهـا الامـير. وينبغـي ان

يكـون معـك مـن يرشـدك : قلـب يحبـك ويحترمـك، ويـشعر نحـوك بالاستلطاف.

حسـناً! ان لك اصدقاء .. ادعهم يأتوا اليك مسرعين. وانـا اول مـن يـترك كل شيء ويلبي نـداءك بـسرعة! فانني اتـذكر صداقتنا القديمة ايهـا الامـير. ولسوف اترك زوجي لأتبعك.. وحتى لو انني كنت اكثر شباباً ولو انني كنت في مثل جمال ابنتي، فانني كنـت اصبح إذن صـديقتك ورفيقتـك.. وزوجتـك لو اردت "انت" ذلك..

فقال الأمير وهو يتمخط :

- انني واثق من انك كنت سيدة سـاحرة في ز .. ز .. زمانـك وامتلات عينا الأمير بالدموع ..

فقالت له "ماريا" في انفعال جارف :

- اننـا نـستمر في ان نحيا في اشـخاص أولادنـا ايهـا الامـير، فلـي أنـا ايضاً ملاكي الحارس.. وهو ابنتي، صديقة افكاري وقلبي! وقد سبق ان رفضت سبعة عروض للزواج لانها لا تريد أن تفارقني ..

فصاح الأمير قائلاً في حماس :

- انها ستذهب معك اذن .. ح .. ح .. حين تـصاحبينني للخارج .. وفي هـذه الحالـة، فـانني سأسـافر حتمـاً إلى الخارج. سـاسـافر ح .. ح .. حتمـاً. آه! هـل أستطيع ان أ .. أ .. امـني نفـسي بالامـل؟ .. ولكنهـا بنت مدهشة! يا ابنتي الفاتنة.

ومرة اخرى، اخذ الأمير يقبل اصابع "زينا".. بل وحاول الشيخ المسكين ان يركع امامها..

فتلقفت "ماريا" هذه الفرصة وشعرت بنوبة جديدة من الفصاحة تعتريها، فقالت للامير:

- ولكن.. ولكن ايها الامير.. انك كنت تقول انك تتمنى ان يراودك الامل.. فما اعجبك ايها الامير! ولماذا لا تعتبر نفسك جديراً بجذب انتباه السيدات اليك؟ ليس الجمال كله في الشباب! تذكر انك من بقايا الاستقراطية الروسية، وانك تمثل ارفع المشاعر واكثرها فروسية وتمثل انبل الاخلاق! أفلم تحب "كاتيا" ابنة الأمير "كوتشوبي"؟ وقرأت ان "لوزان"، وهو مركيز فاتن من بلاط الملك لويس ـ ولست ادري اي لويس منهم كان بالضبط ـ كان لوزان هذا شيخاً ولكنه غزا قلب سيدة من اجمل سيدات عصره! وفوق هذا، فمن ذا الذي قال لك انك شيخ؟ ومن ذا الذي يزعم ذلك؟ فهل يشيخ الرجال الذين من طرازك؟.. ان قلبك يفيض بالعواطف الغنية، والمرح، وخفة الروح، والخلق الممتاز! فاذهب إلى مكان ما حيث المياه المعدنية بصحبة سيدة شابة وجميلة مثل "زينا".. ـ انني لا اذكر "زينا" هنا الا على سبيل المقارنة ـ وسترى اي اثر كبير ستحدثه أنت الارستقراطي العريق وانت بصحبتها.. بصحبة هذا الجمال الملكي، فانه ستمشي مشية مهيبة وهي تتأبط ذراعيك، وتغني في مجتمع

ارستقراطي، وأنت من ناحيتك تسخو بالكلمات الرائعة وبخفة الروح!.. وسيهرع حينئذ كل من بمنطقة المياه المعدنية لرؤيتكما! وستتحدث اوروبا بأسرها عن ذلك. ذلك لأنه لن تكون هناك الا صيحة واحدة من اجلكما في جميع الصحف والمجلات.. ايها الامير، ايها الامير! وانك تقول: "هل أستطيع ان امني نفسي بهذا الامل؟"

ولم يفهم الأمير ثرثرة "ماريا" هذه الا نصف فهم، واخذ خموله يتزايد لحظة بعد لحظة فتمتم يقول:

- الصحف.. بالطبع، بالطبع!.. والمجلات. ولكن.. يا ابنتي، إذا لم تكوني متعبة فغني إذن مرة اخرى قصيدة الغزل التي غنيتها الآن!.

فقالت "ماريا":

- آه. ايها الامير! ولكنها تعرف قصائد غزل اخرى اجمل من هذه بكثير! هل تعرف قصيدة "عصفورة الجنة"؟ وهل سبق ان سمعتها؟

فقال الأمير متوسلاً كطفل:

- بالطبع.. ولكني نسيتها.. كلا، كلا!.. انني اريد القصيدة التي غنتها الآن، ولا اريد قصيدة "عصفورة الجنة".. انني اريد قصيدة الغزل التي غنتها الآن..

ومرة اخرى، اخذت "زينا" تغني القصيدة، ولم يستطع الأمير ان يتمالك نفسه فركع امامها باكياً..

كان صوت الأمير يرتجف من فرط الانفعال والهذيان وهو يقول:

- آه! يا سيدة ق.. ق.. قصري الجميلة! آه! يا سيدة ق.. ق.. قصري الـ.. س.. س.. ساحرة! آه يا ابنتي العزيزة! كم من الاشياء تذكرينني بها عن الزمن الم..م.. ماضي! وكنت آمل حينذاك في مستقبل جديد! وكنت اغني حينذاك نفس قصيدة الغزل هذه بصاحبة الفيكونتس.. والآن، آه! انني اعرف ما ينتظرني...

نطق الأمير بهذا الحديث بصوت متقطع لاهث، وتصلب لسانه وكانت بعض كلماته غير مفهومة وكان بادياً فقط انه في ذروة الانفعال، فأسرعت "ماريا" بالقاء الزيت على النار اذ قالت:

- ولكنك توشك ايها الأمير ان تقع في حب "زينا"

وفاق رد الأمير كل ما كانت تتوقعه "ماريا".

صاح الشيخ القصير قائلاً وهو في غاية الحماس ولا يزال راكعاً:

- انني احبها إلى ح.. ح.. حد الجنون! وانا على استعداد لأن أ.. أ.. اضحي بحياتي في سبيلها.. آه! ليتني أستطيع ف.. .. فقط ان يراودني الامل.. ولكن، أعيناني على النهوض.. أرجوكما. فانني احس بشيء من الضعف.. ليتني أستطيع فقط ان يراودني الأ.. أ.. أمل.. انني سأقدم لها قلبي.. وانني. انها ستغني لي حينئذ كل يوم قصائد الغزل، ولن.. أ.. أ.. أكف عن النظر اليها.. النظر إليها على الدوام.. النظر إليها على الدوام.. آه! يا الهي!.

فقالت له "ماريا":

- ايها الامير! انك تعرض عليَّ ان تتزوج ابنتي، وتريد ان تأخذها مني، انك تريد ان تأخذ مني ابنتي الغالية، ملاكي "زينا"! انني لن افترق عنك يا "زينا"! فانتزعها إذن من بين ذراعي أمها!

وارتمت "ماريا" على ابنتها واحتضنتها بذراعيها على الرغم من انها كانت تشعر بأن "زينا" تبعدها.. لقد بالغت هذه الأم في تمثيلها، وكانت "زينا" تقاسي لهذا السبب وتشعر بالاشمئزاز، ولكنها لزمت الصمت، وهذا كل ما كانت تريده الأم منها.

وصاحت "ماريا" قائلة:

- انها رفضت تسع زيجات حتى لا تفارق امها، ولكن قلبي يشعر الان بأنها ستفترق عني، فقد لاحظت منذ لحظة انها كانت تنظر اليك نظرة خاصة. لقد سحرتها ارستقراطيتك ورقتك ايها الامير!.. آه! لا تفرق بيننا.. انني اشعر بذلك..

وتمتم الأمير قائلاً وهو يرتجف كورقة في شجرة:

- انني اع.. اع.. أعبدها!

فصاحت "ماريا" وهي ترتمي مرة اخرى على رقبة ابنتها:

- إنك إذن تتركين امك!

ومدت "زينا" يدها الجميلة إلى الامير، بل واجتهدت في ان تبتسم كي تنتهي من هذا المنظر المؤلم. وامسك الأمير يدها باحترام وغمرها بالقبلات وهو يقول:

- الان فقط بدأت اعيش!..

وقالت الأم بلهجة مهيبة:

- "زينا" انظري إلى هذا الرجل.. انه انبل الرجال واشرفهم! انه فارس من فرسان العصور الوسطى.. انها تعرف ذلك ايها الامير، تعرفه تماماً، وهذا يسبب شقائي!.. آه! لماذا جئت إلى بيتنا؟.. انني اعهد اليك بكنزي، بملاكي.. فحافظ عليه ايها الامير، واستمع إلى رجاء أم، فأي أُم تستطيع ان تلومني؟.

وتمتمت "زينا" قائلة:

- كفى يا أُماه..

فقالت ماريا:

- إنك ستدافع عنها أيها الأمير، وسيلمع سيفك إن تجاسرت الافتراءات ومستها!

فقالت "زينا":

- كفى يا أُماه..

وتمتم الأمير قائلاً:

- بالطبع!.. سيفي!.. انني اريد أن يُعقد ز.. ز.. زواجنا في الحال.. انني بدأت الان فقط.. أ.. أعيش! واريد ان ارسل في الحال ر.. ر.. رسولاً إلى دوخانوفا، فعندها هناك بعض الجواهر واريد ان اضعها تحت قدميها!

فقالت "ماريا":

- يا له من اقدام!. يا له من حماس!.. يا لها من نفس نبيلة! هذا مع انك كنت توشك ان تضيع في هذه الصحراء! ولن اكف عن ان اكرر لك ذلك.. انني اجزع كلما فكرت في هذه المرأة الجهنمية التي تسجنك هناك.

واخذ الأمير يبكي ويقول:

- ولكن ماذا كان في استطاعتي ان افعل؟ انني كنت خائفاً جداً.. إذ كان اقربائي يريدون ايداعي م.. م.. مستشفى الامراض العقلية فشعرت بخوف كبير..

فصاحت "ماريا" تقول في دهشة واستنكار:

- مستشفى الامراض العقلية؟؟! آه.. يا لهم من اشقياء يا للقسوة الدنيئة! ايها الامير، انني سمعت ذلك، ولكن هؤلاء اناس مجنونون، فلماذا يضعونك في مستشفى الامراض العقلية؟ لماذا؟

وهوى الشيخ القصير على مقعده الوثير من شدة التعب ثم قال:

- انا نفسي لست ادري سبباً لذلك. انك تعرفين انني كنت في حفل را.. را.. راقص، وكنت اقص عليهم بعض الفكاهات، فلم ترق لهم، وبعد ذلك.. حدثت هذه القصة الطويلة..

فقالت "ماريا":

- لهذا السبب فقط أيها الأمير؟!

كلا، انني لعبت ايضاً الورق مع الأمير "بطرس ديمنتش" وخسرت مالاً كثيراً. وكان من بين ورقي "ولدان" وثلاث "بنات".. أو بالاحرى: ثلاث "بنات" و "ولدان".. كلا، بل انها كانت "و.. و.. ولد" واحد والباقي "ب.. ب.. بنات" فقط!.

لهذا السبب فقط؟!. لهذا السبب؟! يا له من خبث جهنمي! انك تبكي ايها الامير، لن يحدث ذلك بعد الآن.. فسأكون على الدوام إلى جوارك يا اميري.. ذلك لأنني لن اترككما يا "زينا".. وسنرى من يجرؤ ويلفظ كلمة واحدة.

تابعت "ماريا" حديثها قائلة:

- هل تعلم ايها الأمير ان زواجك سيذهلهم ويشعرهم بالخجل! فسيرون انك لا تزال على.. أي.. إنهم سيفهمون أن مَن كانت في مثل جمال ابنتي لا يمكن ان تتزوج برجل مجنون، وانك تستطيع الآن ان ترفع رأسك عالياً وتنظر اليهم وجهاً لوجه!..

فتمتم الأمير قائلاً وهو يغمض عينيه:

- بالطبع.. وجهاً لوجه!

وفكرت "ماريا" في نفسها قائلة: "انه اصبح غاية في الخمول، واعتقد انني اتحدث بلا جدوى." وبحنان أم، مالت عليه قائلة:

- ايها الامير.. انك منفعل للغاية، ويحسن ان تستريح..

- بالطبع.. انني سآخذ ق.. ق.. قسطاً قليلاً من النوم؟

نعم.. كل هذه الانفعالات.. انتظر.. سأرافقك بنفسي إلى غرفتك، واجعلك

تنام بنفسي إذا لزم الأمر.. لماذا تنظر إلى تلك الصورة هذه النظرة ايها الامير؟ انها صورة والدتي، وكنت ملاكاً اكثر منها امرأة.. آه! لماذا ليست امي هنا؟.. لقد كانت امرأة طاهرة عادلة، ولا أستطيع ان اصفها بغير ذلك!

امرأة طاهرة عا.. عا.. عادلة.. ان هذا شيء جميل. وكانت لي ام أنا ايضاً، وهي الاميرة.. وتصوري انها كانت سيدة بدينة للغا.. غا.. غاية.. ومن جهة اخرى، فانني كنت لا اريد ان اتحدث في هذا الامر.. انني اشعر بـ.. بـ.. بشيء من التعب.. إلى اللقاء !..

ويريد الأمير ان يأتي بحركة ساحرة ولكن قدمه تزل وينزلق على ارضية الغرفة الخشبية..

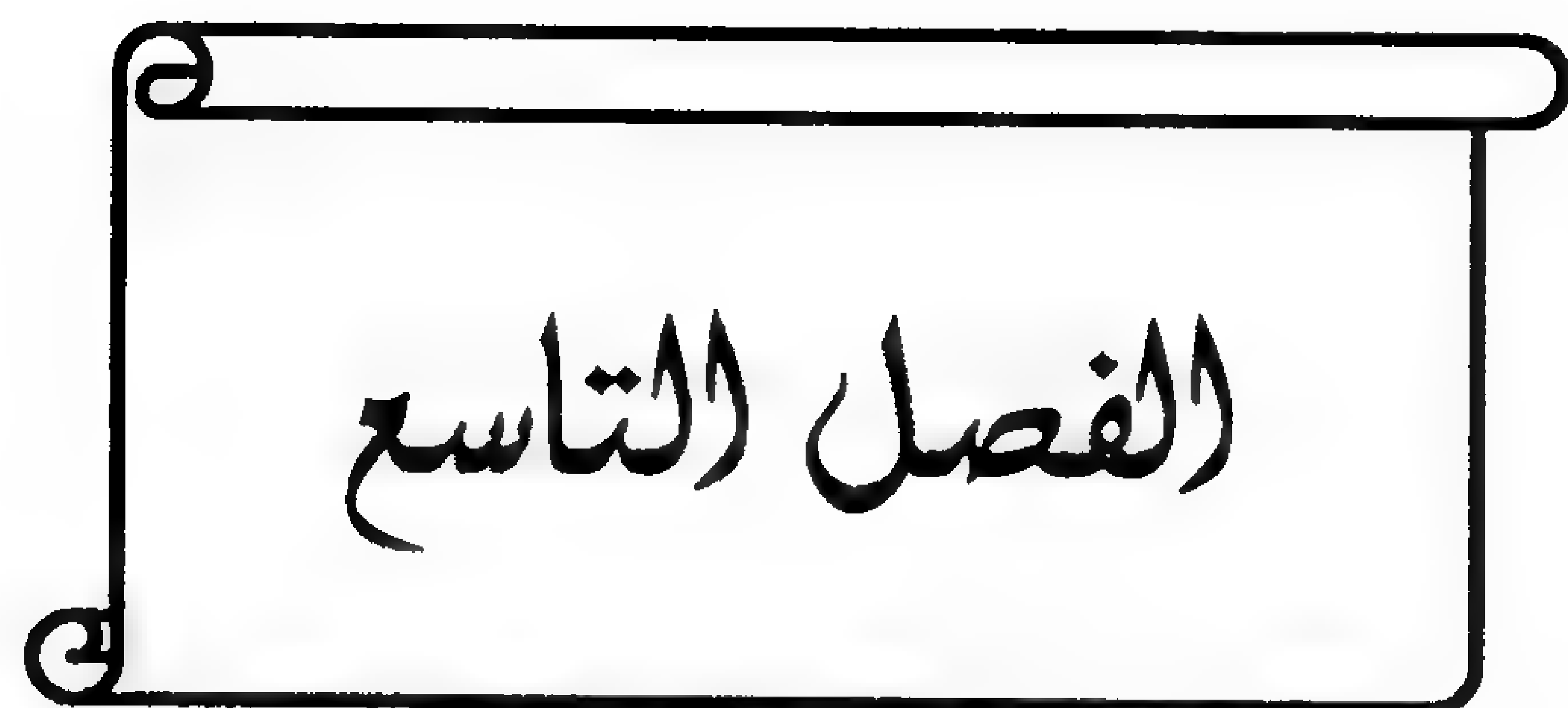
فصاحت "ماريا" قائلة:

- احترس ايها الامير! واستند إلى ذراعي!

انها سا.. سا.. ساحرة! سا.. سا.. ساحرة! وانني بدأت أ.. أ.. أعيش الآن فقط!

ظلت "زينا" وحدها وهي تحتقر نفسها وتشعر بالانقباض.. كان خداها مشتعلين ويداها متصلبتين وكانت تصر على اسنانها.. كانت ساكنة بلا حركة وقد سالت دموع الخجل من عينيها..

وفي تلك اللحظة فتح الباب واندفع "موجلياكوف" إلى الصالون وقد شحب وجهه من شدة الغيظ!


الفصل التاسع

سمع "موجلياكوف" كل شيء .. كل شيء!

ونظرت إليه "زينا" في دهشة بالغة..

صاح قائلاً بصوت مخنوق:

- آه! إنكم هكذا إذن!..

فالتهبت عينا "زينا" من شدة الغضب وصاحت قائلة:

- كيف تجرؤ على ان تخاطبني بهذه اللهجة؟

وتقدمت خطوة نحو الشاب.. فتراجع على الرغم منه خطوة إلى الوراء، وقال لها مؤيداً عبارته الأولى بلهجة مهيبة:

- لقد سمعت كل شيء!..

فقالت "زينا" وهي تنظر إليه في احتقار:

- سمعت كل شيء؟.. بل قل أنك تجسست.

فتمتم يقول وهو يزداد ارتباكاً تحت وطأة نظرتها:

- نعم.. إنني تجسست! نعم.. لقد صممت على ارتكاب هذا العمل الدنيء!.. ولكنني عرفت بفضله أنكم أسوأ.. آه! انني لا أستطيع أن أصف سلوككم..

- وبعد ان سمعت كل شيء ، بماذا تستطيع أن تتهمني؟ وكيف تسمح لنفسك أن تتهمني وأن تُحدثني بهذه اللهجة؟

- انا؟ وبأي حق؟ .. كيف تستطيعين أن توجهي إليَّ هذا السؤال؟ أتريدين أن تتزوجي بالأمير ولا يكون لي الحق في ذلك؟ ولكنكِ أعطيتني كلمتك!

- ومتى كان ذلك؟..

- متى؟..

- هذا الصباح، حينما تَحدَّثتَ معي في هذا الشأن، قلتُ لك بصراحة إنني لا أستطيع أن أقول لك اي شيء ايجابي في هذا الشأن ..

- ولكنكِ لم ترفضيني .. انك إذن وضعتني "تحت الطلب" وكنت تُراعي عدم رفضي رفضاً قاطعاً لهذا السبب!

فارتسم على وجه "زينا" تعبير مؤلم، ولكنها احتقرت نفسها .. وقالت رداً على كلام "موجلياكوف" بلهجة جادة متزنة ولكنها مرتجفة بعض الشيء :

- إذا كنت لم أطردك، فإن ذلك بدافع من الشفقة ليس إلا .. فقد كنت تتوسل إليَّ ان أنتظر وألا أقول لك: لا .. وقُلت لي يوماً : "اعرفيني اكثر، وإذا ما اقتنعت بأنني رجل نبيل الطبع، فربما لا ترفضينني" كانت هذه كلماتك بالحرف الواحد في مستهل علاقتنا، وأنت لا تستطيع أن تنكرها. وها أنت ذا تجرؤ الآن وتقول إننا كنا نحتفظ بك كاحتياطي! ألم تفهم إذن هذا الصباح كم كان ضيقي لأنك حضرت قبل موعد حضورك بخمسة عشرة يوماً، ومع ذلك فأنا

لم أُخف عنك هذا الضيق وقد لاحظت ذلك بنفسك إذ أنك سألتني عما إذا كان حضورك المبكر هذا لا يغضبني. أتعتبر أني راعيت خاطرك لأنني لم أُخف عنك الضيق الذي كان بادياً عليَّ؟ آه! إنني كنت احتفظ بك كخاطب احتياطي! كلا. كلا. فإنني قلت في نفسي بشأنك: "إن لم يكن لامع الذكاء فهو طيب" ولكنني أعرف الآن ـ ذلك لحسن الحظ قبل فوات الأوان ـ إنك شرير وأبله في نفس الوقت. ولم يبق أمامي إلا أن أتمنى لك سفراً سعيداً.. وداعاً!

وأشاحت "زينا" بوجهها عنه واتجهت ببطء نحو الباب. وأدرك "موجلياكوف" أن كل شيء قد ضاع، فأخذ يغلي من شدة الغضب..

وصاح قائلاً:

- آه! إنني أبلة! حسناً.. وداعاً.. ولكن.. قبل أن أرحل اعلمي أن الجميع سيعرفون المهزلة الدنيئة التي تلعبينها هنا أنت وأمك! سأقول لكل إنسان أنكم تُسكرون الأمير وتخدعونه، وستأتيكم أخبار كثيرة من "موجلياكوف"!

فارتجفت "زينا" وتوقفت لترد عليه، ولكنها بعد لحظة قصيرة من التفكير هزت كتفيها في احتقار وأغلقت الباب خلفها. وفي تلك اللحظة ظهرت "ماريا" على عتبة الباب.. لقد سمعت صيحات "موجلياكوف" الأخيرة وفهمت كل شيء، وفكرت في نفسها قائلة: "إن (موجلياكوف) لم يسافر بعد! وهو لا يزال يستطيع الاتصال بالأمير، وبفضله ستنتشر أسرار خطتي في المدينة كلها! والسرية مع ذلك أمر ضروري في هذا الشأن.."

وفي لحظة واحدة، قدرت "ماريا" كل شيء وتنبأت بكل شيء، ووضعت خطة لتهدئته فمدت إليه يدها في ود قائلة:

- ماذا بك يا صديقي؟

فصاح قائلاً في حنق:

- كيف تقولين لي "يا صديقي"؟ بعد كل ما حدث.. تقولين لي: يا صديقي! إلى اللقاء يا سيدتي. هل تظنين أنك ستخدعينني مرة اخرى؟
- إنني أسفة.. أسفة للغاية يا "موجلياكوف" لأنني اراك في هذه الحالة النفسية الغريبة.. يا له من اسلوب! إنك حتى لا تزن كلماتك وانت تخاطب سيدة!
- أُخاطب سيدة! إنك تكونين كل ما تريدين.. ولكنك لست بسيدة..

"ولا ادري ماذا كان يعني بهذا الكلام، ولكنه كان على كل حال إهانة فظيعة"

ونظرت إليه "ماريا" وابتسمت ابتسامة تدل على الشفقة، ثم اشارت إلى المقعد الوثير الذي كان يجلس عليه الأمير من ربع ساعة مضت وقالت له بحزن:

- اجلس..

فصاح "موجلياكوف" قائلاً وقد تملكه الذهول:

- ولكن، أنصتي إليَّ حتى النهاية يا "ماريا".. إنك تعاملينني كما لو كنت أنتِ البريئة وأنا المذنب، إن هذا شيء مستحيل! ويفوق كل حد وكل صبر، وكل.. أتعرفين ذلك؟

- يا صديقي.. واسمح لي بأن ادعوك هكذا لانه ليست لك صديقة أحسن مني ـ إنك تتألم وتثور وقلبك مجروح، فيجب. عليَّ إذن أن اغفر لك تهورك في اسلوبك معي.. حسناً.. إنني سأفتح لك قلبي وذلك خاصة لأنني اشعر بأنني مذنبة في حقك إلى حد ما.. اجلس هنا ولنتحدث معاً..

كان صوتها غاية في الرقة، وكان مظهرها يدعو حقاً إلى الشفقة وجلس "موجلياكوف".. فقالت له في مزيج من التأنيب والتسامح..

- إنك أنصت من وراء الباب!

- نعم.. لقد أنصت من ورائه.. ولِمَ لا؟ يا لي من غبي!

وصمت لحظة راح يبحث فيها عن الشجاعة في قلبه ثم قال:

- وإنني أعرف الآن على الأقل ما كنت تدبرينه ضدي!

- وقد استطعت بتربيتك السامية وسلوكك الرفيع ان تلعب مثل هذا الدور! آه! يا الهي..

فانتفض "موجلياكوف" في مقعده وقال:

- إنني لا أستطيع أن أسمع منك كثيراً من ذلك! إن من الخير لك ان تتذكري ما تفعلينه أنت نفسك على الرغم من تربيتك وسلوكك، فتدركين حينئذ ما إذا كان يحق لك ان تتهمي الآخرين.

فقالت له دون ان تجيب على سؤاله:

- هناك سؤال آخر أريد أن أوجهه إليك.. مَن الذي أوحى إليكَ بفكرة

الإنصات من وراء . الباب؟ ومَن ذا الذي يتجسس عليَّ هنا؟ هذا كل ما أريد معرفته.

- معذرة.. انني لا أستطيع ان أقول لك ذلك!

- حسناً.. إنني سأعرفه.. إنني أقول إذن يا "بافيل" انني مذنبة في حقك، ولكنك إذا استطعت ان تحكم عليَّ بعد ان تعرف كل شيء، فسترى أنني مذنبة فقط لأنني اردت لك كل الخير..

- هكذا؟ أردت لي كل الخير؟ إنك تسخرين مني، وأؤكد لك أنك لن تخدعيني بعد الآن، فلست ساذجاً إلى هذا الحد!

واضطرب "موجلياكوف" وتململ في مقعده فقالت له:

- أرجوك يا صديقي.. كُن أكثر هدوءاً إن استطعت! أنصت إليَّ في انتباه وستتفق معي في الرأي. لقد أردت في بادئ الأمر أن أقول لك كل شيء، واجعلك تعرف كل التفاصيل دون أن تضطر إلى أن تحط من قدرك إلى استراق السمع من وراء الابواب. وإذا كنت لم أفعل، فذلك فقط لان المسألة كانت لا تعدو أن تكون مشروعاً، وكان من المحتمل جداً ألا ينجح هذا المشروع. وها أنت ترى كم أنا صريحة معك.. وعلى الأخص لا تتهم ابنتي بأي شيء، فهي تحبك حباً جنونياً، ولقد اضطررت لأن أبذل جهداً مضنياً لانتزعها منك واقنعها بأن تقبل عرض الأمير.

فقال في سخرية:

- لقد سمعت بنفسي البرهان على هذا الحب الجنوني!

- حسناً.. ولكن بأي لهجة تحدثت إليها! أهذه لهجة المحب الولهان؟ أهذه لهجة الرجل المهذب؟ لقد أهنتها وأثرتها..

- إن الأمر هنا لا يتعلق بحسن التربية، فقد استقبلتماني أنت وابنتك هذا الصباح بوجه بشوش، ولكنكما أشبعتماني ذماً بعد أن خرجت مع الأمير.. إنني أعرف كل شيء!

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة كلها احتقار:

- لقد عرفت ذلك بالطبع من نفس المصدر الكريه الدنيء..

- نعم، لقد حدث أنني أشبعتُك ذماً.. إنني أعترف بذلك، ولكنني كنت أشعر بألم كبير حينذاك، إذ اضطررت لأن أكافح عواطفي كفاحاً مريراً. ولكن مجرد انني اضطررت لأن أفتري عليك يبرهن لك في وضوح مدى الصعوبة التي لاقيتها في أن أجعل ابنتي تتخلى عنك إلا ترى إذن أبعد من موضع قدميك؟ ولو أنها كانت لا تحبك، لما أضطررت لأن ألجأ إلى الافتراء.. وإنك لا تعرف بعد كل شيء، فقد اضطررت لان استعمل سلطتي كأم لانتزعك من قلبها، وبذلت اخيراً جهداً مضنياً كي انجح في الحصول على ما يشبه القبول.. وبما أنك أنصت من وراء الباب، فلا بد أنك قد لاحظت أنها لم تساندني لدى الأمير بكلمة أو بحركة، وقد غنت بطريقة آلية، وكان الألم يبدو واضحاً عليها، وقد أخذت الأمير لينام شفقة بها

وانني على يقين من أنها بكت حين انفردت بنفسها، ولا بد أنك قد لاحظت ذلك حين دخلت عليها في الصالون..

فتذكر "موجلياكوف" حقاً ان "زينا" كانت تبكي حينما دخل الصالون..!

قال:

- ولكنك أنت.. أنت، لماذا كنت ضدي يا "ماريا"؟ ولماذا افتريت عليَّ كما تعترفين بذلك؟

- آه! إن هذه مسألة أخرى.. ولو أنك سألتني عن ذلك بهدوء منذ البداية، لأجبتك عنه من وقت طويل. نعم، انك على حق.. إنني أنا التي فعلت كل شيء، أنا وحدي.. ولا تتهم "زينا" بشيء.. ولكن، لماذا فعلت ذلك؟ انني فعلت ذلك أولاً من أجل "زينا":

فالأمير ثري، ومن بيت نبيل، وله علاقات طيبة. وإذا ما تزوجته "زبنا" فسيحقق لها هذا الزواج مصلحة كبيرة.. واخيراً، فهو إن مات ـ وهذا لن يلبث أن يحدث لأننا جميعاً سنموت إن عاجلاً أو آجلاً ـ فستصبح "زينا" حينئذ أرملة شابة من المجتمع الراقي واسعة الثراء، وتتزوج إذن من تشاء. وليس هناك شك في انها ستتزوج حينئذ من تحب، ستتزوج الرجل الذي يجسد حبها الاول، والذي تكون قد حطمت قلبه باقترانها بالأمير، وسيجعلها الندم وحده تفعل كل شيء لاصلاح خطئها..

فأخذ "موجلياكوف" يتأمل طرف حذائه طويلاً وقد غرق في أحلامه، ثم غمغم قائلاً فيما يشبه الهمس:

- آه!..

واستأنفت "ماريا" حديثها فقالت:

- وثانياً.. فإنني لن أُطيل في هذا الموضوع، فقد لا تفهمني، فأنت لا تعرف إلا أن تقرأ صديقك شكسبير وتنهل منه كل مشاعرك النبيلة. وفوق هذا فأنت صغير السن جداً.. ولكنني أُمّ يا "بافيل"، وأُزوج "زينا" للأمير من أجل الأمير نفسه إلى حد ما، إذ أن هذا الزواج سينقذ حياته، فإنني أحب هذا الشيخ الكريم النبيل ذا الطباع المنطوية على الفروسية، أحبه منذ زمن بعيد، وأريد أن أنتزعه من مخالب تلك السجّانة الجهنمية التي تقوده إلى قبره.. ويشهد الله انني لم استطع أن أقنع "زينا" إلا حين كشفت لها عن البطولة التي ينطوي عليها مثل هذا العمل، فاقتنعت برأيي على الرغم من قلبها، ودفعها إلى ذلك حب التضحية، فهي نفسها على شيء من الفروسية. ولقد عرضت عليها هذا العرض كعمل يحتمه علينا الواجب الديني، فقلت لها أنها ستكون سنداً وعزاء وصديقة وابنة وبهجة لرجل قد لا تمتد حياته أكثر من عام واحد، ولكنه على الاقل سيموت وهو يشعر بدفء الحب، وستبدو له آخر ايامه كأنها الفردوس.. فأي انانية تراها هنا يا "بافيل"؟ كلا، إنه عمل راهبة من راهبات الرحمة..

فقال "موجلياكوف" ساخراً:

- إذن فقد فعلت ذلك فقط من أجل الأمير؟.. وكراهية من راهبات الرحمة؟

- يا "بافيل".. إنني أفهم سؤالك، وهو واضح تماماً، فانت تعتقد انني خلطت عمداً بين مصالح الأمير ومصالحي الخاصة. حسناً، قد أكون حسبت حساباً لمصالحي، ولكن اؤكد لك انني لم اكن اتعمد ذلك.. هل تُدهشك صراحتي؟ إنني لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً: ألا تُقحم "زينا" في كل هذه المسألة، فهي طاهرة كاليمامة، ولم تدبر شيئاً أو تقدر أي تقدير، ولم تعرف إلا أن تحب.. وإن كان هناك من قَدَّر أو دَبَّر فهو أنا، أنا وحدي.. ولكن، سل ضميرك في اخلاص وقل لي: مَن تلك التي لا تقدر تقديرها لو انها كانت في مكاني؟ فإننا جميعاً نقدر مصالحنا حتى في أكثر أعمالنا سخاء، وربما كان ذلك بدافع من الغريزة ودون أن نشك في الأمر. ذلك لان هؤلاء الذين يؤكدون انهم يفعلون امراً ما بدافع من نبل النفس وحده انما يخدعون انفسهم، وأنا لا اريد ان اخدع نفسي، واعترف بانني قد قدّرت الامر، ولكن.. اؤكد لك انه لم يحدث بدافع من مصلحتي الشخصية، فلم يعد يلزمني شيء يا "بافيل" فقد عشت زماني وانتهت حياتي، ولكنني وزنت الأمور إلى ابنتي، إلى ملاكي، إليها فقط، فأي أُم تستطيع ان تلومني على ذلك؟

كانت الدموع تغرق خدي "ماريا".. وقد استمع "موجلياكوف" إلى كل

هذا الاعتراف في كثير من الدهشة، وكانت عيناه تطرفان من لحظة إلى اخرى وهو يحاول أن يفهم وأن يُدرك الهدف البعيد الذي ترمي اليه.

وقال أخيراً رداً على سؤالها:

- بالطبع.. أي أم؟

ولكنه سرعان ما تراجع قائلاً:

- إنك يا سيدتي تجيدين اللف والدوران، ولكنك أعطيتني كلمتك وسمحت لي بأن آمل.. فكيف أستطيع الآن ان احتمل ذلك؟.. ما أشد ما أشعر به من خجل!

- أتعتقد إذن انني لم افكر فيك يا عزيزي "بافيل"؟.. ان الأمر على العكس تماماً، فقد كان لك مكان في كل تقديراتي.. بل أستطيع ان أقول انني قمت بهذا المشروع من أجلك أنت خاصة..

فذهل "موجلياكوف" تماماً في هذه المرة، وصاح قائلاً:

- من أجلي أنا؟!.. وكيف كان ذلك؟..

فرفعت "ماريا" عينيها إلى السماء وصاحت تقول:

- يا إلهي! كيف يمكن أن يكون المرء بسيطاً ضيق الأُفق إلى هذا الحد؟ يا للشباب!.. يا لتأثير شكسبير!.. هذا هو ما يحدثه في نفوسكم تأثير هذا الكاتب الحالم ذي الخيال العجيب! انكم تعيشون بذكاء الآخرين وأفكارهم!.. انك تسألني يا صديقي الطيب ما هي مصلحتك هنا، فاسمح لي بأن أسردها عليك في

وضوح وتفصيل: ان "زينا" تحبك، هذا لا شك فيه.. ولكنني لاحظت على الرغم من حبها البادي انها تنفر بعض الشيء من طباعك وآرائك، فيحدث لها في بعض الأحيان أن تتعمد اصطناع التحفظ والبرود معك. الم تلاحظ ذلك بنفسك يا "بافيل"؟.. لقد كان ذلك كله نتيجة لآرائك العجيبة!

- نعم.. إنني لحظت ذلك اليوم بالذات، ولكن.. ماذا تقصدين بهذا يا "ماريا"؟

- "زينا" تشك خاصة في استقرار طابعك وفي مدى مثابرتك في حبك.. وكيف أكون أُمّاً ولا أعرف قلب ابنتي؟.. تصور الآن بدلاً من ان تدخل عليها هنا باللوم بل وبالسب، وبدلا من أن تُثيرها وتهينها وتجرح كرامتها ــ وهي النقية الطاهرة الجميلة المتكبرة ــ وانك هكذا على الرغم منك جعلتها تصر على رأيها في عدم مثابرتك في حبها.. تصور انك تناولت هذا الخبر برفق وبدموع الأسف والحزن، بل وحتى بدموع اليأس ولكن بنبل..

فقاطعها "موجلياكوف" قائلاً في انفعال:

- آه!..

- كلا، لا تقاطعني، يا "بافيل".. إنني أريد أن أرسم لك لوحة تُلّفت نظرك بوضوح.. تصور أنك كُنت اقتربت منها وخاطبتها قائلاً: يا "زينا" العزيزة.. إنني أحبك أكثر من حياتي، ولكن هناك أسباباً

عائلية تفرق بيننا وأنا أفهم هذه الأسباب، فالأمر يتعلق بسعادتك، ولا أستطيع أن أقف حائلاً بينك وبين السعادة.. يا "زينا" الغالية، انني اصفح عنك، فكوني سعيدة إن استطعت" وكنت هنا تلقي عليها نظرة بائسة متوسلة كنظرة الحمل الذي يحتضر.. تصوركل ذلك يا "بافيل" وفكر في تأثيره في قلبها..

- نعم يا "ماريا" لنفترض أن هذا كله قد حدث، وإنني كنت أستطيع حقاً أن أُحدثها بهذه اللهجة، فهذا لم يكن ليمنع من أنها سترفض الزواج بي الآن..

- كلا، كلا.. يا صديقي، لا تقاطعني.. إنني أُريد أن أنتهي من أن أرسم لك هذه اللوحة التي ستؤثر في نفسك تأثيراً نبيلاً وكاملاً.. تصور إذن انك ستقابلها بعد ذلك، بعد فترة من الزمن، في المجتمع الراقي في إحدى الحفلات الراقصة الكبيرة، وعلى أنغام الموسيقى الساحرة، وبين كثير من السيدات الجميلات، وتكون أنت في وسط كل هذه البهجة وحيداً حزيناً وحالماً وشاحباً، ومستنداً في مكان ما إلى أحد الأعمدة ولكن بطريقة تجعلها تراك؛ وتتابعها بنظرك بين دورات الرقص، وتشنف اذنيك نغمات موسيقى "شتراوس"، وتلمع في كل مكان هنا وهناك فكاهة وخفة روح أحاديث المجتمع الراقي، وتظل أنت وحيداً شاحباً مكتئباً غارقاً في عواطفك.. فكر إذن فيما يحدث لابنتي العزيزة حينما تلمحك وأنت على هذه الحال، وبأي نظرة تنظر اليك؟ انها ستفكر في

نفسها قائلة: "كيف استطعت أن أشك في هذا الرجل؟ لقد ضحى في كل شيء في سبيلي! وقلبه يتمزق من أجلي!".. لا شك في أن حبها القديم سيحيا حينئذ مرة اخرى في قلبها، وبقوة لا يمكن أن تُقاوم.

وتوقفت "ماريا" لحظة لتلتقط انفاسها.. واضطرب "موجلياكوف" في مقعده حتى كاد أن يحطمه تماماً..

ثم عادت "ماريا" إلى حديثها قائلة:

- إن "زينا" سوف ترحل إلى الخارج.. إلى ايطاليا او إلى اسبانيا.. إلى بلاد الريحان واشجار الليمون.. إلى سماء الوادي الكبير اللازوردية.. إلى بلاد الحب.. إلى البلاد التي لا يستطيع المرء فيها أن يعيش بلا حب.. إلى البلاد التي تتطاير فيها القبلات والورود في السماء! وها أنت ذا تتبعها إلى هناك، وتفقد مركزك وعلاقاتك، بل وتفقد كل شيء.. وهنا تبدأ رواية حبك: الحب، والشباب، واسبانيا...

يا الهي! لا شك في أن حبكما افلاطوني طاهر، ولكنكما.. تذبلان اخيراً بالنظر كل واحد منكما إلى الآخر.. فهل تفهمني يا صديقي؟ سيكون هناك كثير من الأدنياء والاشقياء الذي يؤكدون أنك لم ترحل إلى الخارج فقط بدافع من قرابتك لزوجها الشيخ ولقد تحدثت عمداً عن افلاطونية حبكما، ولست أجهل أن بعض الناس سيخلعون على هذا الحب معنى آخر، ولكنني أُمّاً يا "بافيل" ولست أنا التي تدفعك إلى طريق السوء..

ومن المؤكد ان الأمير لن يستطيع أن يراقبكما، ولكن هذا لا يهم. وقد يبني البعض على ذلك اتهامات كثيرة. واخيراً، فإنه سيموت وهو يحمد الله على مصيره. فقل لي إذن من سيتزوج "زينا" حينئذ سواك؟ فإن قرابتك للأمير بعيدة إلى حد أنها لن تعوق هذا الزواج.. إنك ستتزوجها حينئذ وهي شابة وثرية وأميرة، وفي اللحظة التي يتمنى فيها أنبل النبلاء أن يتزوجها ويفخر بذلك، وستدخل عن طريقها في أرقى المجتمعات، وتحصل على مركز هام وعلى أرفع الألقاب..

انها تملك ارضاً يعيش عليها مائة وخمسون شخصاً، وستكونان حينئذ أغنياء حقاً، فإنني أضمن لك أن الأمير لا بد أن يكتب لها وصية في صالحها. وأخيراً - وهذا أهم شيء - فإنها ستكون قد تأكدت من مشاعرك نحوها، وتكون قد أصبحت في نظرها بطلاً من أبطال الفضيلة والعفة والحرمان في سبيل الحب. وتسألني إذن ما وجه مصلحتك في كل ذلك؟ إن المرء لا بد أن يكون أعمى حتى لا يرى مصلحتك هنا! إن مصلحتك هنا أمامك، وهي تنظر اليك، وتبتسم لك قائلة: "ها أنذا".. فتيقظ لنفسك يا "موجلياكوف"!

فصاح "موجلياكوف" قائلاً في ندم:

- إنني فهمت الآن كل شيء، وقد تصرَّفتُ تصرف رجل فظ دنيء!

ونهض واقفاً وراح يجذب شعره بعنف..

فاستطردت "ماريا" تقول:

- بل تصرفت تصرف رجل لا يحترم نفسه!.

فصاح قائلاً في يأس:

- إنني حمار يا "ماريا" وقد ضاع مني الآن كل شيء! إنني احبها حباً جنونياً..

فقالت بصوت خفيض كما لو كانت تفكر لنفسها:

- ربما لم يَضع كل شيء ..!

- آه! ليت هذا يكون ممكناً! أعينيني! انصحيني! أنقذيني!

وانخرط "موجلياكوف" في البكاء..

فمدت إليه يدها، وقالت بصوت يفيض شفقة:

- يا صديقي.. إنك فعلت ذلك مندفعاً بحماسة حبك، فكنت تشعر باليأس، بل وكنت لا تعرف ما كنت تفعله.. ويجب عليها أن تُدرك ذلك..

فصاح "موجلياكوف" قائلاً:

- إنني احبها حباً جنونياً، وإنني على استعداد لأن أُضحي بكل شيء من أجلها ..!

- انني سأبرر لها موقفك..

- أتوسل إليك يا سيدتي أن تفعلي!..

- نعم.. إنني آخذ على عاتقي كل شيء، وسأواجه أحدكما بالآخر فتقول لها أنت كل شيء كما قلته لك الآن..

- آه! يا الهي! كم أنت طيبة القلب! ولكن.. أليس من الممكن أن نفعل ذلك الآن؟

فصاحت "ماريا" تقول في استنكار:

- بحق السماء!.. إن هذا لا يمكن أن يكون.. إنك طائش يا صديقي، فهي متكبرة للغاية، وقد تعتبر ذلك وقاحة وإهانة جديدة، إنني سأمهد لك كل شيء في فرصة أخرى.. أما الآن، فاذهب إلى شبينك التاجر أو اذهب حيثما شئت.. أو إن شئت فعُد هذه الليلة.. ولكني لا أنصح لك بأن تفعل ذلك، فلم تهدأ النفوس بعد.

- إنني راحل! إنني راحل!.. يا إلهي! إنك تُعيدين إليَّ الحياة! ولكن، اسمحي لي بسؤال أخير: ماذا يكون مصيري إن لم يمت الأمير في مدى فترة معقولة من الزمن؟

- آه! كم أنت ساذج يا عزيزي "بافيل"!.. ولكن يجب أن ندعو الله من أجل صحة هذا الشيخ العزيز الطيب القلب ذي الطباع المتسمة بالفروسية، ويجب علينا ان نتمنئ له من كل قلبنا أن يعيش أياماً طويلة، فانني أنا نفسي سأصلي ليلاً ونهاراً والدموع في عيني من اجل سعادة ابنتي.. ولكن، وا أسفاه! فصحة الأمير المسكين تبدو مهزوزة تماماً. ومن ناحية أخرى، فإنه سيضطر إلى السفر إلى العاصمة، وإلى اصطحاب "زينا" إلى الحفلات الراقصة، ولشد ما أخشى أن يقضي ذلك عليه! ولكن، لندْعُ الله يا عزيزي "بافيل"، وليفعل الله ما يريد.. اليك بركتي يا صديقي، وليكن لديك الأمل والصبر، وكُن رجلاً.. نعم، كُن رجلاً بصفة خاصة فانني لم أشك ابداً في نُبل عواطفك..

وشدت على يديه بقوة.. وخرج من الغرفة على أطراف أصابعه وقالت "ماريا" في نفسها: "واخيراً تخلصت من هذا الاحمق.. عليَّ الآن بالآخرين!".

وانفتح الباب ودخلت "زينا".. كانت شاحبة اكثر من المعتاد، ويلمع في عينيها بريق مميت..

قالت لوالدتها:

- أمّاه! انتهي بسرعة من عقد هذا الزواج فلم أعد أستطيع أن أحتمل.. ان كل هذا يثير اشمئزازي إلى حد يدفعني إلى التفكير في الهرب من هنا.. لا تجعليني أُقاسي أكثر من ذلك، ولا تثيريني.. فكل هذا الوحل يمزق قلبي.. هل تفهمينني؟

فتأملت "ماريا" ابنتها في إمعان وصاحت تقول:

- "زينا".. ماذا بك يا ملاكي؟ هل أنصتِ. من وراء الباب؟!

- نعم أنصت.. ولكنكِ لن تجعليني أخجل من ذلك كما فعلت مع هذا الغبي.. أُقسم أنك إن استمررت في أن تجعليني ألعب هذا الدور في هذه المهزلة المخجلة، فانني سأتخلى عن كل شيء وأضع حدّاً لكل شيء بكلمة واحدة.. انني لا شك قد قبلت الدناءة الكبرى، ولكنني كنت ادرك حقيقة موقفي، واني لاختنق الآن من الخجل!

واندفعت "زينا" خارجة من الغرفة، وصفقت الباب من خلقها..

وتابعتها والدتها بنظرها وهي تفكر قائلة: لنسرع! يجب علينا أن نسرع! فكل شيء يتوقف عليها، وهي أكبر خطر نواجهه.. وإن استمر كل هؤلاء

الاشقياء في الحيلولة بيننا وبين الأمير، وإن أذاعوا الشائعات حولنا، ضاع منا كل شيء. ولن نستطيع "زينا" أن تصمد أمام كل هذا المضايقات، فتنسحب منا برفضها الزواج من الأمير.. فينبغي إذن أن اتخذ اجراءً حاسماً على الفور مهما كبدني ذلك من جهد وعناء، ويجب أن اصطحب الأمير إلى الريف، عند زوجي.. ولكنني سأطير أنا أولاً إلى هناك وأعود مع زوجي الأبله إلى هنا، إذ ينبغي له أن يَصلُح لشيء ما، ثم نرحل معاً حينما يستيقظ الأمير..

ودقت الجرس فدخل أحد الخدم، وقالت له:

- حسناً.. هل الخيل معدة؟

فأجابها قائلاً:

- انها معدة يا سيدتي ومشدودة إلى العربة منذ وقت طويل.

(وكانت "ماريا" قد طلبت إعداد الخيل وهي ترافق الأمير إلى غرفة نومه).

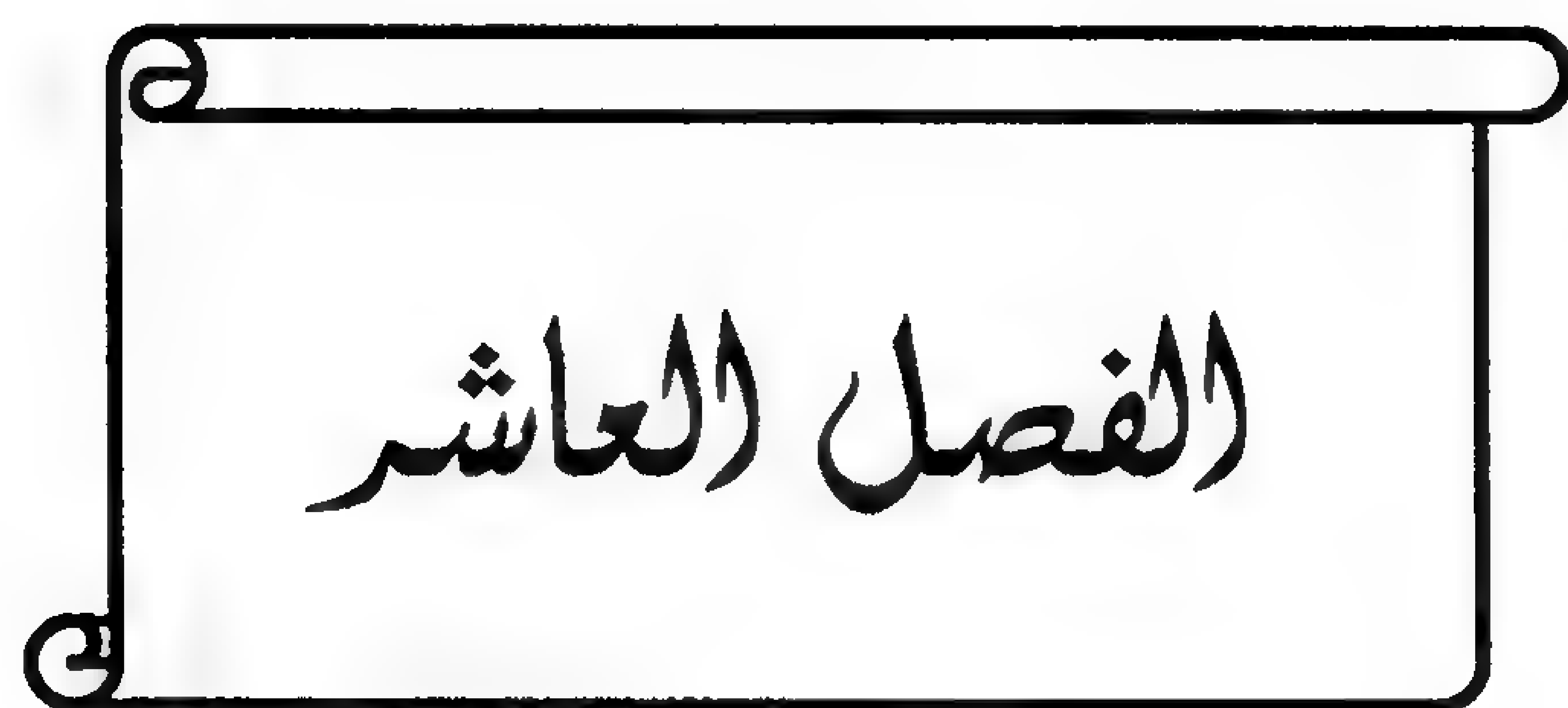
وارتدت ثيابها في عجل، ثم أسرعت إلى غرفة "زينا" لتطلعها على خطتها الأخيرة وتُلقي إليها ببعض معلوماتها، ولكن "زينا" كانت لا تريد أن تستمع إليها، إذ كانت مستلقية على سريرها ووجهها في وسادتها غارق في الدموع، وذراعاها عاريتين حتى مرفقيها، وكانت تعتريها بين لحظة واخرى رجفة تهز كيانها.. وأخذت أُمّها تحدثها ولكنها ظلت منكفئة على الوسادة لا ترفع رأسها إليها!

وألحت "ماريا" لحظة في حديثها، ولكنها ما لبثت ان خرجت وقد شاع في نفسها قلق شديد.. ثم يممت شطر الباب الخارجي فاستقلت عربتها

وأمرت الحوذي بأن يُلهب ظهور الجياد بسوطه كي تنطلق العربة بأكبر سرعة مستطاعة.

وما أن سارت العربة دقيقتين أو ثلاث حتى أخذت تفكر في نفسها قائلة: إن أسوأ ما في الأمر أن "زينا" سمعت حديثي مع "موجلياكوف" وأنني استعملت معها ومعه نفس الحجج والاساليب تقريباً! انها متعالية وتعتز بكرامتها، وربما تكون قد شعرت بالاهانة لهذا السبب. آه! يجب عليَّ أن أتصرف قبل أن يُنشر هذا الخبر في المدينة.. ويا لها من مصيبة كبرى لو أنني لم أجد زوجي الأبله في المنزل بالقرية!...."

وأثارت هذه الفكرة الغضب في نفس "ماريا"، وهو غضب كان ينذر زوجها "أفاناسي متيفتش" بشر مُستطير، وكانت "ماريا" بادية الاضطراب من جراء ما كانت تشعر به من القلق ونفاد الصبر، بينما كانت الخيل تنهب بها الأرض نهباً بكل ما تستطيع من قوة.


الفصل العاشر

الزوج المُبعد

كانت العربة تنطلق كالسهم المارق.. وقد سبق أن قلنا أنه قد نبتت في الصباح في رأس "ماريا" فكرة عبقرية بينما كانت تجوب شوارع موردا سوف باحثة عن الأمير. وكانت هذه الفكرة هي أن تستولي بدورها على الأمير ثم تصحبه إلى الريف بأسرع ما تستطيع، إلى تلك القرية التي يقيم بها زوجها الأحمق في هدوء. أكانت إذن على وشك أن تحقق هذه الفكرة؟ ولكن ينبغي ألا نُخفي عن القارئ أنها أخذت تشعر في قرارة نفسها بقلق مُتزايد لا مبرر له. ويحدث هذا كثيراً لعشاق المغامرات وخاصة في اللحظة التي يصلون فيها إلى هدفهم. وكانت غريزتها تنذرها بأن هناك خطراً محدقاً بها إن بقيت في مورداسوف، فقالت في نفسها: "إذا ما وصلت إلى القرية فلا يهمني بعد ذلك ان تنقلب مورداسوف رأساً على عقب".

ولا شك في أنه لم يكن لديها ـ حتى وهي في القرية ـ أي وقت تضيعه، فإن كل شيء يمكن أن يحدث، كل شيء.. ولهذا، كانت "ماريا" مصرة على عقد الزواج في الحال، فإن كل الخيوط الآن في يدها، وسيقوم القسيس بمراسم الزواج في بيتها بالقرية في اليوم التالي أو ربما بعد يوم واحد على اكثر تقدير. ولقد رأينا كثيراً من الزيجات الأُخرى تُعقد بسرعة في ساعتين.

أما عن الأمير، فستعرف كيف تُقنعه بأن يقبل هذا الاندفاع وعدم الاحتفال بزواجه كضرورة يمليها عليها المنطق السليم، وستقول له ان الأمر هكذا سيكون أكثر نُبلاً وأكثر لياقة بمركزه، وربما استطاعت أن تُقنعه أيضاً بما في هذا التصرف من رومنتيكية تنطوي على المغامرة، ومن ثم تلمس الوتر الحساس في قلبه.. وستُسكرهُ إذا لِزم الأمر وتجعله يظل مخموراً إلى أن يتم كل شيء. وإذا ما اعتبر بعض أقربائه في موسكو او بطرسبورج ان هذا الأمر فضيحة، فإن كثيرين سيرضون عن هذا الزواج.. ولكن هذا كله أولاً يرتبط بالمستقبل، وثانياً: كانت "ماريا" مقتنعة بأنه لا يحدث شيء في المجتمع الراقي إلا ويعتبره البعض فضيحة، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالزواج. ولكنها كانت تعتبر أن فضائح المجتمع الراقي لها لون خاص عظيم، كنوع مغامرات "مونت كريستو" و "مذكرات شيطان". وأخيراً، فإنه لن يكون على "زينا" إلا أن تظهر، ولن يكون أمامها إلا أن تعينها بنصائحها كي يُلقي الجميع السلاح في لحظة، إذ ليس هناك من بين هؤلاء الاميرات والكونتيسات مَن تستطيع ان تقاوم مهارة "ماريا المورداسوفية".. فهي خليقة بأن تتفوق عليهن جميعاً - وهن مجتمعات - فما بالك بكل واحدة منهنّ على انفراد!

وذهبت "ماريا" لإحضار زوجها "افاناسي" وقد امتلأت رأسها بهذه الأفكار، وكان "افاناسي" ضرورياً لها لتنفيذ خطتها.. فإن ظهور ربّ الأسرة، وهو رجل متقدم في السن، يرتدي "الفراك" وربطة العنق البيضاء وقبعته دائماً في يده ووصوله خصيصاً من أراضيه حينما يسمع أن الأمير

موجود في مورداسوف، كل ذلك خليق بأن يُحدث أثراً طيباً في نفس الشيخ القصير.

وأخيراً، وبعد أن التهمت العربة ثلاث كيلومترات، توقف الحوذي "سفرون" أمام بسطة درج يؤدي إلى باب مبنى قديم من الخشب مكون من طابق واحد، به صف طويل من النوافذ من حوله أشجار التليو العتيقة.. إنه مقر "ماريا" الصيفي.

كانت نوافذ البيت مُضاءة.

وصاحت "ماريا" قائلة وهي تهبط في الدهليز كأنها صاعقة:

- أين "خيال الظل" ـ تعني زوجها ـ ماذا تفعل هذه المنشفة هنا؟ آه! إنه كان متضايقاً وكان مرة أُخرى في الحمام! وأنه دائماً يشرب الشاي.. حسناً، لماذا تحملق بعينيك هكذا أيها الغبي المزمن؟ ولماذا لم تقص شعره يا جريشكا! يا جريشكا! يا جريشكا! لماذا لم تقص شعر السيد كما أمرتُك في الاسبوع الماضي؟

كانت "ماريا" تنوي ألا تكون عنيفة مع زوجها، ولكنها حين رأته لا يُبالي بشيء وهو يشرب الشاي بكل هدوء، لم تستطع أن تكبت غيظها، فكل تلك الهموم تشغلها وهو ينعم بكل هذا الهدوء، هذا الرجل العديم الفائدة!.. وصدمها هذا التناقض صدمة قاصية.

هذا بينما خيال الظل هذا ـ أو كما تُسميه زوجته هكذا ـ جالس لا يتحرك أمام إناء الشاي وفمه وعيناه مفتوحة ببلاهة وقد تجمد تقريباً لظهور

زوجته. وكان شبح الخادم "جريشكا" يظهر في الدهليز، وكان يغمز بعينيه وهو يتطلع إلى هذا المنظر.

وقال "جريشكا" بصوت مرح مبحوح:

- إنه لا يتركني أقص له شعرهُ، وقد أمسكت بالمقص عشر مرات على الأقل وقلت له: "سرعان ما ستأتي السيدة إلى هنا وانت تعرف ما ينتظرنا" ولكنه قال لي: "انتظر، فأنا أُريد أن أُجعد شعري يوم الأحد، ويجب أن يكون شعري طويلاً".

- كيف؟ انه يجعد شعره الآن! إنك إذن قد فكرت في أن تجعد شعرك أثناء غيابي يا "افاناسي".. ما هذه الأخلاق؟ اتعتقد ان هذا سيجعل سحنتك البلهاء جميلة؟ يا الهي! يا للفوضى التي تسود هنا.

واقتربت الزوجة أكثر فأكثر مهددة زوجها البريء المذعور، وصاحت قائلة:

- يا للرائحة الكريهة التي أشمها هنا! إنني أسألك أيها البائس عن مصدر هذه الرائحة الكريهة..

فتمتم الزوج وهو يلقي على رئيسة أركان حربه نظرة متوسلة مذعورة قائلاً:

- يا أ.. أ.. أمي الصغيرة.. يا.. أ..

فقالت له في حدة:

- كم من مرة حاولت فيها أن أدخل في رأسك ـ رأس الحمار هذه ـ

إنني لست أمك الصغيرة، وأي أم صغيرة أستطيع أن أكونها بالنسبة إليك أيها القزم؟ وكيف تجرؤ وتدعو هكذا سيدة نبيلة مكانها أرقى مجتمع إلى جوار إمعة مثلك؟

فاجاب معارضاً وهو يضع يديه على رأسه بشدة للدفاع عن نفسه.

- ولكنك بالرغم من ذلك يا "ماريا".. زوجتي أمام القانون، وأنا أُخاطبك كزوج!

- آه أيها اللوح!.. إننا لم نر أبداً مثلك.. زوجتك أمام القانون ما معنى كلمة زوجتك أمام القانون؟ هل هناك شخص في المجتمع الراقي يستعمل مثل هذا اللفظ "أمام القانون"؟ وكيف تجرؤ وتذكرني بأنني زوجتك بينما أفعل كل ما أستطع كي أنسى ذلك؟ ولماذا تغطي رأسك بيديك؟

انظر إلى شعرك هذا المبلول.. إنه لن يجف قبل ثلاث ساعات، فكيف اصطحبك وانت بهذا المنظر؟ وما العمل لأُخراجك من هنا بمظهر لائق؟

وأخذت تروح وتغدو بسرعة في الغرفة وهي تلوي يديها في عصبية بادية. حقاً إن "المصيبة" صغيرة ويمكن التغلب عليها.. ولكنها لا تستطيع ان تكبح جماح روح السيطرة لديها، ونفاذ صبرها عندما تصادف اي عائق. وهي في حاجة لأن تُشفي غليلها من "افاناسي".. ذلك لأن من يعتاد الطغيان يصبح الطغيان عنده ضرورة ملحة. ثم إن الجميع يعرفون أن تُعرض له لحظات غير متوقعة من الفظاظة، حينمايكون بعيداً في الكواليس..

إن "افاناسي" يرتعد كالأبله ويتعب عينيه وهو يتابع كل تطورات زوجته واخيراً، صاحت "ماريا" قائلة:

- هيا يا "جريشكا".. أحضر للسيد ما يلزمه بسرعة ليرتدي ملابسه "الفراك" والسروال، وربطة العنق البيضاء، والصديرية.. بسرعة.. وأين هي فرشاه شعره؟

قال "افاناسي" في توسل:

- ولكن.. يا أمي الصغيرة.. إنني خارج من الحمام وسأُصاب بالبرد.

فقالت له:

- كلا..

- ولكن رأسي مبتلة!

- سأدع الخادم يجفف لك رأسك.. هيا يا "جريشكا" أحضر فرشاة شعر السيد وصفف له شعره حتى يجف.. بشدة، بشدة أكثر، بشدة اكثر، نعم، هكذا تماماً..

اخذ الخادم الأمين "جريشكا" يدعك في عنف وسرعة شعر سيده بالفرشاة بعد ان امسك به من كتفه وطرحه على الأريكة كي يتمكن منه اكثر.. وكاد "افاناسي متيفتش" أن يبكي!

فقالت "ماريا" لزوجها في لهجة قاطعة:

- والآن، قف.. اجعله يقف يا "جريشكا" واعطني دهان الشعر.. ولكن، احن راسك أيها البائس.. احن رأسك إذن أيها الشره!

واخذت تدهن بيديها شعر زوجها الكثيف الأشيب وتشده بلا رحمة، وكان هذا الشعر طويلاً لسوء حظه إذ أنه لم يقصه.. وظل الزوج يئن ويتنهد ولكنه صمد للاختبار حتى النهاية!

وقالت زوجته:

- أيها البائس.. إنك أنت الذي ضيعت زهرة شبابي. ولكن، احن رأسك إذن اكثر.. احن رأسك.

فتمتم "افاناسي" قائلاً وهو مستلق على بطنه فوق الاريكة:

- كيف أضعتِ زهرة شبابك يا أمي الصغيرة؟

- يا "خيال الظل".. انك لم تفهم الاستعارة.. مشط شعرك الآن.. هيا يا "جريشكا".. عاونه على ارتداء ملابسه بسرعة.

جلست ماريا على أحد المقاعد الوثيرة وراحت ترقب زوجها وهو يرتدي ثيابه بعين محاكم التفتيش.. وبلع "افاناسي" ريقه. ولما وصل الأمر إلى ربطة عنقه، تجاسر وأبدى رأيه فيها. واخيراً، حينما ارتدت هذه الشخصية المحترمة بذلة "الفراك" عاودته كل ثقته بنفسه، وراح يتأمل صورته في المرآة في تقدير باد..

ثم قال وقد قطب وجهه:

- إلى أين تصطحبينني يا "ماريا الكسندرفنا"؟

ولم تصدق زوجته أذنيها في الحال، فقالت له:

- حسناً! حسناً! آه.. يا خيال الظل.. كيف تجرؤ وتسألني هذا السؤال؟

- يا أمي الصغيرة.. إنه لينبغي أن أعرف..

- صه! لا تدعني مرة بكلمة "يا أمي الصغيرة" وخاصة في المكان الذي سنذهب إليه وستبقى بلا شاي شهراً بأسره.

فذعر الزوج وأخلد إلى الصمت..

وقالت وهي تنظر في احتقار إلى "فراك" زوجها الخالي من اي وسام.

- إنني لم أرَ قط شخصاً مثلك.. فأنت لم تتمكن أبداً من الحصول على أي وسام.. أيها الإمعة.

واخيراً، جُرِح شعور "افاناسي"، فقال لها في غيظ:

- يا أمي الصغيرة.. إنني مُستشار ولستُ إمعة.

- ماذا؟ ماذا؟.. ولكنك تفكر الآن.. آه! ايها الشقي.. لشد ما آسف اذ ليس لدي متسع من الوقت لا تشاجر معك. ولكن.. حسناً! انني لن أنسَ ذلك..

هيا يا "جريشكا". أعطه قبعته ومعطفه، ثم رتب الغرف الثلاث المفتوحة بعد أن أرحل.. هيا! عليك بالمكنسة، ولا تنسَ أن تُنظف المرآة وساعات الحائط، وليكن كل شيء مُعداً في ظرف ساعة.. وارتدي أنت نفسك بذلتك "الفراك" ونبه جميع خدمي إلى لبس القفازات.. أتفهمني يا "جريشكا"؟ اتفهمني؟

واستقلا العربة، وكان الذهول بادياً على الزوج وكانت "ماريا" تحاول جاهدة ان تجعله يفهم ولا ينسى التعليمات الأساسية التي كانت تصدرها اليه، ولكنه قطع عليها تفكيرها إذ قال بعد فترة من الصمت.

- إنني رأيت في هذه الليلة حلماً غريباً جداً!..

- صه "يا خيال الظل".. كيف تجرؤ وتحدثني عن احلامك التافهة؟.. أنصت إليَّ، فإنني أقول لك ذلك لآخر مرة: إنك إن تجاسرت اليوم ولّمحت أقل تلميح إلى أحلامك وإلى أي شيء آخر مهما كان، فحينئذ.. فلست اعرف ما سأفعله بك.. أنصت جيداً: إن الأمير "ك".. موجود عندنا.. هل تذكر الأمير "ك"..؟

- أتذكره يا أمي الصغيرة.. أتذكره. ولكن، لماذا شرَّفنا بهذه الزيارة؟

- اصمت، فليس هذا من شأنك، بل إنك ستدعوه بغاية الرقة ـ وكـ"ربّ" البيت ـ إلى الحضور إلى بيتنا بالقرية، وسنرحل في هذا اليوم نفسه.. ولكنك إن نَطقت بكلمة واحدة اثناء السهرة أو غداً، أو حتى بعد غد.. أو طيلة العام، فسأعرف كيف يكون شأني معك.. لا تقل كلمة واحدة. هذا هو كل دورك.. أتفهمني؟

فأجاب "افاناسي" قائلاً في دهشة:

- ولكن.. إذا ما وجه إليَّ سؤال؟

- إنَّ هذا لا يهم.. فحينئذ، إلزم الصمت.

- ولكن المرء لا يستطيع مع ذلك أن يبقى صامتاً على الدوام!

- أجب حينئذ بحرف، أو.. بشيء ما لا معنى له، وذلك كي تُلقي في روع السائل أنك رجل خفيف الروح، وأنك تفكر قبل أن تُجيب.

- آه!..

- افهمني جيداً.. انك سمعت الناس يتحدثون عن الامير، فامتلأ قلبك بالسرور، وسرعان ما حضرت لتبرهن لهم على احترامك له وتدعوه إلى زيارتنا بالقرية.. هل تفهم؟

- آه!..

- فصاحت زوجته تقول في غضب:

- أيها الغبي! لا تقل "آه" مرة اخرى، بل أجبني..

فأجابها قائلاً في إذعان:

- حسناً يا أمي الصغيرة.. سيتم كل شيء كما تريدين.. ولكن فقط: لماذا ادعو هذا الأمير؟

- لماذا؟ لماذا؟.. انك تفكر الآن! هذا شيء لا يهمك.. وكيف تجرؤ على أن توجه إليَّ هذا السؤال؟

- ولكن.. كيف افعل لادعوه اذ كانت ينبغي الا اتكلم؟

- انني سأتكلم نيابة عنك.. اما انت، فعليك ان تحيي فقط وانت ممسك بقبعتك في يدك..

- انني أفهم يا صغ.. يا "ماريا الكسندرفنا"..

- ان الأمير كثير الفكاهة.. ومهما قال، وحتى ولو كان لا يوجه اليك الحديث، فرد على كل شيء بابتسامة ساذجة ومرحة.. هل تفهم؟!..

- آه!..

فصرخت "ماريا" قائلة وهي تلوح بيدها في وجهه:

- ها أنت ذا تقول "آه" مرة اخرى.. لا تقل "آه" معي، وإنما أجب فقط.. هل فهمت؟

- فهمت يا "ماريا".. فهمت تماماً.. وكيف لا أفهم؟

ولكنني أقول "آه" لأتمرن، وانت تريدين فقط أن انظر إلى الأمير ابتسم له. ولكن ماذا لو وجه إليَّ..

- يا لك من ثرثار! يا لك من غبي! اصمت.. اصمت.. الزم الصمت!

فقط انظر وابتسم..

- ولكنه سيعتقد أنني أبكم!..

- ليس هذا مصيبة كبيرة، فهو لن يعرف على الأقل أنك غبي أحمق.

- آه! وماذا لو وجه إليَّ شخص غيره سؤالاً؟

- لن يوجه إليك أحد سؤالاً، ولن يكون هناك أحد. ولو حدثت الكارثة ـ ليحمنا الله من ذلك ـ وحضرأحد وسُئلت عن أي شيء،

فأجب بابتسامة ساخرة.. أتعرف ما هي الابتسامة الساخرة؟

- إنها تكون مصحوبة بتقطيبة مرحة جداً.. أليس كذلك يا أمي الصغيرة؟

- إنني سأعلمك كيف تتفكه يا "خيال الظل"! هل سيطلب منك أحد أن تتفكه أيها الغبي؟.. اسمعني جيداً.. أريد ابتسامة ساخرة.. أتفهم؟ ساخرة وملؤها الاحتقار..

- آه!

فتمتمت زوجته قائلة بصبر نافذ:

- آه! لشد ما اخشى "خيال الظل" هذا! حقاً إنه أقسم أن يقضي على حياتي، وكان ينبغي ألا أُقحمه في هذه المسألة..

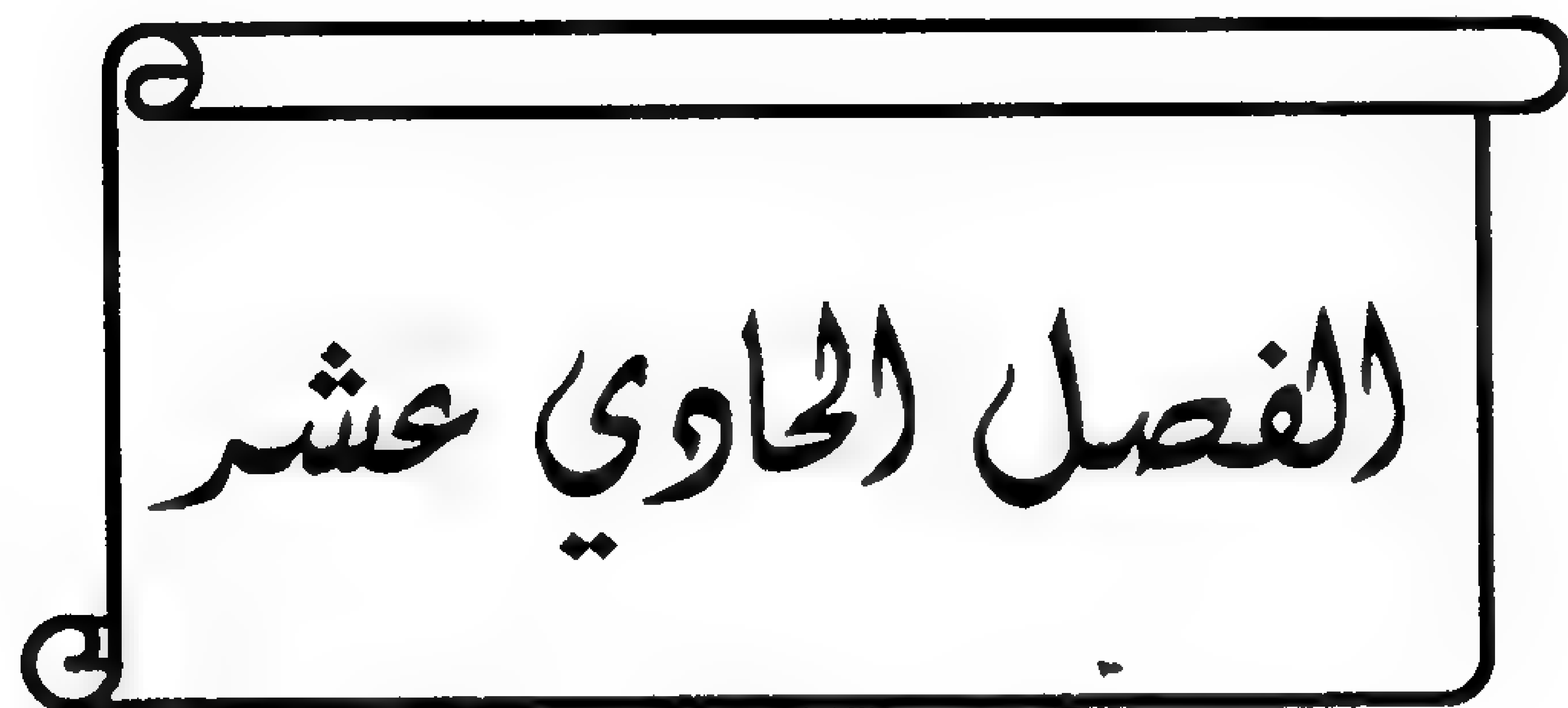
كانت "ماريا" لا تكف عن النظر من خلال نافذة العربة، وكانت تستحث الحوذي بين لحظة وأخرى على أن يُسرع وهي تفكر هذا التفكير. وكانت الخيل تطوي الارض طياً، ولكنها كانت تعتقد مع ذلك ان العربة تسير ببطء. وكان "افاناسي" قابعاً في ركنه وهو يكرر درسه عن ظهر قلب. واخيراً، وصلت العربة إلى بيت "ماريا" في موورداسوف.

وما كادت تبرح العربة وتصعد سلم بيتها حتى توقفت بالباب إلى جوار عربتها زحافة عليها مقعدان.. انها زحافة "انا نيقولايفنا". وكان بالزحافة سيدتان: "انا نيقولايفنا" نفسها، و "ناتالي ديمتريفنا" وهما صديقتان حديثتا الصداقة..

نظـرت "ماريـا" إلـيهن وغـاص قلبهـا في صـدرها . ومـا كـادت تهـم بـأن تصيح بكلمات الاستقبال المألوفة حتى وقفت ببابها عربة اخرى تحمـل إليهـا زائـرة ثالثـة . وسمعـت صـيحات مرحـة تقـول : "هـا هـي ذي "ماريـا" مـع "افاناسي" .. يا له من لقاء سار! لقد جئنا عندك لقضاء الـسهرة .. يـا لهـا مـن مفاجأة سعيدة!" .

وصـعدت الزائـرات سـلم البيـت وهـن يشقـشقن كالعـصافير . وكانـت "ماريـا" تتأملـهن في ذهـول وهـي تفكـر في نفـسها قائلـة : "لتنـشق الأرض وتبلعهن .. إن هذا يُشم منه رائحة المؤامرة! ولكـن ، إنكـنَّ لـستُنَّ شـديدات البأس يا صديقاتي الطيبات! .. انتظرن قليلاً!"

* * *



الفصل الحادي عشر

الحلم الجميل

كان "بافيل موجلياكوف" قد غادر بيت "ماريا" وهو يشعر بعزاء كبير، ولم يذهب إلى بيت شبينه "برودنيف" إذ كان في حاجة لأن يخلو إلى نفسه، وكان رأسه مملوءاً بالأحلام الرومانتيكية، فكان يستعرض في خياله تفاهمه المهيب مع "زينا"، وصفح أمّها الكريم، ومنظره الحزين وهو ينظر إلى "زينا" في مراقص بطرسبورج، وتجواله في اسبانيا والوادي الكبير والأمير على فراش الموت وهو يضع يد "زينا" في يد حبيبها.. والحب، حبه لسيدة في مثل هذا الجمال، انهزمت لفرط بطولته.. إنه سيتزوجها بعد أن تكون قد أصبحت أميرة من أرقى مجتمع في هذا العالم، وسيدخل المجتمع الراقي حتماً، ويحصل على منصب نائب حاكم، وعلى المال الكثير.. وباختصار: كان يتخيل كل الوصف البليغ الذي قدّمته له "ماريا الكسندرفنا"..

وفجأة، لاحظ الشاب أنه قد بلغ في سيره مكاناً بعيداً جداً في ضواحي مورداسوف. وكان الليل قد أرخى سدوله، فوجد نفسه في شوارع تحف بها بيوت حقيرة حيث ينبح عدد لا حصر له من الكلاب، كما يحدث عادة في مدن الاقاليم، وفي ضواحيها وخاصة في تلك الأحياء التي ليس فيها شيء يُحرس أو يُسرق. وكان الجليد قد بدأ يذوب. ومن حين لآخر، كان "موجلياكوف" يلتقي بسكير عاد متأخراً، او خادم ترتدي الشال وتنتعل حذاء طويل الرقبة...

وبدأ هذا كله يثير أعصاب "موجلياكوف".. وهذا نذير سوء.. ذلك لان المرء حين يكون في حالة مرح يرى كل شيء جميلاً.. وتذكر في غيظ انه حتى اليوم كان هو مثلاً يَحتذيه الناس في مورداسوف من حيث "الموضة"، وكان يستقبل في كل مكان كشاب له مركز محترم تتمنى كل أسرة أن تصاهره، وكان ذلك يملأ نفسه بالكبرياء.

ولكن، ها هم أولاء سيعرفون بعد قليل أنه قد هُزم، وسيسخر الناس منه في كل مكان. ومع ذلك، فلن يعرف كل إنسان سر حفلات بطرسبورج الراقصة والعمود الحزين الذي سيستند إليه وهو في الوادي الكبير!

كان "موجلياكوف" حالماً حزيناً حينما راودته الفكرة التالية التي أدمت قلبه: (ولكن هل كل هذا صحيح؟ وهل سيحدث كل شيء كما وصفته لي "ماريا الكسندرفنا"؟) وفي تلك اللحظة، تذكر ان "ماريا" سيدة ماكرة جداً، وأنها ناقلة أخبار رهيبة، وتكذب طيلة النهار على الرغم من أنها تتمتع باحترام الجميع، وأن من الممكن أن تكون لديها أسباب خاصة دفعتها إلى إبعاده، وأنها اخيراً لم ترتبط معه بأي شيء في كل ما قالته وصورته له..

وفكر في "زينا" فتذكر نظرة الوداع التي ألقتها عليه، وهي نظرة لا تتفق بحال مع حبها الجنوني له، كما تذكّر ان "زينا" قبل ذلك بساعة قد وصفته بأنه غبي! فتوقف فجأة عند هذه الذكرى الاخيرة وقد تسمر في مكانه واحمر وجهه من شدة الغيظ، وسرعان ما امتلأت عيناه بالدموع.

وحدث له بعد ذلك بقليل حادث كريه كأنه قد وقع عمداً، فقد انزلق ووقع على كومة من الجليد. وبينما كان يتخبط في الجليد، هرعت إليه من

كل مكان مجموعة من الكلاب كانت تنبح منذ بعض الوقت. وتعلق واحد منها ـ وكان اصغر هذه الكلاب وأكثرها إقداماً ـ بذيل معطفه، فخلص "بافيل" نفسه منه وهو يلعنه ويلعن في الوقت ذاته مصير نفسه، وجر ساقيه وذيل معطفه الممزق، واخذ يسير حتى بلغ ناصية الشارع وقد امتلأت نفسه بغم شديد!

وهنا لاحظ أنه قد ضل الطريق.. وإننا لنعرف ان الرجل الذي يضل طريقه في حي لا يعرفه وخاصة في الليل لا يقرر أبداً أن يسير قدماً إلى الامام في الشارع الرئيسي، إذ أن هناك قوة خفيفة تدفعه على الرغم منه إلى كل الأزقة التي يصادفها. ولم يخرج "بافيل" عن هذه القاعدة، ففضل طريقه تماماً. وصاح قائلاً وهو يبصق على الارض في اشئزاز: "ليحمل الشيطان كل هذا الخيال! ليحمل الشيطان العواطف السامية والوادي الكبير!"

ولسنا نزعم ان منظره كان ساحراً في تلك اللحظة، فقد كان مرهقاً بادي التعب.. وبعد ان ظل يضرب على غير هدى اكثر من ساعتين وصل إلى باب منزل "ماريا"، فأدهشه أن يرى كل هذا العدد الهائل من العربات بالباب، ففكر في نفسه: "أن لديها كثيراً من الزوار، فهل اقامت حفلاً؟ ولأي غرض؟"

وعلم من أحد الخدم أن "ماريا" احضرت "افاناسي" من الريف وهو يرتدي ربطة عنقه البيضاء، وان الأمير قد استيقظ ولكنه لم ينزل بعد.. فصعد "بافيل" الدرج دون ان ينطق بكلمة واحدة وهو في تلك الحالة النفسية

التي يكون فيها الرجال ذو طابع الضعيف حينما يصمم على اكثر الافكار شراً بدافع من الانتقام ودون ان يفكر في انه قد يندم على ذلك طيلة حياته.

صعد "بافيل" إذن ولمح الأمير جالساً يتزين امام مائدة زينته "المتنقلة" وكانت جمجمته عارية من الشعر، ولكنه كان قد دهن خديه بالمساحيق وثبت على صدغيه السوالف.. وكانت "باروكته" في يد خادمه الخاص العجوز "ايفان باخومتش" الذي كان يمشطها باحترام بالغ واهتمام عظيم. وكان منظر الأمير يدعو حقاً إلى الرثاء، اذ لم يكن قد افاق بعد من الخمر، فكان مستلقياً في مقعده بخمول وجفناه يطرفان وتجاعيده بادية، واخذ ينظر إلى "موجلياكوف" وكأنه لا يعرفه.. فقال له:

- كيف صحتك يا عمي الصغير؟..

فأجابه العم بقوله:

- كيف صحتي؟ آه؟ أنت! إنني يا أخي قد نمت وقتاً قصيراً..

وانقضت لحظة صمت قصيرة.. وفجأة، صاح الأمير قائلاً في حماس:

- آه! يا الهي! ولكنني بلا "باروكة"!

فأجابه "موجلياكوف" في لهجة مطمئنة:

- لا تنزعج يا عمي الصغير.. سأعاونك ان اردت ذلك..

- آه! ها أنت ذا تعرف سري! ولكني قلت انه يجب ان يق.. يق.. يقفلوا الباب!.. حسناً يا صديقي.. انك ستعطيني ت.. ت.. تواً كلمة شرف بأنك لن تبوح بسري لأي شخص أن شعري مستعار!

فصاح "موجلياكوف" قائلاً وهو يريد أن يروق في نظر الامير :

- آه! هيا يا عمي الصغير.. أتعتقد انني قادر على ان افعل مثل هذا العمل الدنيء؟

- بالطبع.. بالطبع.. ربما انني ارى انك نبيل، حسناً.. ليكن، انني سأد.. أد.. ادهشك، وسأكشف لك عن كل اسراري كيف تجد شا..ا.. شاربي يا عزيزي؟

- انه مدهش يا عمي.. مدهش.. فكيف استطعت ان تحتفظ بهذا الشارب الجميل كل هذا الوقت الطويل؟

فقال وهو ينظر إلى "موجلياكوف" نظرة انتصار :

- اطمئن يا صديقي، فهو شارب مستعار..

- مستعار! ان هذا امر لا يصدق.. حسناً.. والسوالف؟ اعترف يا عمي الصغير بأنك تصبغها باللون الاسود.

- انني لا اصبغها فقط باللون الاسود ، بل هي مستعارة تماماً!

- مستعارة! كلا يا عمي الصغير.. انك تسخر مني.. انني لا اصدقك!

فصاح الأمير قائلاً في كبرياء :

- اقسم بشرفي يا صديقي.. .. وتصور ان الجميع.. الجميع بلا استثناء قد ا..ا.. اخطأوا مثلك بشأن سوالفي، وحتى "ستيبانيدا" نفسها لا تصدق ذلك، بالرغم من انها هي التي تلصق لي هذه

السوالف.. ولكنني واثق يا صديقي من انك ستحتفظ بسري.. اعطني كلمة شرف..

- لقد اعطيتك كلمة الشرف يا عمي الصغير. ولكن، اكرر لك قولي مرة اخرى: هل تعتقد انني قادر على ارتكاب مثل هذا العمل الدنيء؟

- آه! يا صديقي.. انني انقلبت بالعربة! آه لو عرفت! لقد قلب الحوذي العربة وانا فيها..

- هل قلب بك العربة مرة اخرى؟ ولكن متى؟

- ولكن.. لقد حدث ذلك حينما كنا ن.. ن.. نقترب من الدير..

فقال له "موجلياكوف" في دهشة:

- انني اعرف ذلك من قبل يا عمي الصغير!

- كلا، كلا.. لقد حدث ذلك منذ ساعتين فقط، فقد ذ.. ذ.. ذهبت إلى الدير. واخذني هذا الحوذي وقلب العربة وانا فيها.. آه! لشد ما جعلني ا.. ا.. اشعر بالخوف!.. ولا يزال قلبي يدق من ش.. ش.. شدة الخوف!

فقال له "موجلياكوف" وقد ازدادت دهشته:

- ولكنك كنت نائماً يا عمي الصغير!

فتلعثم الأمير قائلاً في ارتباك:

- بالطبع.. انني كنت نائماً.. ثم ركبت العربة بعد ذلك.. ومن جهة

اخرى، انني.. ومن جهة.ا .ا ..ا اخرى وربما كان ذلك.. آه! ان ما ح..ح.. حدث لي شيء عجيب لي شيئاً عجيب حقاً!..

- اؤكد لك يا عمي الصغير انك كنت تحلم.. انك كنت نائماً بعد العشاء نوماً هادئاً جداً!..

فقال الأمير وهو شارد تماماً:

- حقاً؟!..

وظل الأمير حالماً..

وساد الصمت لحظة، ثم قال الأمير وهو يحدث نفسه:

- بالطبع.. حقاً.. ربما انني كنت احلم. ومن جهة اخرى، فانني اتذكر حلمي كله. فقد حلمت اولاً بثور ر..ر.. رهيب له قرون مرعبة.. ثم حلمت بعد ذلك بالمحضر..

فقاطعه "موجلياكوف" قائلاً:

- ربما كان هذا المحضر يشبه "نيقولاي انتيبوف" يا عمي الصغير!..

فقال الأمير مؤمناً:

- بالطبع.. انه يشبهه ت..ت.. تماماً. ثم رأيت ايضاً نا..نا.. نابليون بو..بو.. بونابرت في الحلم اتعرف يا صديقي ان الجميع يقولون انني ا..ا.. اشبه نابليون؟.. ويبدو ان و..و.. وجهي يشبه وجه بابا من البابوات.. فما رأيك!..ا.. انت؟ هل ابدو ح.. ح.. حقاً كأنني بابا؟

- بل انك تشبه نابليون بونابرت.

فقال الأمير في سذاجة وسرور:

- بالطبع!.. بالطبع! وفوق هذا، فانني اعتقد ذلك ايضاً يا ع.. ع.. عزيزي.. وقد رأيت نابليون في الحلم وهو جالس في ج.. ج.. جزيرته؟ هل تعرف ذلك؟ انه كان ثرثاراً ومرحاً وممتلئاً ن.. ن.. نشاطاً! وقد سلاني كثيراً!

فقال "بافيل" وهو ينظر فجأة إلى الأمير في اهتمام بالغ:

- هل تتحدث عن نابليون يا عمي الصغير؟

كانت فكرة عجيبة للغاية قد بدأت تنبت في رأس "بافيل" وتتجسم فيه.

وقال الأمير رداً على سؤال "موجلياكوف":

- بالطبع! بالطبع! نا.. نا.. نابليون. وقد تحدثنا معاً في الفلسفة والمنطق.. اتعرف ذلك؟.. ولشد ما آ.. آ.. آسف لان الإنجليز قد تصرفوا معه هذا التصرف! حقاً.. لو انهم كانوا لم يسجنوه ل.. ل.. لكان لا يزال يهاجم الناس! هذا الرجل المسعور ولكن ما ف.. ف.. فعله الانجليز معه ا.. ا.. امر يؤسف له مع ذلك، فانني ما كنت لاتصرف م.. م.. معه على هذا النحو، بل كنت ا.. ا.. اضعه في جزيرة جرداء!

فسأله "موجلياكوف" قائلاً وهو شارد الذهن تماماً:

- ولماذا جرداء ايها العم؟

- بالطبع انها ليست جرداء، بل يسكنها ا..ا.. اناس عقلاء.. وكنت أُهيء له كل و.. و.. وسائل التسلية: المسرح.. والموسيقى.. والبالية على ن.. ن.. نفقة الدولة، وكنت ا..ا.. اجعله يتنزه وانا اراقبه مثلاً، انه كان سيهرب.. وهو يحب بعض ا..ا.. اصناف الحلوى.. حسناً..، فانني كنت اصنع له هذه الحلوى ك.. ك.. كل يوم.. وكنت أُعنى به ع.. ع.. عناية الاب بابنه.. وكان وهو معي خ.. خ.. خليقاً بأن يندم على كل ما فعل..

كان "موجلياكوف" ينصت آلياً إلى ثرثرة الشيخ وهو يقرض اظافره بأسنانه من فرط نفاد صبره، اذ كان يريد ان يحول مجرى الحديث بحيث يدور عن الزواج، وكان هو نفسه لا يعرف سبب ذلك.. ولكن كان هناك شر دنيء يغلي في قلبه!

وفجأة صاح الشيخ قائلاً وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة:

- آه! يا صديقي! ولكنني نسيت ان أقول لك ذلك!.. ت.. ت.. تصور انني طلبت اليوم يد الفتاة للزواج!

فصاح "موجلياكوف" قائلاً وقد اشتعل حماسة فجأة:

- طلبت اليوم يد الفتاة للزواج يا عمي الصغير!

- بالطبع.. طلبتها يا "بافيل".. لماذا تريد ان ت.. ت.. ترحل بسرعة؟ حسناً.. انها فتاة سا.. سا.. ساحرة.. ولكني اعترف لك

يا صديقي بأنني لالا ..ا.. اعرف على التحديد متى فعلت ذلك.. الا يكون هذا ح..ح.. حلماً ايضاً؟ آه! ان هذا شيء غ..غ.. غريب حقاً!

وانتفض "موجلياكوف" من شدة الفرح، اذ اضاءت ذهنه فكرة رائعة، فكرر سؤاله قائلاً وقد تضاعف نفاذ صبره:

- ولكن.. ممن طلبت يد هذه الفتاة؟ ومتى طلبت يدها؟

فأجابه الأمير قائلاً في ارتباك:

- لقد طلبت يد اب..اب.. ابنة صاحب هذا البيت يا صديقي. انها هذه الفتاة الرائعة الجمال.. ومن ناحية اخرى، فقد ن..ن..نسيت اسمها. ولكن، يا صديقي.. ان من المستحيل علي ان ا..اتزوج. فما العمل؟

فصاح "موجلياكوف" مؤكداً في لهجة حاسمة:

- ولكن، لا شك في ان هذا الزواج سيقودك إلى حتفك! ولكن، اسمح لي بأن اوجه اليك سؤالاً: هل أنت واثق من انك طلبت يد هذه الفتاة؟

- بالطبع! اني واثق من ذلك..

- وماذا لو كان ذلك حلماً، تماماً كانقلاب العربة بك مرة ثانية؟

- آه! يا الهي! حقاً، ر..ر..ربما حدث لي ذلك اثناء الحلم.. ولكنني لا

اعرف الآن كيف.. ا.. اريهم وجهي! كيف أستطيع يا صديقي ان اتأكد من ان هذا قد ح.. ح.. حدث مني فعلاً؟ ان اتأكد منهم د.. د.. دون ان يلاحظوا هم ذلك.. اريد ان ا.. ا.. اعرف ما إذا كنت قد طلبت يد ابنتهم؟

فقال له "موجلياكوف" بلهجة المقتنع:

- اتعرف يا عمي الصغير.. انني اعتقد انه ليس من المفيد ان نجس نبضهم فيما اذا كان هذا قد حدث.

- ولماذا؟..

- لانني واثق تماماً من ان كل ذلك قد حدث لك وانت تحلم.

فقال الأمير وقد بدا عليه الاقتناع:

- واعتقد أنا ذلك ايضاً يا ع.. ع.. عزيزي، خاصة وانني كثيراً ما ارى مثل هذه الاحلام.

- ها أنت ذا ترى تماماً انني على حق..تصور إذن يا عمي الصغير انك شربت بعض الخمر اثناء طعام الغداء، ثم اعدت الكرة حين تناولت العشاء.. واخيراً..

فقاطعه الأمير قائلاً:

- بالطبع يا صديقي.. بالطبع! ه.. ه.. هذه هي الحقيقة وربما كان ذلك هو السبب.

- ومن جهة اخرى، ايها العم الصغير، فانك مهما كنت موفور النشاط، فانك لا تستطيع ابداً ان تفعل مثل هذا العمل الجنوني، وانت ـ كما اعرفك ـ رجل عاقل ومتزن..

- بالطبع.. بالطبع..

- فكر إذن يا عمي الصغير.. ماذا لو علم بذلك احد من اقاربك الذين يضمرون لك السوء؟.. ماذا سيحدث حينئذ؟

وصاح الأمير قائلاً وقد تملكه الذعر:

- آه! يا الهي! ما.. ما.. ماذا سيحدث حينئذ؟

- ها أنت ذا ترى يا عمي الصغير! انهم سيصيحون جميعاً بملء افواههم قائلين انك مجنون ويجب ان تُفرض الوصاية عليك، وانك قد كنت ضحية الخداع والتغرير، وسيضعونك حينئذ في مكان ما تحت حراسة مشددة!

وكان "بافيل" يعرف تماماً ان هذه الحجة الاخيرة ستثير الذعر حتماً في قلب الامير.. فصاح الأمير قائلاً وهو يرتجف من الخوف:

- آه! يا الهي! انهم سيضعونني في م.. م.. مستشفى الامراض العقلية!.. نعم، انني اعرف ذلك!

فقال "موجلياكوف" وقد شعر بأنه يقترب من الهدف:

- فكر جيداً إذن ايها العم.. فهل يمكن ان تكون حقاً قد فعلت هذا العمل الجنوني؟.. وفوق هذا، فأنت تعرف تماماً صالح نفسك!.. اؤكد لك ان هذا كان حلماً! مجرد حلم!

فأجابه الأمير قائلاً في اقتناع:

- لا شك في انه كا.. كا.. كان حلماً تماماً! انك ف.. ف.. فهمت ما

حدث جيداً يا عزيزي! وانني اعترف لك بالجميل في ا..ا.. اخلاصك لانك جعلتني انصت إلى ص.. ص.. صوت العقل.

فقال "موجلياكوف" وهو يبتسم!

- وانني مسرور للغاية يا عمي الصغير لأنني التقيت بك، فانك بدوني ربما اعتقدت انك خاطب وسلكت سلوك طلاب الزواج!.. انظر إلى الخطر الذي كان يتهددك!

- بالطبع! بالطبع! واي خطر!

- تذكر إذن ان هذه الفتاة في الثالثة والعشرين من عمرها، ولا يريد أحد أن يتزوجها. وفجأة تطلب يدها أنت ايها الغني النبيل! انهم سيتلقفونك بالطبع، وسيؤكدون لك أنك قد خطبتها، وسيجعلونك تتزوجها. وحينئذ، سينتظرون موتك بصبر نافذ.

فقال الأمير مذعوراً:

- حقاً؟!..

- واخيراً أيها العم.. هل يليق برجل في مثل مركزك..

- نعم.. مركزي..

- وفي ذكائك وظرفك..

فقاطعه الأمير مردداً:

- بالطبع.. ذ.. ذ.. ذكائي وظرفي.

- واخيراً، فانت امير.. فهل هذه زوجة تصلح لك اذا كنت حقاً تريد ان تتزوج لسبب اولآخر؟ فكر فيما سيقوله اقاربك.

- انهم سيأكلونني ح.. ح.. حيا! ولشد ما لحقني منهم من ا.. ا.. اذى وقسوة! تصور! انني اشك في انهم يريدون ان يضعوني في م.. م.. مستشفى الامراض العقلية! تصور.. هل هذا م.. م.. معقول؟ ماذا ا.. ا.. افعل في مستشفى الامراض العقلية؟

فقال له "موجلياكوف" مطمئناً:

- الحق معك يا عمي الصغير. ولهذا، فانني سأكون معك، ولن افارقك حيثما تنزل.. إن لديهم ضيوفاً..

فقاطعه الأمير قائلاً وقد استولى عليه الذعر:

- آه! لشد ما اعترف لك بالجميل! يا عزيزي "بافيل"! يا م.. م.. منقذي من الهلاك!.. ولكن هل تعرف؟ انني ا.. ا.. افضل أن أرحل..

- سنرحل غداً ايها العم الصغير، غداً في الساعة السابعة صباحاً.. والآن، استأذن منهم ومن الجميع وقل إنك راحل.

- بالتأكيد إنني راحل! ب.. ب.. بكل تأكيد! وسأذهب عند الراهب ميسائيل.. ولكن، يا صديقي.. ما.. ما.. ماذا لو تزوجتني على الرغم مني؟

فأجابه "موجلياكوف" بلهجة مطمئنة:

- لا تنزعج يا عمي الصغير.. انني سأكون معك. ومهما قالوا لك،

اجب دائماً بأن ذلك حدث لك في الحلم.. وفوق هذا، فهذه هي الحقيقة.

- بالطبع.. في الحلم.. ولكن ف.. ف.. فقط، اتعرف يا صديقي ا.. ا.. انه حلم لذيذ؟ انها مدهشة را.. را.. رائعة الجمال!

- حسناً إلى اللقاء يا عمي الصغير.. انني نازل، وانت؟

فوقف الأمير مذعوراً وهو يقول:

- كيف؟ هل تتركني؟..

- كلا.. ولكننا فقط لن ننزل معاً، بل سأنزل أنا اولاً ثم تتبعني انت، فسيكون هذا افضل.

- سيكون هذا ا.. ا.. افضل. ويجب علي قبل ان انزل ان أدون ف.. ف.. فكرة عظيمة.

- حسناً يا عمي الصغير.. دوِّن فكرتكَ، ثم انزل بسرعة. وغداً.. فقاطعه الأمير قائلاً في شرود:

- غداً سأكون عند الراهب مي.. مي.. ميسائيل.. عند الراهب ميسائيل.. إنها مد.. .. مدهشة! اتعرف يا صديقي انها سا.. سا.. ساحرة؟ يا له من جسم! يا له من ج.. ج.. جمال!.. ان كان يجب ان ا.. ا.. اتزوج حتماً، فانني حينئذ..

- ليحفظك الله من ذلك ايها العم!

- بالطبع.. بالطبع.. ليحفظني الله.. حسناً! إلى اللقاء يا ع.. ع..

عزيزي.. سأنزل حالاً بعدك.. ولكنني ف.. ف.. فقط سأدون هذه الفكرة.. وبهذه المناسبة، كنت ا.. ا.. اريد ان اسألك عما اذا كنت قد ق.. ق.. قرأت "مذكرات كازانوفا"

- نعم.. قرأتها يا عمي الصغير.. لماذا؟
- بالطبع.. لماذا؟ كلا!.. لقد ن.. ن.. نسيت ما كنت اريد ان ا.. ا.. ا.. أقول لك!
- انك ستتذكر ذلك فيما بعد ايها العم.. إلى اللقاء!
- الى اللقاء يا صديقي.. إلى اللقاء!.. و.. و.. ولكنه مع ذلك حلم لذيذ!.. ح.. ح.. حلم لذيذ!

الفصل الثاني عشر

صاحت "انا نيقولايفنا" قائلة وهي تدخل الصالون تفحص كل ما حولها بنظرة كلها فضول:

- لقد حضرنا جميعاً عندكم! جميعاً! وكانت "لويزا كارلوفنا" ايضاً تريد ان تحضر..

إن "انا نيقولايفنا" هذه سيدة جميلة قصيرة القامة، ترتدي ثياباً غالية ولكنها ذات الوان صارخة، وهي تعرف تماماً انها جميلة. وكان يبدو لها ان الأمير لا بد ان يكون مختبئاً في مكان ما مع "زينا" في احد الاركان..

وعقبت "ناتاليا ديمتريفنا" قائلة، وهي سيدة ذات قامة فارعة ضخمة انقص الصوم وزنها إلى حد كبير:

- وستأتي ايضاً "كاترينا بتروفنا".. وتنوي "فيليسينا ميخايلفنا" ان تحضر كذلك..

وكانت "ناتاليا" ترتدي قبعة صغيرة جداً وردية اللون تمسك بقفاها. وكانت من ثلاثة اسابيع احسن صديقات "انا نيقولايفنا" التي كانت تنشد صداقتها منذ وقت بعيد.

قالت "ماريا" وقد افاقت من صدمتها :

- انني لن اذكر لكنَّ السرور الذي يملأ نفسي لرؤيتكما معاً عندي في هذه السهرة.. ولكن، قولا لي : اية مصادفة سعيدة جعلتكما تحضران، فاني كنت يائسة من الحصول على هذا الشرف؟

فقالت "ناتاليا" في صوت حاد وهي تصطنع ظرفاً كان يتناقض تماماً مع مظهرها الجاف :

- آه! يا الهي! يا "ماريا الكسندرفنا" ما ألطفك!

وقالت "انا نيقولايفنا" في صياح كصياح الدجاجة :

- يا سيدتي الغالية، لقد كان علينا ان ننتهي من اعداد هذا المسرح.. وحتى اليوم، كان "بيتر ميخايلوفتش" يقول لـ"كاليست ستانزلافتش" إنه يشعر باليأس لأن الإعداد للمسرح لا يسير قُدماً إلى الامام، واننا نتشاجر معاً . فلما تصادف ان اجتمعنا نحن الاربعة قلنا : ماذا لو ذهبنا عند "ماريا الكسندرفنا" لنفرغ من هذه المهمة؟" واخبرت "ناتاليا" السيدات الاخريات، ولن يلبث الجميع ان يحضرون.. وهكذا نستطيع ان نتفاهم ونتفق بشأن هذا الاعداد، وسيسير كل شيء على ما يرام.

وصمتت "انا نيقولايفنا" لحظة لتلتقط انفاسها، ثم اضافت تقول بعد ان قبلت "ماريا"

- يجب الا يقول الناس عنا اننا لا نعرف الا ان نتشاجر، اليس كذلك يا ملاكي؟..

ثم وجهت الحديث إلى "زينا" قائلة:

- آه! يا الهي! "زينا" الغالية.. انك تزدادين جمالاً كل يوم! واندفعت "انا نيقولايفنا" نحو "زينا" لتقبلها!..

وقالت "ناتاليا" في ظرف متكلف وهي تفرك يديها الضخمتين.

- ولكن الانسة ليس لديها ما تفعله الا ان تزداد جمالاً في كل يوم!

وتمتمت "ماريا" قائلة في نفسها وهي تكاد تنفجر من شدة الغيظ:

- "ليحمل الشيطان هذه الببغاوات! انهن اصبحن حقاً ماهرات!"

وقالت"انا نيقولايفنا":

- خاصة يا ملاكي وان الأمير العزيزي عندكم الآن. انك تعرفين تماماً ان سكان دوخانوفو، قرية الامير، يهتمون بالمسرح على الدوام. وقد استقينا المعلومات فعرفنا ان هناك مخزناً مملوءاً بديكورات المسرح القديم وبه ستارة بل وبعض الملابس.

وقد جاء الأمير عندي اليوم، ولكنني كنت مندهشة تماماً لهذه الزيارة إلى حد جعلني انسى ان احدثه في هذا الموضوع ـ ولكننا سنتحدث معه الآن في هذا الشأن ونرجوا ان تعاونينا كي يصدر الأمير الأمر بأن يرسلوا لنا كل هذه الادوات المسرحية القديمة. ذلك انه ليس هناك في مدينتنا مَن نستطيع ان نطلب منه ان يعد ديكوراً لمسرحنا او حتى ما يشبه الديكور.. ونحن نريد من ناحية اخرى ان يشارك الأمير بنفسه في مشروعنا هذا، ومن واجبنا ان ندعوه إلى الاسهام في هذا العمل؛ فهو في سبيل الفقراء.. بل

وربما تنازل الأمير وقبل ايضاً ان يأخذ دوراً من الادوار، فهو لطيف ومسالم للغاية! وسوف يسير كل شيء على ما يرام.

وقالت "ناتاليا" وهي تعي تماماً معنى كل كلمة تقولها، بل وتهدف إلى هذا المعنى:

- لا شك في ان الأمير سيلعب دوراً من الادوار! وان المرء ليستطيع من ناحية اخرى ان يجعله يلعب اي دور يريد!

لم تكن "انا نيقولايفنا" قد خدعت "ماريا" حين قالت لها ان كل السيدات الاخريات لن يلبثن ان يحضرن، اذ كانت السيدات تصلن بلا انقطاع، فلا تكاد "ماريا" تستقبل وفدا وترحب به الترحيب الذي يحتمه عليها العُرف وتقتضيه آداب المجاملة حتى يصل وفد آخر!

ولن نأخذ على عاتقنا ان نصف جميع هؤلاء الزائرات، ولكننا نقول فقط ان كل واحدة منهن كانت تُلقي على سيدة البيت نظرة تفيض بالمكر والغدر، وان تعبير وجهها كان ينطق بالفضول النهم. وكانت بعض الزائرات قد جئن إلى بيت "ماريا" وفي قلوبهم امل يكاد يكون مؤكداً في ان يشهدن فضيحة كبيرة على نحو ما، وكنَّ خليقات بأن يشعرنَّ بخيبة امل شديدة اذا لم يحدث ما جئن من اجله!.. وكان مظهرهن جميعاً يدل على الرقة والظرف، ولكن "ماريا" كانت متأهبة للنضال.. وانهال عليها من كل جانب سيل من الاسئلة بشأن الامير، وهي اسئلة كانت تبدو طبيعية ولكنها ذات مغزى خفي.

وقدَّم الشاي.. وجلست الزائرات في جماعات متفاوتة العدد. وأحاطت إحدى هذه الجماعات بـ"زينا" وألَّحت عليها في أن تعزف لهن شيئاً من

الموسيقى او ان تسمعهن اغنية من الاغنيات، فقالت لهنَّ "زينا" في جفاء انها تشعر بالتعب، وكان شحوب وجهها يدل حقاً على صحة هذا الادعاء. وسرعان ما انهالت عليها الاسئلة من كل جانب، وهي اسئلة كانت تنطوي على تلميحات معينة على الرغم من ان ظاهرها كان يحمل معنى الدعابة والاستلطاف، كما انها سُئلت كذلك عن اخبار "موجلياكوف".

وكانت "ماريا" موجودة في كل مكان: فكانت في نفس الوقت في اركان الصالون، وتحرص على الا يفوتها شيء مما كانت تقوله الزائرات، على الرغم من ان عددهن كان يربو على العشرة، وكانت تجيب على كل سؤال دون حاجة إلى ان تبذل جهداً في البحث عن الحجج او اقامة الدليل.. وكانت ترتجف خاصة من اجل "زينا" وتشعر بالدهشة من انها لم تلمع على عادتها في مثل هذه المناسبات.

ولاحظت الزائرات كذلك وجود "افاناسي"، وكُنَّ عادة يسخرن منه ليجرحن شعور "ماريا" في شخصه.. ولكنهن اليوم يحاولن شيئاً آخر: أن ينتزعن الحقيقة من "افاناسي" الساذج الصريح!

كانت "ماريا" ترقب زوجها المحاصر في قلق بالغ، وكان يرد على كل الاسئلة الموجهة إليه بقوله: "آه!"، بطريقة كانت تثير غيظ الزائرات!

وصاحت سيدة قصيرة القامة ذات عينين لامعتين ومظهر جريء، لا تخشى أحداً ولا تقع قط في حيرة، صاحت تقول بلهجة شاعت فيها رنة دعابة:

- ولكن.. يا "ماريا" إن "افاناسي" لا يريد ان يشاركنا الحديث! مريه إذن بأن يكون أكثر لطفاً مع السيدات!

فقطعت "ماريا حديثها مع "انا نيقولايفنا" و "ناتاليا ديمتريفنا" واجابتها قائلة وعلى شفتيها ابتسامة عريضة:

- إنني لا أعرف حقاً ما حدث له اليوم، فهو قليل الكلام للغاية، ولم استطع أنا نفسي أن أجعله ينطق بكلمة واحدة!.. لماذا لا ترد على "فيلسيتا" يا "افاناسي"؟.. ماذا قلت له يا "فيليسيتا"؟

وبدأ "افاناسي" يتكلم وقد استولت عليه الدهشة ووقع في الحيرة والارتباك، فتلعثم قائلاً:

- ولكن.. ولكن.. يا امي الصغيرة!.. ولكن أنت نفسك!..

كان في تلك اللحظة واقفاً إلى جوار المدفأة المشتعلة وقد امسك باحدى يديه قدحاً من الشاي ووضع اصبعاً من اصابع يده الاخرى في جيب صديريته في وقفة جميلة اكتشفها وحده دون معونة من احد. وكانت الاسئلة الموجهة إليه من السيدات تربكه فيحمر خجلاً كالفتاة العذراء، ولكنه حين بدأ يتكلم ويبرر موقفه، التقت عيناه بعيني زوجته، وكانت تطل منهما نظرة غضب صارمة تقطر بالغيظ، فبقي في مكانه متحجراً من شدة الرعب!..

لم يكن "افاناسي" يدري ماذا يفعل، وكان شديد الرغبة في أن يصلح ما افسد كي ينال مرة اخرى احترام زوجته، فازدرد جرعة من الشاي، ولكن الشاي كان لا يزال ساخناً للغاية فحرق لسانه وحلقه، وسقط منه القدح

على ارض الغرفة! ولم تمض ثوان حتى اصيب بنوبة سعال عنيفة ففر من الغرفة تاركاً كل مَن فيها في حالة ذهول!

وفهمت الزائرات كل شيء . ولم تعد "ماريا" تشك في ان زائراتها يجهلن اي شيء وانهن قد اتين إلى بيتها بنية سيئة!

كان الموقف بالنسبة إليها خطيراً حقاً . . وكانت اي واحدة من هؤلاء الزائرات تستطيع في غير عناء ان تطلق لسان "افاناسي" بالكلام ، وهكذا يفلت منه السر حتى في وجود زوجته . .

* * *

وكان القدر يدّخر لـ"ماريا" اختباراً جديداً آخر ، إذ فُتح الباب ودخل "بافيل موجلياكوف" وكانت تعتقد أنه عند شبينه التاجر بورودونيف . فاتت هذه السيدة الحذرة كما لو ان شيئاً قد أصابها في قلبها!

وتوقف "موجلياكوف" متردداً عند مدخل الصالون وقد شعر بشيء من الخجل ، وأخذ يدور بعينيه على الحاضرات في نظرة فاحصة . وكان لا يستطيع ان يخفي انفعاله الذي كان بادياً تماماً على محياه . .

وارتفعت عدة اصوات تقول :

- آه! يا الهي هذا هو "بافيل"

- آه! . . انه "بافيل موجلياكوف" .

وصاحت "ناتاليا ديمتريفنا" قائلة وهي توجه الحديث إلى ربة البيت :

- لماذا كنت تقولين لنا إذن يا "ماريا" انه عند "بورودونيف"؟

ثم اضافت تقول مخاطبة "موجلياكوف":

- ان بعضهم يزعم انك كنت مختبئاً يا "بافيل!

فقال "موجلياكوف" مردداً عبارتها وهو يبتسم ابتسامة متكلفة:

- كنت مختبئاً! يا له من تعبير غريب!.. معذرة يا "ناتاليا ديمتريفنا" فأنا لا اختبئ، وليس لدي ما يجعلني اختبئ من أحد!

نطق "موجلياكوف" بهذه الجملة الاخيرة وهو ينظر إلى "ماريا" نظرة لها معناها، فارتجفت اوصالها وفكرت قائلة في نفسها وهي تفحص الشاب في امعان: "كيف ذلك؟ ايتمرد هو ايضاً.. هذا الغبي ذو الشخصية التافهة؟ هذه هي الطامة الكبرى!"

وخاطرت "فيليسيتا" الوقحة ونظرت إلى "موجلياكوف" نظرة ساخرة وهي تقول:

- اصحيح يا "بافيل" أنك أُحلت إلى التقاعد؟ فأجابها "موجلياكوف" قائلاً بجفاء:

- أُحلت إلى التقاعد؟ أُحلت إلى التقاعد؟.. بل انني غيَّرت عملي فقط يا سيدتي، ووجدت عملاً في بطرسبورج!

وتابعت "فيليسيتا" حديثها معه قائلة:

- حسناً.. إنني اهنئك إذن. لقد خفنا عليك في لحظة من اللحظات لما

قيل لنا انك تبحث عن وظيفة بمدينة مورداسوف، فالوظائف هنا ليست مستقرة، ويمكن ان يطرد المرء منها بين عشية وضحاها!

وقالت "ناتاليا ديمتريفنا":

- إلا إذا كنت تبحث عن وظيفة مدرس صغير بمدارس المجلس البلدي (!).. فهناك بعض الوظائف الخالية:

وكان هذا التلميح الاخير واضحاً تماماً وقاسياً فظاً إلى حد جعل "انا نيقولايفنا" نفسها تحمر من الخجل وتدفع بمرفقها صديقتها اللاذعة!

وواصلت "فيليسيتا" حديثها وهي تزيد الطين بلة:

- ولكن، هل تظنين حقاً ان "بافيل" سيسير على خطى مدرس المدرسة الصغيرة الحديث السن؟

ولم يدر "موجلياكوف" ماذا يقول، فاستدار مبتعداً، ولكنه اصطدم بـ"افاناسي" الذي مد إليه يده ليصافحه، ولكن "موجلياكوف" لم يصافح المستشار "افاناسي" وحياه برأسه بايماءة عريضة وهو يتعمد ان يكون ساخراً، ثم اقترب من "زينا" وثبت نظره عليها وتمتم قائلاً في تهكم:

- أنتِ سبب كل ذلك.. ولكن، انتظري.. فسترين هذا المساء ما اذا كنت "مغفلاً" ام غير ذلك!

فقالت له "زينا" بصوت عال وهي تتحدى الخاطب المرفوض بنظرة كلها احتقار:

- انتظر!.. إن الأمر يبدو واضحاً تماماً من الآن!..

فانسحب "موجلياكوف" في اندفاع، وقد أخافه ارتفاع صوت الفتاة..

وانقضت لحظة، ثم سألته "ماريا" قائلة:

- هل أنت قادم من عند "بورودنيف"؟

فأجابها قائلاً في لهجة باردة:

- كلا.. انني قادم من عند عمي!

فصاحت تقول وقد بدت في وجهها الدهشة:

- من عند عمك!.. اكنت إذن عندا الأمير؟

وقالت "ناتاليا ديمتريفنا" وهي تسحق "ماريا" بنظرة الحقد المنتصر:

- آه! يا الهي! لقد استيقظ الأمير اذن.. انهم كانوا يقولون لنا انه لا يزال نائماً!

فقال لها "موجلياكوف":

- لا تنزعجي بشأن الأمير يا "ناتاليا ديمتريفنا".. إنه استيقظ، ونحمد الله على انه عاد إلى رشده، اذ كان قد شرب بعض الخمر عندك، واجهزوا عليه هنا إلى حد انه فقد صوابه تماماً، وانت تعرفين انه ضعيف الذاكرة. ولكننا تحدثنا الان معاً واصبح تفكيره غاية في الاتزان..

وصمت "موجلياكوف" لحظة قصيرة ثم استطرد يقول موجهاً حديثه إلى "ماريا":

- انه سيكون هنا بعد لحظة يا سيدتي ليستأذن منك في الخروج ويشكرك على كرم ضيافتك.. وسنذهب من غدنا إلى "الصحراء"، وسأصحبه إلى دوخانوفو كي اجنبه سقطة كهذه التي حدثت له اليوم.. انه سيعود إلى هناك، ليكون تحت اشراف "ستبانيدا" التي لابد انها عادت من موسكو، فهي لن تسمح له بأن يتعرض مرة اخرى لاخطار السفر.. وانني لاؤكد لك ذلك!

وبنظرة قاسية مريرة، اخذ "موجلياكوف" يفحص وجه "ماريا" التي اخرسها الذهول فجمدت في وقفتها وقد احست بالخوف لاول مرة في حياتها!

وقالت "ناتاليا" تسأل "ماريا":

- سيرحل الأمير غداً؟ ولكن.. كيف ذلك؟

وعقبت "انا نيقولايفنا" قائلة في دهشة:

- حقاً!.. كيف ذلك؟.

قالت اصوات اخرى هنا وهناك:

- نعم.. كيف ذلك؟.. اننا كنا نعتقد انه. آه! يا الهي! ان هذا خبر عجيب!..

كانت سيدة البيت لا تدري ماذا تقول!

وفجأة، حدث ما جذب انتباه الحاضرين، اذ سمع الجميع صوتاً حاداً

صادراً من الدهليز المجاور ولم تمض ثواني حتى اندفعت "صوفيا بتروفنا" إلى داخل الصالون!

كانت "صوفيا بتروفنا" بلا شك اغرب سيدات مورداسوف اطواراً.. انها غريبة الاطوار إلى حد دفعهن إلى التصميم على ابعادها عن مجتمعات المدينة! والواقع انها اعتادت ان تتناول وجبة خفيفة في تمام الساعة السابعة كل مساء تكون بعدها على الدوام في حالة تحرر وانطلاق (ولست اريد ان أقول اكثر من ذلك).. وكانت في هذه الحالة تماماً حينما دخلت عند "ماريا" بهذه الطريقة المفاجئة!

صاحت "صوفيا بتروفنا" تقول بأعلى صوتها :

- آه! إنك إذن هكذا يا "ماريا الكسندرفنا"! انك تتصرفين معي على هذا النحو!.. حسناً! لا تنزعجي، فقد جئت للحظة واحدة فقط، بل انني حتى لن اجلس!

لقد اتيت خصيصاً لأعرف إذا كان ما قيل لي صحيحاً.. انك تقيمين الحفلات الراقصة والمآدب بينما تظل "صوفيا بتورفنا" قابعة في بيتها تشغل نفسها "بالتريكو" لتصنع الجوارب، وتجمعين في بيتك كل سيدات المدينة عداي! مع انني منذ لحظة قصيرة كنت "صديقتك وملاكك" حين جئت لاخبرك بأن "ناتاليا ديمترفنا" تدبر مؤامرة ضدك بشأن الامير.. وهاي هي ذي "ناتالي ديمتريفنا" في بيتك الآن، وقد قلت عنها أنت اليوم بالذات ما لم تسمعه إذن قط، وهي من ناحية اخرى تقول عنك نفس ما تقولينه عنها!

وكفت زوجة الكولونيل بضع ثوان لتلتقط انفاسها، ثم استطردت تقول موجهة حديثها إلى "ناتاليا ديمتريفنا":

- لا تنزعجي يا "ناتاليا"، فأنا لست في حاجة إلى قطع "الشوكولاتة" الصحية التي تقدمنيها إليَّ ولا تساوي الواحدة منها اكثرمن عشر مليمات.. إنني اشرب من "الكاكاو" في بيتي اكثر بكثير مما تشربين أنت في بيتك..آه!

فأجابتها "ناتاليا" قائلة بلهجة ساخرة:

- هذا واضح عليك تماماً!..

وصاحت "ماريا" تقول وقد احتقن وجهها من شدة الغيظ:

- ولكن.. ماذا بك يا "صوفيا بتروفنا"؟ ماذا بك؟.. عودي إلى صوابك!

فصاحت "صوفيا" قائلة بصوتها الحاد وقد احاطت بها كل الزائرات اللاتي كانت هذه الفضيحة غير المنتظرة تغمر قلوبهن بسرور الشماتة:

- لا تقلقي بشأني يا "ماريا".. لقد عرفت كل شيء.. وانها صديقتك "ناستاسيا" هي التي قالت لي كل شيء! كل شيء!.. انك اسكرت الأمير القصير وارغمتيه على ان يطلب يد ابنتك التي لم يعد يريد ان يتزوجها! وكنت قد بدأت تعتبرين نفسك دوقة واميرة من ارقى مجتمع! آه! لا تقلقي ولا تنزعجي انني لست بأقل من اي دوقة، فزوجي كولونيل!

آه! انك لم تدعني إلى الخطوبة! حسناً.. انني ابصق على هذه الخطوبة!

فقد رأيت اناساً يُعتبرون سادتك.. فتناولت العشاء عند الكونتيس "كاليخفاتسكايا" وطلب القومسير العام "كوربشكين" ان يتزوجني.. انني اسخر من سهرتك هذه!

فأجابتها "ماريا" وقد خرجت عن صوابها قائلة:

- انصتي الي يا "صوفيا بتروفنا".. احب ان تعرفي ان المرء لا يدخل هكذا في بيت محترم، وفي مثل حالتك هذه.. وان لم تعفني من وجودك على الفور، فسأعرف كيف اتخذ نحوك الاجراء المناسب..

فقاطعتها "صوفيا بتروفنا" قائلة وهي تهز كتفيها في سخرية.

- لا تخافي يا "ماريا" فانني اعرف بنفسي طريق الخروج.. وداعاً!.. وزوجي ابنتك مَن تشائين!..

ثم التفت إلى "ناتاليا ديمتريفنا" واضافت تقول:

- وانت.. يا "ناتاليا".. كُفي عن الضحك مني. انني ابصق على "الشوكولاتة" التي تقدمينها! نعم، فانني لم ادع إلى هناك! وسبب ذلك واضح تماماً: انني ليست لدي فتيات صغيرة يرقصن في بيتي رقصة كازاتشوك بابتذال امام الامراء!

وكفت زوجة الكولونيل عن الكلام لحظة قصيرة كانت تتنفس اثناءها بصوت مسموع، ثم قالت مخاطبة "انا نيقولايفنا":

- وانت ايضاً.. لماذا تضحكين؟ ان صديقك "سوشيلوف" قد انكسرت ساقه منذ لحظة واضطروا إلى حمله إلى بيته.. انك ستحرمين منه بلا شك!..

ثم اضافت تقول موجهة كلامها إلى "فيليسيتا ميخابلوفنا":

- وانت يا "فيليسيتا".. انك ان لم تأمري خادمتك "ماتريشكا" الحافية القدمين بأن تمنع بقرتك من الخوار تحت نوافذي كل يوم، فسأكسر ساقها لا محالة!

ثم التفت اخيراً نحو سيدة البيت وصاحت قائلة في سخرية مريرة:

- وداعاً يا "ماريا الكسندرفنا"! وداعاً.. اياك اعني واسمعي يا جارة!..

وسرعان ما اختفت زوجة الكولونيل..

وضج الجميع بالضحك.. ووجدت "ماريا" نفسها في ارتباك شديد وحيرة لا مثيل لها!..

قالت "ناتاليا ديميتريفنا" في رفق:

- اعتقد ان "صوفيا بتروفنا" اسرفت في شرب الخمر!.

وقالت سيدة اخرى:

- يا لها من وقحة:

- يا لها من امرأة كريهة!..

- آه! لشد ما اضحكتنا..

- يا للقاذورات التي اخرجتها من فمها!..

وسألت "فيليسيتا ميخايلوفنا" الحاضرات قائلة في لهجة ساخرة:

- عن اي خطوبة كانت "صوفيا بتروفنا" تتحدث؟

وصاحت "ماريا" اخيراً تقول:

- ان هذا لشيء رهيب! ان امثال هذه الوحوش تنشر في المدينة كثيراً من القيل والقال.. وان وجود مثل هؤلاء السيدات في مجتمعنا يا "فيليسيتا" لا يثير دهشة كبيرة، ولكن ما يثير الدهشة حقاً هو ان هناك اناساً كثيرين يلجئون إلى هذه الوحوش، ويستمعون اليها، ويصدقونها، و..

ولم تستطع ربة البيت ان تتم عبارتها، إذ ارتفعت صيحات الحاضرات جميعاً قائلات في صوت واحد:

- الأمير! الأمير!.. آه! يا الهي! ها هو ذا الأمير!

وانثنت "فيليسيتا ميخايلوفنا" نحو جارتها وتمتمت تقول بصوت خفيض:

- شكراً لله! فلن نلبث اخيراً ان نعرف الحقيقة!

الفصل الثالث عشر

الحلم والحقيقة

دخل الأمير الصالون وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وما كاد نظره يقع على السيدات حتى زال من قلبه غير المكترث كل القلق والخوف اللذين القاهما في "موجلياكوف" وسرعان ما ذاب كقطعة من الحلوى.. وكانت "فيليسيتا ميخايلوفنا" تؤكد حتى هذا الصباح ـ وذلك بالطبع على سبيل الدعابة والمزاح ـ انها على استعداد لان تجلس على ركبتيه لو انه اراد ذلك، اذ انه "شيخ قصير ساحر.. ساحر إلى اقصى حد"!

واخذت "ماريا" تدرس الأمير بعينين فاحصتين، وتحاول ان تتنبأ من تعبير وجهه بحل للموقف الذي كانت فيه والذي بلغ مرحلة حرجة للغاية.. فمن الواضح ان "موجلياكوف" قد افسد الأمور إلى درجة كبيرة وان مشروعها كان يترنح، ومع ذلك فلم يستطع احد ان يقرأ اي شيء على وجه الامير، فقد كان على عادته دائماً ساحراً لا تعبير له..

وصاحت عدة سيدات قائلات في وقت واحد:

- آه! يا الهي! ها هو ذا الأمير اخيراً! لشد ما كنا ننتظرك.

وصاحت اخريات يقلن بصوت كصياح الدجاج:

- اننا كنا ننتظرك بصبر نافذ أيها الامير.. بصبر نافذ!

فقال الأمير وهو يجلس إلى جوار المنضدة التي يغلي فوقها إناء الشاي:

- حقاً ان هذا ي.. ي.. يشرفني كثيراً.

- واسرعت السيدات بالاحاطة به، وبقيت "انا نيقولايفنا" و "ناتاليا ديمتريفنا" على انفراد إلى جوار "ماريا".. وابتسم "افاناسي" بكل احترام. كما ابتسم "موجلياكوف" ايضاً وهو ينظر إلى "زينا".. ولكن "زينا" لم تعره اهتماماً بل اقتربت من والدها وجلست إلى جواره على مقعد وثير.

وقالت "فيليسيتا ميخايلوفنا" تخاطب الامير:

- آه! ايها الامير.. هل صحيح انك راحل؟

فأجابها قائلاً وهو يبتسم:

- بالطبع.. يا سيداتي.. بالطبع.. اني راحل.. انني سأذهب م.. م.. مباشرة إلى الخارج.

فصاحت كل الزائرات معاً:

- الى الخارج أيها الأمير؟.. يا لها من فكرة!..

وانتفخت اوداج الأمير واكد قائلاً:

- بالطبع.. إلى الخارج! اتعرفنَّ انني م.. م.. مسافر إلى الخارج خاصة بسبب ب.. ب.. بعض الافكار الجديدة؟

فراحت كل سيدة تنظر إلى الاخرى وتسألها قائلة:

- كيف ذلك؟ وما هي هذه الافكار الجديدة؟.. ما الخبر؟ وكرر الأمير قائلاً في اقتناع تام:

- بالطبع! بسبب الافكار الجديدة، فكل امرىء يسافر الآن إلى الخارج بسبب الافكار الجديدة، و.. و.. وانا ايضاً مسافر إلى هناك كي ا... ا.. اتشبع بهذه الافكار..

وتدخل "موجلياكوف" قائلاً ليلمع بخفة روحه امام السيدات:

- اتريد ان تنضم إلى احدى الجمعيات الماسونية ايها العم الصغير؟

- بالطبع يا صديقي.. بالطبع! انك لم تخطئ التخمين، فقد كنت فيما م.. م.. مضى عضواً في احدى الجميعات الماسونية، بل و.. و.. وكانت لديَّ كثير من الافكار الكريمة، وكنت ا.. ا.. اتأهب لعمل الكثير من أجل التعليم الحديث، وكنت اريد ان أعتق ع.. ع.. عبدي "سيدور"، ولكنه هرب قبل ان ا.. ا.. افعل ذلك واثار في نفسي دهشة عظيمة! ثم قابلته بعد ذلك في احد الايام في با.. با.. باريس وهو يرتدي ثياباً على احدث طراز وغاية في الاناقة، وم.. م.. مطلقاً سوالفه، ويتنزه في شوارع باريس الكبرى وبرفقته.. آ.. آنسة، فحياني برأسه بإيمائة خ.. خ.. خفيفة، وكانت الآنسة التي معه با.. با.. بادية الذكاء، ويسيل لها لعاب كل رجل!

فقال "موجلياكوف":

- انك لو سافرت إذن مرة اخرى إلى الخارج، فسوف تعتق عبيدك جميعاً يا عمي الصغير!

فقال له الامير:

- لقد ف.. ف.. فهمت نيتي تماماً يا عزيزي.. فأنني اريد حقاً ان ا.. ا.. اعتقهم جميعاً دون استثناء..

فصاحت "فيلسيتا ميخايلوفنا" قائلة:

- ولكنهم في هذه المرة ايها الأمير سيهربون من ارضك، فمن ذا الذي سيدفع لك إذن ضريبة العشور؟

وقالت "انا نيقولايفنا" في قلق:

- لا شك في انهم حينئذ سيهربون!

فقال الأمير متلعثماً:

- آه! يا الهي!.. احقاً سيهربون؟ احقاً س.. س.. سيهربون؟

فأكدت "ناتاليا ديمتريفنا" قائلة:

- انهم سيهربون.. لا شك في ذلك ايها الامير.. وستظل حينئذ وحدك!

فقال الأمير في قلق:

- آه! يا الهي! انني لن.. ا.. اعتقهم اذن.. وفوق هذا، فانني كنت أقول ذ.. ذ.. ذلك بلا تفكير!

فقال "موجلياكوف" :

فقال "موجلياكوف" :

- هذا افضل يا عمي الصغير..

كانت "ماريا" حتى في هذه اللحظة تنصت في صمت وترقب الجو بامعان، وبدا لها ان الأمير قد نسيها تماماً، وان هذا ليس امراً طبيعياً على الاطلاق.

فبدأت حديثها قائلة بصوت مرتفع وبكبرياء :

- اسمح لي ايها الأمير بأن اقدم لك زوجي "افاناسي متيفتش".. لقد حضر خصيصاً من القرية التي يملكها حينما علم انك نزلت في بيتنا..

وابتسم "افاناسي" وقد انتفخت اوداجه، وبدا له هنا ان زوجته قد اثنت عليه..

وقال الامير :

- آه!.. انني مسرور للغاية يا "افاناسي متفتش".. اتأذن لي يا..ا.. ا.. "افناسي متيفتش"؟ اعتقد انني تذكرت شيئاً!.. بالطبع انه هو الذي ي.. ي.. يعيش في الريف.. عظيم جداً.. عظيم جداً! ع.. ع.. عظيم جداً! انني في غاية السرور..

ثم صاح قائلاً موجها حديثه إلى "موجلياكوف" :

- ولكن يا صديقي، ان "افاناسي" هو الذي.. الذي.. كيف ا..ا.. أقول ذلك؟ الزوج بعيد عن البيت، والزوجة.. الزوج بعيد عن البيت، والزوجة في م..م.. مدينة.. بالطبع! بالطبع!

فقال له "موجلياكوف":

- آه! ايها الامير.. يحتمل انك تقصد بذلك مسرحية الفودفيل التي مثلتها فرقة مسرحية متنقلة عندنا في العام الماضي وعنوانها:

"الزوج بعيد عن البيت، والزوجة في مدينة تفور".

فقال الأمير دون ان ينهض من مقعده وهو يمد يده مصافحاً إلى "افاناسي متيفتش":

- بالطبع! الزوجة في مدينة "تفور".. انني انسى دا.. دا.. دائماً! عظيم! ع..ع.. عظيم جداً انه أنت الزوج اذن؟ انني مسرور جداً لمعرفتك.. ح..ح.. حسناً! كيف صحتك؟

فأجابه "افاناسي" قائلاً:

- آه!..

وقالت "ماريا"

- ان صحته على ما يرام.. ان صحته على ما يرام.

فقال الأمير:

- بالطبع.. فهذا واضح.. ألا تزال دا.. دا.. دائماً في الريف؟

حسناً.. انني في غاية السرور! ولكن، ما ا..ا..اشد احمرار صدغيه! وما اكثر ضحكه!

فابتسم "افاناسي" وحيا وهو يحك قدميه في ارض الغرفة، ولكنه حينما سمع ملاحظة الأمير الاخيرة لم يستطع ان يمنع نفسه من ان ينفجر ضاحكاً ضحكة بلهاء للغاية، وقلده الجميع في ذلك. وصاحت السيدات صيحات حادة تفيض بالسرور، بينما احمر وجه "زينا" خجلاً وهي تُلقي على والدتها نظرة تنذر بشر مستطير، وكانت "ماريا" تتميز غيظاً وقد ايقنت ان الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث..

فألقت على زوجها نظرة قاسية فهم منها انه يجب ان يعود إلى مكانه، ثم سألت الأمير قائلة بصوت هادئ:

- كيف نمت أيها الأمير؟..

فقال الأمير في مرح:

- لقد نمنت نوماً ع..ع.. عميقاً جداً: اتعرفين انني رايت ح..ح.. حلماً لذيذاً.. حلماً لذيذاً؟

فصاحت "فيليسيتا ميخايلوفنا" قائلة:

- حلماً.. إنني أحب كثيراً أن أسمع عن الاحلام!

وقالت "ناتاليا ديمتريفنا":

- وانا كذلك!..

فكرر الأمير قائلاً في ابتسامة عذبة:

- انه حلم لذيذ، و.. و.. ولكنه سر كبير!

وقالت "انا نيقولايفنا"، في لهجة مؤثرة:

- كيف ذلك أيها الأمير؟ ألا تستطيع حتى أنْ تقصه علينا؟

فأجابها الأمير مكرراً:

- انه سر ك.. ك.. كبير!

فتضاعف فضول الحاضرات، وارتفع من كل جانب صوت يقول:

- ولكن.. لا بد أن يكون هذا الحلم مسلياً تماماً!

وصاحت "فيليسيتا ميخايلوفنا" تقول:

- أراهن على أن الأمير في حلمه كان جاثياً على ركبتيه امام فتاة ما جميلة وهو يبثها لوعة الحب.. هيا! اعترف أيها الأمير! اعترف إذن يا عزيزي الأمير!

وتصاعدت الصيحات قائلة من كل جانب: "اعترف أيها الأمير..

وانصت الأمير بلذة إلى كل هذه الصيحات، وكان الافتراض الاخير يثير غروره، فأخذ يمسح شفتيه بلسانه لحظة من فرط السرور، ثم قال موجهاً حديثه إلى "فيليسيتا ميخايلوفنا":

- بالرغم من ان ح.. ح.. حلمي سر كبير يا سيدتي، اجد نفسي م.. م.. مضطراً لان اعترف لك وانا مندهش تماماً لانك كدت ا.. ا.. ان تخمني هذا الحلم!

فصاحت "فيليسيتا" تقول في حماس:

- لقد خمنت تخميناً صحيحاً.. حسناً أيها الامير! ينبغي إذن ان تقول لنا من هي هذه الفتاة الجميلة..

- وقالت سيدة من بين الحاضرات:

- يجب عليك حتماً ان تقول لنا من هي..

وقالت اخرى:

- هل هي معنا هنا؟..

وقالت ثالثة:

- اذكر لنا اسمها يا عزيزي الامير..

وقالت رابعة:

- قل لنا ايها الامير.. قل لنا، حتى ولو كنت ستموت بسبب ذلك!

فأجاب الأمير قائلاً في ارتباك:

- سيداتي.. سيداتي.. ان كنتن تردن حتماً ا..ا.. ان تعرفن ذلك، فانني لا أستطيع ان ا..ا.. اكشف لكن الا شيئاً واحداً ف.. ف.. فقط: انها اكثر الفتيات سحراً وفضيلة، وهي ار.. ار.. اروع فتاة عرفتها!

فأخذت كل سيدة تشير إلى الاخرى اشارة ذات مغزى، ورحن يتساءلن: "اهي اكثر الفتيات سحراً.. في مدينتنا هذه؟"

وقالت "ناتاليا بتروفنا" وهي تصفق بشدة بيديها الضخمتين الحمراوين وتنظر إلى "زينا" نظرة مفضوحة:

لا شك في انها هي التي تعتبر اجمل فتاة في مدينتنا..

واتجهت كل الانظار إلى "زينا"..

وسألت "فيليسيتا" الأمير قائلة:

- كيف إذن ايها الامير.. ولماذا لا تتزوج ما دمت تحلم مثل هذه الاحلام؟

وقالت سيدة اخرى:

- اننا كنا نزوجك حينئذ زيجة عظيمة!

وقالت ثالثة وكأنها دجاجة تصيح:

- تزوج إذن ايها الأمير العزيز!

وصاحت الزائرات يقلن من كل جانب:

- تزوج! تزوج! لماذا لا تتزوج؟

فقال الأمير وقد تبلبل فكره:

- بالطبع.. بالطبع! لماذا لا ا..ا.. اتزوج؟

فصاح "موجلياكوف" قائلاً:

- يا عمي الصغير.. تذكر "اقرباءك الذين.."

فقال له الأمير:

- بالطبع يا صديقي.. انني اف.. اف.. افهمك. وكنت اريد ان اقول.. لكن يا سيدي انني لا أستطيع ان اتزوج، فانني ـ بعد هذه السهرة الساحرة عند ربة هذا البيت اللطيفة ـ ذاهب باكراً إلى الصحراء "يعني قريته دوخانوفو" ثم انني م.. م.. مسافر بعد ذلك إلى الخارج لأدرس التع.. تع.. تعليم الاوروبي.

فشحبت "زينا" والقت على أُمها نظرة تقطر حقداً، ولكن "ماريا" كانت قد صممت على أمر، إذ أنها كانت تنتظر حتى هذه اللحظة وهي تتحسس الأرض التي كانت تقف عليها، على الرغم من أنها كانت ترى ان المسألة كانت على وشك ان تضيع من يدها وان اعداءها يهاجمونها اعنف هجوم. واخيراً فهمت كل شيء، وارادت ان تنتهي من هذا الاخطبوط المرعب بضربة واحدة. فنهضت بكل عظمة، واقتربت من المنضدة بخطوات وئيدة، ونظرت في كبرياء إلى هؤلاء السيدات "القزمات" الملتفات حولها وقد لمع في عينيها بريق الالهام انها ستقضي تواً على كل ناقلات الاخبار المريرات هؤلاء، وتسحق "موجلياكوف" البائس كما تسحق حشرة صغيرة، وتستعيد مرة اخرى بضربة حاسمة نفوذها الضائع لدى الأمير الابله.. ولا شك في ان ذلك كان يتطلب منها جرأة عجيبة، ولكن "ماريا" كانت لا تنقصها الجرأة وبدأت حديثها بلهجة مهيبة:

- سيداتي.. انني انصت طويلاً إلى كلماتكن الطيبة، وارى ان الوقت

دق حان لاقول بدوري لكُنَّ بعض كلمات طيبة ايضاً .. إنكُنَّ تعرفن اننا اجتمعنا هنا بمحض المصادفة، وانني لمسرورة تماماً لذلك، وكنت لا أعتزم إذاعة سر عائلي في مثل هذه الدرجة من الاهمية دون أن أُراعي وارضي المشاعر التي تحتمها علينا ابسط واجبات اللياقة، وانني اعتذر خاصة لضيفي العزيز. ولكن يبدو لي انه قد لمّح نفسه تلميحات بعيدة إلى هذا الموضوع، واوحى إليَّ بفكرة إفشاء مثل هذا السر الذي يتمسك به، ولكنه يخشى حدوث ذلك. إنني لم أُخطئ في كلامي، أليس كذلك أيها الأمير؟

فأجابها الأمير قائلاً وهو لا يفهم ماذا تعني:

- بالطبع.. إنك لم تخطئي.. وإنني في غاية السرور.. في غاية السرور..

وحتى تجيد "ماريا" اعداد التأثير الذي كانت تهدف اليه، فأنها التقطت انفاسها وتفحصت وجوه الحاضرين جميعاً. وانصت الجميع إليها في فضول نهم وقلق. وكان "موجلياكوف" يرتجف، بينما احمر وجه "زينا" خجلاً ونهضت. وكان "افاناسي" يكف عن التمخط..

استطردت "ماريا" تقول:

- نعم.. سيداتي.. إنني أشعر بسرور بالغ إذ أعهد إليكنَّ بهذا السر العائلي، فاليوم، بعد العشاء، فُتِن الأمير بجمال.. وبفضائل ابنتي، وشرفنا بأن طلب يدها..

واختتمت كلامها قائلة بصوت مرتجف:

- أيها الأمير.. أيها الأمير العزيز.. يجب ألا تغضب مني لأنني افشيت مثل هذا السر، فان سروري البالغ وحده هو الذي انتزع من قلبي هذا السر الغال.. وأي أُم تستطيع ان تلومني على ذلك؟

انني لا اجد الألفاظ التي أصف بها الأثر الذي احدثته قنبلة "ماريا" غير المتوقعة. وتصلب الجميع من شدة الذهول، فان "ماريا جعلت الأمير يفهم انهن يعرفن سره.. ثم انها مزقت السر بتلميحاتها الواضحة.. وظلت الحاضرات مذهولات من هذه الصراحة الجريئة.. وكانت هذه الجرأة علامة من علامات النجاح.

وكانت الحاضرات يفكرن في انفسهن قائلات: "ان الأمير إذن يتزوج بمحض ارادته" وهم لم يخدعوه إذن ولم يسكروه! ولم يفعلوا كما يفعل اللصوص، ولم يرغموه في الخفاء على عقد هذا الزواج.. واذن فـ"ماريا الكسندرفنا" لا تخشى احداً، ولا يستطيع احد ان يمنع اتمام هذا الزواج!

ارتفعت الهمهمة بين الحاضرين وسرعان ما تحولت إلى صيحات مرحة، واسرعت "ناتاليا ديمتريفنا" بتقبيل "ماريا الكسندرفنا".. وقلدتها في ذلك "انا نيقولايفنا" ثم تبعتها "فيليسيتا ميخايلوفنا" ونهضت كل الحاضرات واختلطن ببعضهن. وكانت كثيرات منهن شاحبات من شدة الغضب، واخذن يهنئن "زينا" التي كانت غارقة في الخجل.

وكانت "ماريا" تمد ذراعيها في عظمة، ثم امسكت بابنتها بالقوة تقريباً

واحتضنتها . وكان الأمير وحده لا يكف عن الحركة في مقعده وهو يتأمل هذا المنظر في ذهول . وكان ذلك كله يروق له من ناحية اخرى . وحينما رأى الفتاة بين ذراعي امها ، اخرج منديله من جيبه ومسح به عينه السليمة التي كانت تلمع فيها الدموع . وتهافت الحاضرون عليه لتهنئته هو كذلك..

وكانت الصيحات تتجاوب قائلة من كل جانب : تهنئتي لك ايها الامير.. تهنئتي لك!"

وقالت سيدة من السيدات :

- انك إذن ستتزوج!..

وقالت اخرى :

- هل ستتزوج حقاً؟..

وقالت ثالثة :

- ايها الأمير العزيز!.. هل ستتزوج اذن!..

فأجابهن قائلاً في سرور بالغ سببه هذا الحماس :

- بالطبع.. بالطبع.. اعترف لكن بأن استلطافكنّ لي يؤثر في نفسي اعظم التأثير . ولن انسى ذلك اب.. ب.. ابداً . ان هذا شيء رائع.. را.. را.. رائع ، فقد جعلتن حتى ع.. ع.. عيني تدمع..

وصاحت "فيليسيتا" قائلة بصوت ارتفع على كل الاصوات :

- قبلني ايها الامير..

واستأنف الأمير حديثه قائلاً :

- اعترف لكن بأن ما يدهشني حقاً هو ان السيدة المحترمة "فيليستا ميخايلوفنا" قد خمنت بفراسة مدهشة هذا الحلم العجيب كما لو كانت هي التي رأته بدلاً مني .. بف .. ف .. فراسة عجيبة!

فقالت إحدى الحاضرات :

- آه! ايها الأمير .. ألا زلت تتحدث عن حلمك؟

فصاحت كل الحاضرات قائلات وهن يحطن بالامير :

- هيا اعترف إذن ايها الامير .. اعترف اذن!

فقالت "ماريا" بلهجة قاطعة :

- نعم أيها الأمير ، فلم يعد لديك الآن ما تخفيه ، وقد آن الآوان لتكشف ما في قلبك .. انني فهمت هذه التورية الرقيقة ، وهذه الرقة المملوءة بالفروسية التي أذعت بها نبأ طلب يد ابنتي بطريقة غير مكشوفة .. نعم يا سيداتي ، ان هذا صحيح ، فاليوم بالذات كان الأمير جاثياً على ركبتيه امام ابنتي ولم يحدث له ذلك حقاً في الحلم وقد طلب يدها رسمياً ..

فقال الأمير :

- لقد حدث ذلك تماماً كما لو كان قد حدث فعلاً في الواقع ، وحتى في ن .. ن .. نفس الظروف .

واستطرد الأمير موجهاً حديثه إلى "زينا" في أدب بالغ، وكانت لا تزال غارقة في الخجل:

- يا آنستي.. اقسم لك انني ما كنت لاجرؤ ابداً وانطق باسمك لولم يكن الحاضرون قد فعلوا ذلك قبلي.. انه كان حلماً لذيذاً.. ح.. ح.. حلماً ل.. ل.. لذيذاً! وسامحي لي بأن اعبر لك عن انني أحس بسعادة مزدوجة.. إنه شيء ساحر!

وتمتمت "انا نيقولايفنا" تقول لـ"ماريا" التي كانت شاحبة إلى حد ما وتشعر بالقلق:

- ولكنه لا يزال يقول إن ذلك قد حدث له في الحلم!

يا للاسف!.. لقد كان قلب "ماريا" تمزقه في تلك اللحظة اشد الاحساسات حزناً..

واخذت الحاضرات يتبادلن النظرات ويتمتمن قائلات: "ماذا حدث اذن؟"

فقالت "ماريا" وهي تبتسم ابتسامة مريضة:

- ماذا جرى أيها الأمير؟.. أعترف بأنك تثير دهشتي! إن هذا الحلم المزعوم قد اثار بلبلة عجيبة، فانني كنت اعتقد حتى هذه اللحظة انك كنت تمزح، ولكنني ارى ان هذا المزاح قد طال اكثر مما ينبغي، واميل إلى الاعتقاد ان هذا ناتج عن شيء من السهو..

وقالت "ناتليا ديمتريفنا" بصوت كالصفير:

- حقاً! لابد ان يكون ذلك سهواً!

فكرر الأمير قائلاً دون ان يدرك ما يريدونه منه:

- بالطبع.. عن السهو.. ت.. ت.. تصوروا.. انني سأقص عليكن نادرة حدثت لي: فقد دُعيت يوماً إلى بيت م.. م.. متواضع ولكنه محترم في بطرسبورج بمناسبة جنازة.. كلا، قد ألتبس عليَّ الامر، إذ أعتقد أن الأمر كان يتعلق بحفل ميلاد، وكان يوم الميلاد قد مر عليه اسبوع، فاشتريت باقة جميلة من ز.. ز.. زهور الكاميليا للمُحتفل به، ثم دخلت..

رأيت رجلاً محترماً متقدماً في السن ممدداً على الما.. ما.. مائدة.. فلبثت مندهشاً جداً ولم ادر اين اجلس او اضع با.. با.. باقتي، و...

فقاطعته "ماريا" قائلة في غيظ:

- ولكن الأمر هنا لا يتعلق بالنوادر أيها الأمير.. إن ابنتي بالتأكيد لا تتصيد الخطأ، ولكنك أنت نفسك منذ لحظة والى جوار هذا البيانو طلبت يد ابنتي، ولم يجبرك احد على ذلك.. وقد دهشت تماماً أنا نفسي لذلك، ولكنني أم وهي ابنتي. ولكنك منذ لحظة تتحدث عن حلم وحسبت أن هذا تلميح يتضمن تورية تشير إلى خطوبتك بابنتي.. إنني أعرف جيداً أنهم يثنوك عن ذلك واضمن من هو الذي فعل ذلك ولبسك كما يلبس المرء القفاز، ولكن.. فسر لنا مسلكك

هذا أيها الأمير، فسر لنا مسلكك هذا بأسرع ما يمكن، فمثل هذا المزاح لا يجوز في بيت محترم!

فأجابها الأمير قائلاً بطريقة لا شعورية ولكن بلهجة شاع فيها بعض القلق:

- بالطبع.. م.. .. مثل هذا المزاح لا يجوز في بيت محترم..!

- ولكنك لم ترد عليَّ أيها الامير! انني اطالبك بأن تفسر مسلكك بطريقة ايجابية.. أيد.. أيد.. على الفور وعلى الملأ امام الجميع انك اليوم قد طلبت يد ابنتي..

- بالطبع.. انني على استعداد لأن أؤيد ذلك. وفوق هذا فلقد قصصت كل ذلك، وقد خمنت "فيليسيتا" ياكو.. كو.. كوفلفنا حلمي.. جيداً ج.. ج.. جداً.

فصرخت "ماريا" تقول في حنق بالغ:

- ليس حلماً! ليس حلماً! إن الأمر ليس خلماً، بل حقيقة واقعة ايها الامير.. اتسمعني؟ حقيقة واقعة! حقيقة واقعة! حقيقة واقعة!

فكرر الأمير في دهشة وهو ينهض من مقعده:

- حقيقة واقعة!

ثم اضاف يقول موجهاً حديثه إلى "موجلياكوف":

- إن كل شيء يحدث كما تنبأت لي به..

وصمت الأمير بضع ثوان ثم استطرد يقول موجهاً حديثه ثانية إلى "ماريا":

- اؤكد لك يا عزيزتي "ماريا" انك مخطئة، فأنا واثق تماماً من أنه حلم..

فأنت "ماريا الكسندرفنا" قائلة:

- يا الهي!..

وتدخلت "ناتاليا ديمتريفنا" في الحديث قائلة:

- لا تحزني هكذا يا "ماريا" فقد نسي الأمير ذلك، ولكنه سيتذكره.

فأجابتها "ماريا" قائلة في غضب جارف:

- انك تثيرين دهشتي يا "ناتاليا".. فهل ينسى المرء مثل هذه الامور؟

ثم قالت موجهة حديثها إلى الامير:

- هيا أيها الأمير.. انك تسخر منا.. اتريد ان تلعب دوراً مسرحياً؟ ولكنني أقول لك ان هذا لا يليق بسنك، واقسم لك انك لن تنجح في لعب هذا الدور، فليست ابنتي كتلك الفيكونتس التي خدعتها وأنت في الخارج، فقد كانت منذ لحظات تغني لك هنا قصيدة غزل، وكنت جاثياً امامها على ركبتيك وانت تطلب يدها.. فهل أنا التي أحلم؟ تكلم ايها الامير! فأنا لست نائمة!

فأجابها الأمير قائلاً وقد تاه تماماً:

- بالطبع.. ومن جهة اخرى، فربما لم يحدث ذلك.. اريد ان أقول انني لا اعتقد انني احلم الآن.. ولكنني منذ ساعة مضت كنت احلم، ثم رأيت في المنام.. رأيت ح.. ح.. حلماً..

فقالت "ماريا":

- يا الهي! ولكن.. ماذا يحدث لك؟ انك رأيت في الحلم.. ان الشيطان نفسه لا يضل في كل ذلك!.. هل تهذي ايها الامير؟

فأجابها الأمير قائلاً وهو ينظر حوله في قلق:

- بالطبع..! ان الشيطان سيضل في هذا الامر! ثم انني لم أعد أ.. أ.. افهم شيئاً في كل ذلك.

- ولكن كيف تستطيع وتصر على اعتقادك انه حلم مع انني اقص عليك كل تفاصيل هذا الحلم المزعوم الذي لم تتحدث بشأنه إلى احد..

وحينئذ، قالت "ناتاليا ديمتريفنا":

- ولكن.. ربما يكون قد قص هذا الحلم على شخص ما.. وأيدها الأمير قائلاً.

- بالطبع.. لقد قصصته على شخص ما..

وتمتمت "فيليستا ميخايلوفنا" تقول لجارتها:

- يا لهامن مهزلة!..

واخذت "ماريا الكسندرفنا" تلوي يديها في يأس وهي تصيح قائلة:

- آه! يا إلهي! ان هذا يفوق صبر كل صبور! .. انها كانت تغني لك قصيدة غزل! قصيدة غزل! فهل رأيت ذلك في حلمك؟

فتمتم الأمير قائلاً في شرود :

- بالطبع .. حقاً .. ق .. ق .. قصيدة غزل ..

وفجأة، بدا عليه كأنما تذكر شيئاً بالغ الاهمية فصاح قائلاً وهو يوجه الحديث إلى "موجلياكوف" :

- لقد نسيت منذ لحظة ان أقول لك انها غنت لي ق .. ق .. قصيدة غزل كان بها الكثير من القص .. قص .. القصور وكان بها ايضاً احد الشعراء المد .. مد .. مداحين .. بالطبع .. انني اتذكر، وانني حتى بكيت، .. ولم اعد اعرف الآن ما إذا كان هذا حلماً او حقيقة ..

فأجابه "موجلياكوف" قائلاً بأكثر هدوء ممكن ولكن بصوت مضطرب :

- ان الصعوبة هنا لا تبدو لي ذات خطر .. فربما انك سمعت فعلاً قصيدة غزل، فان "زينا" العزيزة تجيد الغناء! فتذكرت الزمن الماضي، واللحظات الحلوة، بل وربما تذكرت ايضاً هذه الفيكونتس الفرنسية التي كنت تغني معها بنفسك قصائد الغزل والتي كنت تتحدث عنها هذا الصباح، ثم لابد ان تكون قد حلمت بعد ذلك اثناء نومك انك مغرم ولهان ثم تقدمت لهذا الزواج في الحلم اثناء نومك ..

ففقدت "ماريا" صوابها من هذه الوقاحة ..

وصاح الأمير يقول في حماس:

- آه! يا صديقي! هذا صحيح نعم، اث.. اث.. اثناء نومي، وكانت احاسيس لذ.. لذ.. لذيذة.. واتذكر قصيدة الغ.. غ.. غزل، وكنت أنا اريد ان.. وكنت أنا اريد ان اتزوج في الحلم!! وكانت الفيكونتس الفرنسية معي ايضاً في الحلم.. آه! لشد ما بينت لي كل ذلك بوضوح يا ع.. ع.. عزيزي. حسناً..

ثم خاطب "ماريا" قائلاً:

- انني الآن مقتنع تماماً بأنه ح.. ح.. حلم يا "ماريا"! أؤكد لك انك مخطئة، فانه كان حلماً، انني لم اسخر ابداً من كرامتك.

فنظرت "ماريا" إلى "موجلياكوف" في ثورة عارمة، وقالت:

- آه! انني أرَ الآن بوضوح مَن فعل كل هذا.. انه أنت يا سيدي.. أنت الرجل غير الشريف.. انت!.. انت!.. انت! فلقد خدعت هذا البائس الابله لانك قد أُبعدت، ولكنك ستدفع لي الثمن غالياً ايها البائس! ستدفعه لي غالياً! ستدفعه لي غالياً!

وصاح "موجلياكوف" بدوره قائلاً وقد احمر وجهه:

- يا "ماريا".. ان كلماتك.. انني اعرف تماماً إلى اي حد تكون كلماتك.. إن سيدة من سيدات المجتمع لا تسمح لنفسها.. انني ادافع عن عمي.. واعترفي بأن خداعه هكذا..

ونهض الأمير واخذ يختفي خلف "موجلياكوف" وهو يموء قائلاً:

- بالطبع.. خدعوني.. خ.. خ.. خدعوني هكذا.

وصاحت "ماريا" تقول لزوجها:

- يا "افاناسي".. أفلا تسمع إذن؟ انهم يهينون شرفنا.. هل فقدت إذن الشعور بواجبك؟ ألست حقاً سوى لوح من الخشب؟ ماذا بك تغمز بعينيك؟ ان اي رجل آخر كان خليقاً بأن يمسح هذه الاهانة الموجهة لنا بالدم وفي الحال!.

فبدأ "افاناسي" بلهجة مهيبة، وقد ارضى غروره إذ رأى أن هناك من يفكر فيه:

- يا زوجتي! يا زوجتي! ربما كان ذلك حلماً رأيتيه في نومك حقاً، ثم اقتنعت بعد ان استيقظت بأنه كان حقيقة.

وحتى هذه اللحظة، كانت الزائرات يحتفظن بمظهر من الأدب الخبيث. ولكنهن إذ سمعن ذلك، انفجرنَّ جميعاً ضاحكات في قهقهة عالية.

ونسيت "ماريا" كل مقتضيات اللياقة وهجمت على زوجها، ومن المحتمل أنها كانت ستنتزع عينيه، ولكن اضطر الحاضرون إلى منعها من ذلك بالقوة.

وانتهزت "ناتاليا" هذه الفرصة لتُلقي على النار بشيء من الزيت، فقالت بصوت مُتحفظ.

- ولكن يا "ماريا" ربما كان ذلك حلماً حقيقة..

فصاحت "ماريا" قائلة وهي لا تدري ما تهدف إليه "ناتاليا":

- ماذا؟.. حلم؟.. ماذا؟..

- آه! يا "ماريا الكسندرفنا".. ان هذا يحدث احياناً..

- ولكن.. ماذا؟..

- ربما، رأيت حقاً كل ذلك في الحلم!..

- في الحلم! أنا؟ في الحلم! وتجرؤين وتقولين لي على ذلك في وجهي.

وقالت "فيليسيتا ميخايلوفنا":

- حسناً.. ان هذا محتمل..

وتمتم الأمير بدوره قائلاً:

- بالطبع.. ان هذا م.. م.. محتمل.

فضمت "ماريا" يديها إلى صدرها وهي تصيح قائلة:

- وهو!.. حتى هو.. يا إله السموات!

فقالت احدى الحاضرات:

- لماذا تحزنين يا "ماريا"؟ تذكري إذن ان احلامنا من عند الله، وليس هناك شيء يفوق ارادته المقدسة، وينبغي الا تغضي لذلك..

وقال الامير:

- بالطبع.. ينبغي الا ت..ت.. تغضبي.

فصاحت "ماريا" تقول بصوت لاهث خنقته شدة الغضب:

- اتعتبرونني مجنونة؟..

لقد فاق ما حدث كل قواها، فأسرعت تبحث عن مقعد وهوت عليه فاقدة الحركة.. وتلا ذلك هرج ومرج..

وتمتمت "ناتاليا ديمتريفنا" تقول لـ"انا نيقولايفنا":

- لقد أُغمي عليها في الوقت المناسب تماماً..

وفي تلك اللحظة، تدخلت في الهرج والمرج العام شخصية ظلت حتى الآن صامتة، وسرعان ما اتخذ الموقف مظهراً جديداً.

* * *

الفصل الرابع عشر

مفاجآت مثيرة

كانت "زينا" العزيزة ذات طابع رومانتيكي. ولسنا نعرف ما إذا كانت قد قرأت "هذا الابله شكسبير" وتشبعت بآرائه، ولكنها لم تكن قد ارتبكت حتى الآن عملاً جنونياً كهذا!

كانت "زينا" شاحبة الوجه، وكانت عيناها تلمعان من شدة الإصرار، وكان الغضب يجعلها رائعة الجمال. فتقدمت.. وبنظرة ملؤها التحدي دارت على كل المحيطين بها، ثم وجهت حديثها إلى أمّها وسط هذا الصمت الشامل، وكانت قد فتحت عينيها عند أول حركة قامت بها ابنتها "زينا":

- يا أماه.. لماذا تصرين على الادعاء، فكل شيء من حولنا قذر للغاية! كفى كذباً.. إذ ليس هناك ما يُبرر اخفاء الوحل بالوحل..

فانتفضت "ماريا" واقفة وهي تصيح قائلة:

- "زينا"! "زينا".. ماذا بك؟ عودي إلى صوابك..

- لقد قلت لك ذلك من قبل يا أماه، وهو انني لن أستطيع ان احتمل كل هذا العار! فيجب ألا نلطخ انفسنا بالوحل اكثر من ذلك.. انني آخذ كل شيء على عاتقي، فأنا وحدي المذنبة.. نعم، أنا المذنبة

لأنني قبلت هذا العار، فنتج عن قبولي كل هذه الاعمال الدنيئة.. وكل هذه المؤامرة.. انك اعتقدت انك تعملين من أجل سعادتي، ويمكن أن يُلتمس لك الناس عذراً في ذلك، ولكن.. أنا.. إنهم لن يغفروا لي ذلك آبداً!

- ماذا تقولين هنا يا "زينا"؟ يا الهي! انني كنت اتنبأ بذلك ليتك رحمتيني من ألم هذه الطعنة الاخيرة!

- ولكنني سأقول الآن كل شيء.. انني اموت عاراً وخجلاً.. فلقد لطخت نفسينا بالعار.

- انك تبالغين يا "زينا".. ولا تدرين ماذا تقولين! ولكن لماذا تقصين كل شيء؟ فليست هناك أي ضرورة لأن تفعلي ذلك.. إننا لم نلطخ نفسينا بالعار، وسأبرهن لك على ذلك!

- دعيني اتكلم!. فأنا لا أريد أن أسكت بعد الآن أمام هؤلاء الناس الذين أحتقرهم والذين جاؤوا هنا ليسخروا منا! فليس لواحدة من هؤلاء السيدات اي حق في ان تتهمني! فكلهن على استعداد لأن يفعلنَّ اسوأ مما فعلنا مائة مرة. فبأي حق يستطعن اتهامنا او يجرؤن على ذلك؟

فقالت واحدة من بين الحاضرات:

- ما هذه اللهجة التي تتحدث بها؟

وقالت اخرى:

- انها تُهيننا؟

وقالت ثالثة:

- وهي؟.. فمن تكون اذن؟

واختتمت "ناتاليا ديمتريفنا" قائلة:

- انها لا تعرف ما تقول!..

ولنقل ان "ناتاليا ديمتريفنا" كانت على حق، فلماذا اعترفت "زينا" امامهنَّ لو انها كانت تعتبر هؤلاء السيدات غير جديرات باتهامها هي وامها؟ ومختصر القول ان "زينا" قد تصرفت باندفاع بالغ. وكان هذا هو رأي اكثر الناس حكمة في مورداسوف بعد ان ذاع الخبر... وكان من الممكن اصلاح كل شيء!

ومن الصحيح أيضاً ان "ماريا" هي التي قد أساءت إلى نفسها باندفاعها وكبريائها، اذ كان يكفيها ان تسخر من الشيخ القصير الغبي وتطرده من بيتها.

ولكن "زينا" تعمَّدت أن تتصرف تصرفاً ينافي المنطق السليم وينافي حكمة أهل مورداسوف، فوجهت حديثها إلى الأمير.

نظرت "زينا" إلى الشيخ الذي أسرع بالنهوض لها في احترام لفرط ما كان متأثراً بجمالها الرائع، وقالت له:

- أيها الأمير.. معذرة، فقد خدعناك!

فصاحت والدتها تقول:

- اصمتي إذن ايتها البائسة!

وتمتم الأمير قائلاً في دهشة:

- يا انستي.. يا آنستي.. ياس.. سا.. ساحرتي.

ونسيت "زينا" كم كانت أُمّها تقاسي من اعترافها هذا اللعين، ولم تَرَ النجاة والسلام الا في الصراحة، فسارت في هذا الطريق قُدماً حتى النهاية، وقالت للأمير:

- لقد خدعناك أنا وأمي أيها الأمير، فخدعتك امي بأن جعلتني اقبل ان اتزوجك، وخدعتك أنا بقبول هذا الزواج، لقد أسكرناك، وغنيت ومثلت امامك لننهب مالك كما يقول "بافيل"! ولنسرق ثروتك ولقبك.. وهذا عمل كريه، فَصفحاً! وأقسم لك مع ذلك أيها الأمير ان نيتي كانت.. اقسم لك انني كنت اريد.. ولكنني اضاعف من اهانتك كلما حاولت ان ابحث عن الاعذار! واصرح لك مع ذلك بأنني لو كنت تزوجتك ونهبت هكذا مالك وسرقت لقبك، فانني كنت سأكون في مقابل ذلك لعبتك وخادمتك وجاريتك.. إنني آليت على نفسي ان افعل ذلك، وما كنت لاحنث بقسمي..

وقطع على "زينا" حديثها تشنج أصابعها، فوقفت كل الحاضرات وعيونهن جاحظة، وكُنَّ جميعاً في حيرة من جراء قنبلة "زينا" غير المتوقعة. وكان الأمير وحده منفعلاً إلى حد البكاء على الرغم من انه لم يفهم نصف ما قالته "زينا"..

فقال لها الأمير:

- بالطبع.. انني سأتزوجك يا ابنتي الجميلة إن رغبت في ذ.. ذ.. ذلك كل هذه الرغبة، وسيكون ذلك بالنسبة لي ش.. ش.. شرفاً عظيماً، ولكنني فقط اؤكد لك انه كان ح.. ح.. حلماً فانني ارى كثيراً من الاشياء في أ.. أ.. احلامي.. فلماذا تنزعجين كل هذا الانزعاج؟..

واستمر الأمير في حديثه موجهاً كلامه إلى "موجلياكوف":

- انني لا افهم شيئاً يا صديقي.. اشرح لي.. أ.. أ.. ارجوك!

- وقالت "زينا" لـ"موجلياكوف":

- وانت يا "بافيل".. أنت يامن انتقمت مني كل هذا الانتقام الفظيع، كيف استطعت أن تَنْضم إلى هؤلاء الناس لتمزقني وتطلخ شرفي؟ لقد كنت تزعم أنك تحبني.. ولا ينبغي لي أن أُعطيك درساً في الاخلاق، فانني مذنبة اكثر منك، وقد أعنتك، واستعملت معك أنت أيضاً الخبث والكذب.. انني لم احبك ابداً. وان كنت قد قررت يوماً ان اتزوجك، فانما كان ذلك لانجو من هذه المدينة الملعونة.. ولكنني اصرح لك الآن بأنني كنت خليقة إذن بأن اكون زوجتك الطيبة المخلصة..

فقاطعها "موجلياكوف" قائلاً:

- آه يا "زينا" الغالية!!..

- ألا زلت تكرهني؟

فتابعت حديثها إليه قائلة وهي تكافح دموعها:

- إن كنت قد احببتني يوماً من الايام؟

- آه يا "زينا" الغالية!

فقالت "ماريا":

- "زينا"! "زينا" يا ابنتي.

فقال "موجلياكوف":

- انني بائس يا "زينا" الغالية.. انني إنسان بائس، ولست اي شيء آخر!..

وارتفعت من كل مكان صيحات الدهشة والاستنكار، وساد الحاضرون اضطراباً كبيراً وظل "موجلياكوف" متحجراً بلا تفكير وبلا صوت.

حينما يقرر شخص أجوف ضعيف الشخصية اعتاد الخضوع دائماً ان يتمرد، فانه يتوقف على الدوام عند حد معين، وتكون ثورته في بادئ الأمر نشطة للغاية، ولكن ذلك نشاط اليأس.. فيندفع إلى العوائق وكأنه معصوب العينين، ويحمل على الدوام حملاً يفوق ما تستطيع قواه. ثم تأتي لحظة يفزع فيها هذا الثائر من نفسه، فيتوقف ويتساءل: "ماذا افعل اذن؟".. تفتر همته، ويطلب الصفح عن تمرده، يرجو ويتوسل كي تعود الأمور إلى ما كانت عليه، ويتمنى ان يتم ذلك بأسرع ما يمكن...

وهذا هو ما حدث لصديقنا "موجلياكوف" فقد تملكه اليأس من جراء الكارثة التي تَسبب في حدوثها، فحقد على نفسه ومزقه الندم، وتركته آخر

كلمة نطقت بها "زينا" مصعوقاً ذاهلاً وهو يتنقل بين لحظة واخرى من النقيض إلى النقيض..

فقال لـ"زينا" في صوت يائس:

- إنني حمار يا "زينا" الغالية! آه.. ماذا.. حمار؟ بل أسوأ من حمار! ولكنني أستطيع يا "زينا" ان اعود رجلاً محترماً كما كنت!

وسكت "موجلياكوف" لحظة قصيرة كانت أنفاسه تتردد فيها بصوت مسموع، ثم قال مخاطباً الأمير:

- لقد خدعتك يا عمي الصغير! نعم.. أنا، أنا الذي خدعتك.. انك كنت لا تحلم، بل طلبت يد "زينا" الغالية حقاً! وقد خدعتك حين قلت لك ان هذا كان حلماً..

فقالت "ناتاليا ديمتريفنا" في صوت كالصفير:

- إن اموراً عجيبة بدأت تتكشف امامنا!

فأجاب الأمير على "موجلياكوف" قائلاً:

- بالطبع.. انه حلم! ط.. ط.. طمئن نفسك، ارجوك.. انك أ.. أ.. اخفتني بكلامك؟.. يا لصوتك الجميل!.. وانني على استعداد لأن أ.. أ.. اتزوج إذا لزم الامر، ولكنك أنت نفسك كنت تؤكد لي ان هذا ح.. ح.. حلم!

فقال "موجلياكوف":

- يا الهي! كيف ازيل هذه الفكرة من رأسك الآن؟ ما العمل؟. يا عمي الصغير.. فكر في ان الأمر يتعلق بمشكلة عائلية خطيرة..

فقال الامير:

- بالطبع! بالطبع.. إنني س.. س.. سأفكر في هذا الأمر انتظر.. دعني اتذكر ما ح.. ح.. حدث بالترتيب. فاني رأيت اولاً "فيوفيل".. الحوذي الذي يعمل عندي..

فقاطعه "موجلياكوف" قائلاً:

- ان الأمر لا يتعلق "بفيوفيل" يا عمي الصغير!

- بالطبع!.. ان الأمر لا يتعلق.. ثم كان هناك نا.. نا.. نابوليون.. وتناولنا الشاي حينئذ.. وجاءت سيدة وأكلت منا كل ما في إ.. إ.. إناء السكر.

ففقد "موجلياكوف" صوابه وقال فجأة:

- ولكن يا عمي الصغير.. انها "ماريا الكسندرفنا" التي كانت تقص عليك ذلك عن "ناتاليا ديمتريفنا"! وكنت أنا هنا مختبئاً وراء الباب فسمعت كل شيء.

وتلقفت "ناتاليا ديمتريفنا" عبارة "موجلياكوف" وصاحت تقول مخاطبة "ماريا":

- كيف؟ لقد قصصت على الأمير انني سرقت السكر من بيتك انني إذن احضر إلى بيتك لاسرق السكر؟.

فأجابتها "ماريا" قائلة بعد جهد كبير:

- إليكِ عني!..
- كلا، يا "ماريا".. ليس لك حق في ان ترفضي الاجابة عن سؤالي: هل اسرق السكر من عندك؟ انني اعرف انك تذكرينني بالسوء من زمن طويل.. هل اسرق السكر إذن من بيتك؟

فقال الأمير:

- ولكن.. يا سيدتي.. هذا السكر.. انه ح.. ح.. حلم.

وتمتمت "ماريا" تقول لـ"ناتاليا ديمتريفنا":

- أيتها البرميل الملعون!

فصاحت "ناتاليا" تقول بأعلى صوتها:

- آه! أنا برميل! وانت.. ماذا تكونين اذن؟ انك تدعينني هكذا من زمن طويل، وإن لي أنا على الاقل زوجاً بينما انت.. ليس لك إلا "لوحاً"!

فقال الامير:

- بالطبع.. انني اتذكر ايضاً كلمة البر.. بر.. ميل.

فقالت له "ناتاليا ديمتريفنا":

- كيف! وانت ايضاً.. تجرؤ وتسب سيدة نبيلة! أنا.. بر.. بر.. برميل، حسناً! وانت.. انك تنقصك سا.. سا.. ساق!

فقال:

- بالطبع!.. تنقصني سا.. سا.. ساق.. كيف؟

فقالت:

- نعم، ياك.. ك.. كسيح.. يا عديم الاسنان!

ثم تدخلت "ماريا" قائلة:

- وله عين زجاجية!

فقالت "ناتاليا ديمتريفنا" موجهة كلامها إلى الامير:

- وترتدي ك.. ك.. كورسيه بدلاً من الضلوع!

وقالت "ماريا:

- ووجهك كله "زمبلكات"!

وقالت "ناتاليا ديمتريفنا":

- وشعرك مستعار!..

وقالت "ماريا":

- وشاربك مستعار ايها الغبي!

فصاح الأمير مذهولاً:

- احترموا على الاقل أ.. أ.. انفي، فهو حقيقي!

ثم قال "موجلياكوف":

- يا عمي الصغير!...

فقال له الامير:

- كلا يا صديقي.. انني لم اعدا.. أ.. أستطيع ان ابقى هنا فخذني إلى اي مكان.. يا له من مجتمع! إلى اين أ.. أ.. أتيت بي يا الهي!

وصاحت "ماريا" قائلة:

- ايها الابله!.. ايها البائس!..

وتنهد الأمير المسكين قائلاً:

- آه! يا الهي! لم اعد أ.. أ.. اعرف لماذا اتيت إلى هنا.. ولكنني لن ألبث ان أتذكر لماذا ف.. ف.. فعلت ذلك. خذني من هنا يا اخي فانهم سيمزقونني!.. ثم انني في حاجة إلى ان ادون ف.. ف.. فكرة جديدة خطرت ب.. ب.. ببالي.

فقال له "موجلياكوف":

- تعال يا عمي الصغير، فليس الوقت متأخراً.. سأصحبك إلى احد الفنادق واظل معك هناك..

فقال الامير:

- بالطبع!.. اني ذاهب معك!.. وداعاً يا ابنتي الساحرة. أنت و.. و.. وحدك.. أنت وحدك تتصفين بالفضيلة! انك ف.. ف.. فتاة نبيلة.. هيا بنا يا ع.. ع.. عزيزي آه! يا الهي!

ولن أصف نهاية الحادث الكريه الذي اعقب خروج الامير، اذ انصرفت الزائرات وهن يصحن بأعلى اصواتهن!

وبقيت "ماريا" وحدها وسط الكارثة التي تسببت فيها. وا أسفاه، لقد ضاع منها الجاه والقوة والثروة والمجد.. وكل شيء في يوم واحد! وكانت

تدرك تماماً انها لن تنهض مرة ثانية من هذه الضربة، فلقد تلاشى الاستبداد الذي كانت تفرضه على بلدة موردا سوف خلال كل هذا الزمن الطويل، وماذا كان يتبقى لها؟..

لم تكن "ماريا الكسندرفنا" فيلسوفة، فقضت ليلة مروعة.. فـ"زينا" قد فقدت شرفها، وستدور حولهن الشائعات إلى ما لا نهاية، فيا للهول! يا للهول! يا للهول..

ويجب علي ان اذكر كمؤرخ مخلص ان "افاناسي" اخذ يرتجف طيلة الليل في الغرفة المظلمة التي كان قد لاذ بها..

ولم يأت اليوم التالي لهذه الاسرة بما يسر، فالمصائب عادة لا تأتي فُرادى!

الفصل الخامس عشر

اللقاء الاخير

ذاعت بالمدينة منذ الساعة العاشرة صباحاً شائعة يصعب تصديقها، وراح كل امرئ يرددها في مرح ملؤها الشماتة والشر كما يحدث على الدوام حينما يتعلق بفضيحة يكون ضحيتها صديق من أصدقائنا.. فكان الناس يقولون:

- هل فقدت حياءها إلى هذا الحد!..
- وانحدرت في الدناءة إلى هذه الدرجة؟!..
- وتحدَّت هكذا كل التقاليد المرعية؟!..
- يالها من اخلاق؟!..

وهذا هو ما حدث:

في الصباح الباكر، في نحو الساعة السابعة على ما اعتقد، دخلت بيت "ماريا" سيدة عجوز مسكينة ينطق وجهها بالكآبة والحزن، وتوسلت إلى الخادم ان توقظ بنفسها سيدتها في سرية تامة وباسرع ما تستطيع. وسرعان ما هرعت إليها "زينا" وقد تملكها الذعر. وهوت العجوز على قدمي الفتاة تقبلهما بالدموع، وراحت تتوسل إليها ان تأتي لترى "فاسيا" قائلة:

- انه قضى ليلة غاية في السوء! واعتقد انه لن يمر عليه هذا اليوم...

واضافت العجوز تقول إن "فاسيا" نفسه هو الذي يريد أن يرى حبيبة قلبه قبل أن يموت، وإنه يتوسل إليها باسم الماضي ان تفعل ذلك.. فان رفضت، فانه سيموت يائساً..

ورحلت "زينا" في الحال دون أن تُخطر أُمها.. فاخذت تجري في ضاحية من أفقر ضواحي مدينة مورداسوف. وهناك، في بيت صغير عتيق خَرِب، نوافذه عبارة عن فتحات في الجدران، وفي غرفة صغيرة منخفضة السقف كريهة الرائحة يزحم نصفها فرن كبير، كان يرقد على سرير من ألواح الخشب المغطاة بلحاف رقيق كالورق شاب يختفي تحت معطف عتيق مُهلهل. وكان وجهه شاحباً مشدوداً، وتلمع عيناه من وطأة الحمى، وكانت يداه جافتين شفافتين، ويتنفس بمشقة كبيرة ويعاني سكرات الاحتضار..

وعلى الرغم من أن المرض كان قد غيَّر شكله، فإنه كان لا يزال محتفظاً بمسحة من الجمال، وكان وجه هذا المحتضر يُثير الحزن عند رؤيته. وكانت امه العجوز لا تزال تعتقد حتى الأمس في شفائه، ولكنها ادركت اخيراً انها سرعان ما ستصبح وحيدة في هذا العالم. كانت هذه الام تعقد ذراعيها على صدرها وقد جفت عيناها وهي تتخيل وحيدها مستلقياً داخل القبر الاسود البارد في المدافن العتيقة المغطاة بالجليد..

وتطلع "فاسيا" إلى "زينا" فأشرق وجهه بالسعادة.. فها هو ذا اخيراً يرى حبيبته التي لم يرها منذ عام الا في احلامه خلال ليالي المرض الطويلة.. وادرك انها غفرت له بحضورها اليه.. وها هي ذي تتأمله بعينيها الجميلتين

وهي تبكي وتبتسم في وقت واحد . ومرة اخرى، تجسم الماضي كله امام عيني المحتضر، واستيقظت الحياة في قلبه كما لو كانت تريد ان تشعره بأن تركها محزن للغاية!

وقال لـ "زينا"...

- يا "زينا!.. يا "زينا" الغالية!.. لا تبكي.. لا تُذكريني بأنني سأموت. دعيني انظر اليك وأتأكد من انك غفرت لي. انني لن احس بالموت وانا أُقبل يديك.. لقد هزلت يا "زينا" العزيزة! ايتها الملاك الغالي.. انك تنظرين إليَّ بكل طيبة! اتذكرين كم كنت تضحكين في الماضي؟.. آه! يا "زينا"، انني لن اطلب منك الصفح.. ولا اريد حتى ان اتذكر ما كان، فانني لن أغفر لنفسي ما حدث مني. وكم من ليلة قضيتها بلا نوم يا "زينا"! وانا افكر واتذكر واندم! إن من الخير لي أن أموت، فلم اعد قادراً على الحياة.

وكانت "زينا" تبكي وهي تضم في صمت يدي حبيبها في يدها كما لو كانت تريد ان تمنعه من الموت..!

وتابع المريض حديثه قائلاً:

- لا تبكي اذن.. هل سأموت اليوم؟ لقد ماتت السعاة منذ زمن بعيد!.. انك اذكى واحسن مني، فانت تعرفين انني لست كفؤا لك.. آه! كم جعلتني هذه الفكرة أقاسي! آه يا صديقتي؟ لقد كانت حياتي حلماً.. انني لم اعش، بل كنت احلم، وكنت اكره الناس،

وكنت افخر فقط بطهارة قلبي ونبل عواطفي. ولكن ذلك كله كان لا يحدث الا في احلامي يا "زينا"!..

- كفى!.. كفى!.. انك تقتلني!..

- لا تقاطعيني يا "زينا".. انني اعرف انك غفرت لي، وربما كان ذلك منذ وقت طويل.. ولكنك وزنتيني وعرفت من اكون، وهذا هو ما يعذبني.. انني لا استحق حبك يا "زينا"! لقد كنت دائماً شريفة وكريمة، فذهبت إلى والدتك وصرحت لها في لهجة قاطعة بانك تريدين ان تتزوجيني، وكنت ستنفذين كلامك هذا، ذلك لان القول والعمل مرتبطان لديك، بينما أنا، أنا!.. أتعرفين؟ انني حتى هذا اليوم لم اكن قد ادركت مدى التضحية التي اقدمت عليها حينما قبلت ان تتزوجيني. ومع ذلك، فانك، وانت معي ـ ستعرضين نفسك للموت جوعاً! ولكن كان يبدو لي حينئذ انه ليس هناك عند المرأة ما يضارع زواجها بشاعر كبير في أوج شبابه.. هذا صحيح!

ولم أرد ان افهم السبب الذي دفعك إلى تأجيل زواجنا، فكنت اعذبك، وأوجه اللوم اليك، واحتقرك.. واخيراً، فانني كنت اهددك بهذا الخطاب، ولم اكن في تلك اللحظة شقياً فقط، بل وكنت كذلك شخصاً كريها منبوذاً!.. آه! لابد انك قد احتقرتيني كثيراً! كلا.. ان من الخير لي ان اموت!.. وكل شيء افضل هكذا.. والآن، على الاقل، طهرت قلبي الدموع المرة التي ذرفتها..

آه يا "زينا"! امنحيني جزءاً من حبك السابق، على الاقل في ساعتي الاخيرة هذه.. انني اعرف اني غير جدير بحبك، ولكن.. ولكن.. يا ملاكي!

كانت "زينا" تنظر إليه وهي تبكي، وكانت تحاول ان تقاطعه، ولكنه كان يستمر في حديثه وهو يتوسل إليها الا تفعل ذلك بحركة منه. وكان صوته الضعيف المختنق يمزق قلبها..

قالت له:

- لو انك لم تقابلني، لما احببتني وقاسيت آلام المرض بسببي.. آه! لماذا.. لماذا تقابلنا؟

- كلا، يا صديقتي.. كلا! لا تلومي نفسك، فهذا خطئي أنا وحدي. وسبب ذلك الكرامة والرومانتيكية!.. هل قص عليك احد يا "زينا" قصتي الحمقاء؟.. انه كان يوجد هنا منذ ثلاث سنوات مضت قاطع طريق بائس، حُكم عليه بالاعدام.. فلما حل يوم القصاص، تخلت عنه الشجاعة. ولما كان يعلم ان العرف يحرم إعدام المريض، حصل على بعض النبيذ وأذاب فيه شيئاً من الطباق، وغلاه فوق الموقد ثم شربه، فشعر بقيء شديد، وانتهى به الأمر بأن اخذ يبصق الدم واتلف رئتيه، فنقلوه إلى المستشفى، وبعد ذلك بفترة من الزمن مات مصدوراً..

حسناً.. لقد تذكرت قاطع الطريق هذا يوم وقع حادث الخطاب، وصممت على ان انتهي بنفس الطريقة. ولما اخترت مرض الصدر بالذات؟.. لماذا لم اشنق نفسي او انتحر غرقاً؟.. هل كان ذلك لاني احسست بالخوف من ان اموت ميتة مفاجئة؟.. ربما كان ذلك. ولكنه يبدو لي ان احلامي

الرومانتيكية كان لها دخل في هذا الشأن، فانني كنت افكر قائلاً في نفسي على الدوام: كم سيكون جميلاً ان اكون طريح الفراش كما أنا الآن واموت بمرض الصدر! وكدت اتخيلك جالسة إلى جواري وانت تتألمين لفكرة انك أنت السبب في مرضي، فكنت اراك تهرعين اليَّ نادمة وتركعين إلى جوار فراشي، وانا اغفر لك ذلك واموت بين ذراعيك.. هذا غباء يا "زينا"! فقالت له بصوت مخنوق:

- انس كل ذلك، ولا تتكلم عن اخطائك بعد الآن، فانك تبالغ لنفسك بشأن خطئك.. لنفكر فقط في اللحظات الطيبة وفي الايام السعيدة.

- انني حانق على نفسي يا صديقتي، ولهذا اتحدث في هذا الامر، فانني لم أرك منذ ثمانية عشر شهراً، اريد ان افرغ كل ما في قلبي!.. وكنت وحيداً اثناء كل ذلك الوقت، ولم تمر لحظة واحدة لم افكر اثناءها فيك يا صديقتي، وكنت اريد ان افعل اي شيء لاستعيد احترامك لي..

وكف "فاسيا" عن الكلام لحظة ليلتقط انفاسه، ثم استطرد قائلاً:

- وكنت حتى آخر لحظة لا اعتقد انني ساموت.. ولم الزم الفراش في الحال، بل لبثت وقتاً طويلاً اخرج وصدري مصاب.. وكم راودتني من احلام تُثير السخرية! فكنت اعتقد في بعض الاحيان انني شاعر كبير، او انني انشر قصيدة لم ينشر احد قط مثلها من قبل في العالم، وانه لم يخلق ابداً عبقري مثلي في نظم الشعر. وكنت اظن انني اصبح

في القصيدة كل عواطفي واسكب فيها روحي كلها، فاكون هكذا معك على الدوام وحيثما كنت، فكانت اشعاري ستجعلك تذكرينني، وكان حلمي الوحيدا انني كنت اعتقد انك ربما تقولين في نفسك آخر الامر: "كلا، انه ليس رديئاً إلى الحد الذي كنت اعتقده".. ان هذا غباء يا "زينا".. ان هذه حماقة، اليس كذلك؟

- كلا.. كلا يا "فاسيا"..

وانحنت على صدره لتقبل يديه..

واستمر "فاسيا" في حديثه، فقال:

- وكم كانت الغيرة تعذبني اثناء كل هذا الوقت! وكنت سأموت لو انني سمعت خبر زواجك، فانني كنت اراقبك واتجسس عليك..

- واشار إلى امه، وكانت هي التي تذهب لتفعل ذلك، ثم قال لـ"زينا".

- انك لم تحبي ابداً "موجلياكوف".. اليس كذلك يا ملاكي هل ستذكرينني بعد ان اموت؟ انني اعرف انك ستفعلين، ولكن الاعوام ستمر، ويبرد قلبك، ويغزو الشتاء روحك.. وسوف تنسينني يا "زينا"!...

فأسرعت تقاطعه قائلة:

- كلا، كلا.. ابداً! لن اتزوج احداً من بعدك، فأنت اول وآخر حب لي..!

- كل شيء يموت يا "زينا" الغالية، كل شيء .. حتى الذكرى، وحتى انبل العواطف، ويحل محلها نوع من الحكمة الباردة يجعل الندم يهدأ .. فلماذا نثور؟ انتهزي فرصة الحياة، وأحبي، وكوني سعيدة .. أحبي احد الأحياء .. لماذا تحبين مَن فقد الحياة؟ ومع ذلك، فلا تنسيني كلية! .. لقد صادفتنا اوقات حلوة في مقابل الساعات العصيبة .. آه! لقد زالت الايام الحلوة، إلى الابد .. انصتي إليَّ يا "زينا" .. لقد احببت دائماً غروب الشمس .. كلا، لماذا اموت؟ آه! اريد ان اعيش! اريد ان اعيش! تذكري الربيع! والزهر! والشمس المشرقة الجميلة! لقد عشنا في سعادة فترة من الزمن .. والآن، انظري! انظري! ..

كان المريض يشير بيده الشفافة إلى الزجاج الذي اظلم بسبب الجليد المتراكم، ثم امسك بيدي "زينا" في يديه وانخرط في بكاء مرير، وكان البكاء يمزق صدره المحطم!

وانقضى النهار كله على هذا النحو، فكانت "زينا" تقول له أنها لن تنساه ابداً، وانها لن تحب ابداً قط كما احبته، وكان هو يصدقها .. ويبتسم لها .. ويقبل يديها ..

وكانت "ماريا" اثناء ذلك تشعر بقلق شديد وقد ارسلت تستدعي ابنتها اكثر من عشر مرات متوسلة إليها ان تعود والا تضع نفسها اكثرمن ذلك في رأى الناس. وأخيرا، عند الغسق، صممت ــ وقد افقدها الخوف

صوابها ــ على ان تذهب بنفسها لاحضار ابنتها، ورجتها وهي جاثية ان تعود معها.. ولكن بغير جدوى، فخرجت الأم من غرفة المريض المحتضر وقد تملكها اليأس!

كانت "زينا" مصرة على قضاء الليل إلى جوار "فاسيا" فلم تبتعد عن فراشه. وكانت حالة المريض تسوء بوضوح بين لحظة واخرى، ولما لاح الصباح، صار يتنفس في جهد جهيد. ومع ذلك، فانه عاش نهاراً آخر بأسره.. ولكن، حين غربت الشمس، فاضت روحه مع اختفاء آخر شعاع من اشعتها..

وفي تلك اللحظة وقع حادث رهيب، اذ ارتمت الام العجوز على جثة ابنها المسجاة على الفراش، والتفت نحو "زينا" وصرخت قائلة:

- انك أنت التي أضعتيه أيتها الملعونة!..

ولكن "زينا" كانت لا تسمع شيئاً؛ إذ كانت متصلبة كتمثال فاقد الحس، وكأنها هي أيضاً قد فارقتها الروح!.. وأخيراً، انحنت على الميت ورسمت فوقه علامة الصليب، ثم قبلت جبينه وخرجت من الغرفة..

كانت "زينا" كالمجنونة من جراء كل هذه الاحاسيس الرهيبة. ومن جراء هاتين الليلتين اللتين قضتهما بلا نوم.. ثم انها كانت تشعر بانها على وشك ان تقبل على حياة جديدة محزنة تتهددها..

وما كادت تسير خطوات حتى برز "موجلياكوف" أمامها كما لو كانت الارض قد انشقت وخرج منها!

تلفت "موجلياكوف" حوله وقال لها في خجل:

- يا "زينا" الغالية.. يا "زينا".. انني حمار!.. كلا، اعني انني لست حماراً.. اذ انني تصرفت تصرفاً نبيلاً على الرغم من كل شيء.. ولكنني غبي، وانا نادم على ذلك.. اعتقد انني اتخبط يا "زينا" الغالية، فاصفحي عني بسبب كل هذه الاحداث.

كانت "زينا" تنظر إليه بطريقة لا شعورية وهي تواصل طريقها في صمت. ولما كان لا يستطيعان السير معاً على الرصيف جنباً إلى جنب، فقد نزل "موجلياكوف" وأخذ يسير بمحاذاتها على ارض الشارع..

وتابع "موجلياكوف" حديثه قائلاً:

- يا "زينا" الغالية.. انك لو اذنت لي، فانني على استعداد لان اجدد طلبي.. انني على استعداد لان انسى كل شيء، وان اصفح عنك، ولكن بشرط واحد: هو ان يظل كل هذا سراً في الوقت الحاضر.. انك ستغادرين هذه المدينة باسرع ما تستطيعين، وسأتبعك سراً، ثم نتزوج في اي مكان آخر دون ان يعرف احد ذلك، وبعد ذلك نذهب إلى بطرسبورج.. و.. هل تقبلين يا "زينا"؟ تكلمي بسرعة، أرجوك.. انني لا أستطيع الانتظار، فقد يرانا احد معاً.

فلم تجبه "زينا" بل نظرت إليه فقط، وسرعان ما ادرك معنى هذه النظرة، فحياها وما لبث ان اختفى في أول زقاق قابله.

وفكر "موجلياكوف" في نفسه قائلاً: "ماذا اذن؟ انها منذ يومين كانت تتهم نفسها بكل الاخطاء، وها هي ذي الآن.."

كانت الاحداث اثناء ذلك تتوالى بسرعة في مدينة مورداسوف.. فالأمير الذي اصطحبه "موجلياكوف" إلى احد الفنادق اصيب في نفس الليلة بمرض خطير، علم سكان مورداسوف ذلك في الفجر. وكان "كاليست ستانزلافتش" لا يفارق الأمير المريض. وفي المساء، انعقد "كونسلتو" من كل اطباء المدينة، وكان الأمير يهذي ويطلب من "كالسيت" ان يغني له قصيدة غزل معينة، وكان يتحدث عن "الباروكة" والشارب المستعار، ويصيح فجأة صيحات ملؤها الذعر!

وقرر الاطباء انه مصاب بالتهاب في المعدة سببه كثرة الطعام والشراب نتيجة لكرم اهل مورداسوف، وان هذا الالتهاب قد انتقل من المعدة إلى الرأس بطريقة عجيبة لا يعرفها الاطباء!.. وكانوا يقولون ايضاً انه مصاب بهزة عصبية. ومن ناحية اخرى، لم ينس الاطباء ان يذكروا انه كان على وشك الموت منذ زمن طويل، ومن ثم فانه سيموت. وبدا هذا الافتراض الاخير صحيحاً، اذ مات الشيخ القصير المسكين في مساء اليوم الثالث..

ذُهل كل سكان مورداسوف لنبأ وفاة الأمير غير المنتظرة، وهرعوا فُرادى وجماعات إلى الفندق. وكانوا يتناقشون ويهزون رؤوسهم وانتهى بهم الأمر بان اتهموا مباشرة "قتلة الأمير المسكين" ملمحين بهذا إلى "ماريا" وابنتها!

ولم يعد "موجلياكوف" يدري ماذا يفعل، اذ كان موقفه خطيراً حقاً: أوَ لم يصحب الأمير إلى البيت "ماريا الكسندرفنا"؟ أوَ لم يصطحبه كذلك إلى الفندق؟.. انه كان لا يدري ماذا يفعل بالجثة واين يدفنها، ومَن الذين يخطرهم بوفاة الامير. وفوق هذا، فنظراً لانه كان يعتبر ابن اخ بالنسبة للامير، فقد كان يرتجف خوفاً من ان يتهمه الناس بقتل الشيخ المحترم!

وفجأة.. تغير كل شيء، اذ وصل إلى المدينة ذات صباح مسافر مجهول، فهرع كل سكان مورداسوف إلى النوافذ واخذوا يتحدثون عنه. ولم يكن هذا المسافر سوى الأمير "شيتشيبلوف" المعروف، قريب الأمير الميت، وهو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، يرتدي زي كولونيل وشارة اركان الحرب، فكان الجميع يبدون نحوه احتراماً ملؤه الرعب..

وجن جنون محافظ الشرطة لهذا الامر، وسرعان ما عرف ان هذا الأمير الكولونيل قدم من بطرسبورج ومر بقرية دوخانوف، فلما لم يجد بها احداً تبع الأمير إلى مورداسوف حيث فوجئ بالنبأ المشئوم، وسرعان ما تولى الأمر بنفسه.. وانسحب "موجلياكوف" في حالة ذليلة حيال ظهور ابن اخ الميت الحقيقي..

ونقلت جثة الأمير الميت إلى الدير. وفي اليوم التالي، اجتمعت هناك المدينة بأسرها لحضور القداس الجنائزي، وكانت السيدات يتناقلن ان "ماريا الكسندرفنا" ستأتي بنفسها إلى الكنيسة، وتطلب الغفران امام التابوت وبصوت مرتفع وان التقاليد تحتم ذلك. وغني عن البيان أن "ماريا" لم تظهر على الاطلاق!

كانت "ماريا" قد اصطحبت "زينا" إلى الريف. اذ رأت ان الموقف في المدينة اصبح لا يحتمل. وكانت وهي في قريتها تجمع اخبار مورداسوف في قلق ووجل وترسل خدمها إلى هناك للاستعلام والاستفسار.

وكان الطريق الموصل من الدير إلى قرية دوخانوف يمر على مسافة كيلومتر واحد تقريباً من بيت "ماريا" الريفي، فاستطاعت إذن ان ترى الجنازة وهي تمر. وكان التابوت قد وضع على عربة كبيرة من عربات نقل الموتى، وكان يسير خلفه عدد ضخم من المشيعين وسار هذا الموكب البطيء وقتاً طويلاً بين الحقول البيضاء من الجليد.

وبعد ذلك بثمانية ايام، رحلت "ماريا" إلى موسكو مع ابنتها وزوجها وعرضت قريتها وبيتها في مورداسوف للبيع..

وهكذا، فقدت مورداسوف إلى الابد سيدة محترمة من سيدات المجتمع..

ولم يحدث ذلك بلا شائعات رددها الناس، اذ كانوا يؤكدون ان "افاناسي" كان معروضاً للبيع في القرية!!..

وانقضى عام، وتلاه عام آخر، ونسي الناس "ماريا الكسندرفنا"..

ومع ذلك، فانهم كانوا يتناقلون انها اشترت قرية اخرى في اقليم آخر، وان عاصمة مقاطعة اخرى سترتعد بين يديها القويتين، وان "زينا" ستظل على الدوام "معروضة للزواج.

ولكن، ينبغي الا نردد هذه الشائعات الغامضة، فكل ذلك غير صحيح..

لقد كتبت هذه السطور الاخيرة من ثلاث سنوات مضت.. ومن كان يدور بخلده انني سأفتح هذا المخطوط مرة ثانية لأُضيف إليه صفحات قليلة اخرى.

ولكن هذا هو ما حدث..

وانني أبدأ بـ"بافيل موجلياكوف"..

لقد رحل إلى بطرسبورج بعد ان غادر مورداسوف، وحصل هناك على الوظيفة التي كان يُمني بها نفسه منذ زمن طويل.. وسرعان ما اندمج في المجتمع وشارك في الدسائس، وارتفع إلى المستوى النفسي للمجتمع الراقي في عصره. وأحب من جديد، وطلب يد حبيبته الجديدة، فواجه رفضاً آخر، ولكنه لم يستطع ان يهضم هذا الرفض، فطلب ان يشترك في بعثة ارسلت كحملة تأديبية إلى جهة من ابعد جهات بلادنا المترامية..

وعبرت هذه الحملة الغابات والصحارى في سلام، بلغ "موجلياكوف" اخيراً عاصمة هذه البلاد البعيدة بعد سفر طويل.. واستقبله الحاكم هناك، وكان ضابطاً برتبة جنرال..

كان هذا الحاكم رجلاً طويل القامة، نحيل الجسم، قاسي المظهر، وهو جندي قديم جرح في عدة معارك، ويزين صدره وسامان وصليب ابيض. وقد دعا بعض رجال الحملة ومن بينهم "موجلياكوف" إلى حفل راقص كبير مساء يوم وصولهم..

كان "بافيل" يشعر بسرور بالغ، وكان يرتدي زي بطرسبورج الذي كان يعتمد عليه ليحدث تأثيراً كبيراً. ودخل القاعة الكبيرة وهو منتفخ الاوداج، ولكنه سرعان ما وقع في الحيرة والارتباك حين رأى كل تلك الازياء العسكرية التي تدل على اعلى الرتب. وكان عليه ان يذهب لتحية زوجة الحاكم، وكان يقال إنها شابة رائعة الجمال..

اقترب "موجلياكوف" بخفة وفتح فمه لينطق بالتحية، ولكنه جمد فجأة وقد تصلب من فرط الذهول.. كانت "زينا"تقف امامه في فخر وكبرياء، وهي جميلة للغاية وترتدي ثياب السهرة، ومزينة بأثمن الجواهر. ولم تتعرف على "بافيل" ولم يقف نظرها على وجهه، فعاد إلى جمهور المدعوين وعلم من احد الشبان اموراً تهمه للغاية..

فقد علم ان الحاكم قد تزوج من عامين اثناء سفرة إلى موسكو..تزوج فتاة ثرية جداً ومن اسرة ممتازة، وأن زوجة الحاكم هذه غاية في الترفع والكبرياء، ولا ترقص الا مع من يحملون رتبة "الجنرال"، وكان هناك بالحفل تسعة منهم، ومعها أمها، وهي سيدة لامعة الذكاء، ومن ارفع الارستقراطيات، ولكنها تخضع لإرادة ابنتها. ومن جهة اخرى، فان الجنرال الحاكم كان يشعر نحو زوجته بتقدير بالغ..

وسأل "موجلياكوف" عن "افاناسي" ولكن احداً لم يكن يعرفه في هذه البلاد البعيدة!

ولما افاق "موجلياكوف" بعض الشيء من ذهوله، قام بجولة في الصالونات، فلمح "ماريا" وهي ترتدي افخر الثياب وتتبادل الحديث في حماس مع شخصية هامة، وكانت تتزاحم من حولها سيدات كثيرات يطلبن رضاها. وكانت "ماريا" لطيفة مع الجميع..

وخاطر "موجلياكوف" وقدم نفسه اليها، فأحست "ماريا" بشبه انتفاضة، ولكنها سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها، وسألته عن اخبار

بعض اصدقائه في بطرسبورج ، ولكنها لم تشر إلى مورداسوف بكلمة واحدة كما لو كانت هذه المدينة لا وجود لها . .

واخيراً ، سمعت "ماريا" اسم امير لا يعرفه "موجلياكوف" فأشاحت عنه بوجهها بلا تكلف ووجهت الحديث إلى شخصية من الشخصيات الكبيرة كان ذا شعر اشيب معطر ، وبدا بعد ذلك بلحظة انها نسيت "بافيل" تماماً ، وكان يقف إلى جوارها كالابله . .!

وعاد "موجيلاكوف" إلى القاعة الكبرى وهو يمسك بقبعته في يده ويبتسم ابتسامة ساخرة . ولست ادري لماذا كان يعتبر انه قد أُهين، ولم يشأ ان يشارك في الرقص، وكان يعلو وجهه حزن وشرود ، وترتسم على شفتيه ابتسامة شيطانية! فاستند بمرفقه إلى احد الاعمدة الجميلة في القاعة كما لوكان يفعل ذلك عن عَمد . وظل واقفاً في نفس الموضع طيلة السهرة لساعات متوالية وهو يتابع "زينا" بعينيه . .

ولكن ، وا أسفاه! لم تنجح كل حيله ومنظره الحزين ومظهره الرومانتيكي المصدوم . . فلم تلاحظه "زينا" .

واخيراً ، استولى عليه اليأس وشعر بتعب شديد ، وتصلبت قدماه من جراء وقوفه بلا حركة لوقت طويل . وكان يحس بالجوع لانه لم يكن قد تناول طعام العشاء عمداً كي يلعب بطريقة افضل دور العاشق الولهان الحزين . وعاد إلى بيته مقهوراً خائر القوى . . وظل وقتاً طويلاً يفكر في الماضي قبل ان ينام . .

ومنذ اليوم التالي، سعا كي يعود إلى بطرسبورج في مهمة.. وعاد الصفاء إلى نفسه حين غادر المدينة التي كانت تقيم فيها "زينا".. وكان يرى في الافق البعيد الفضاء الذي لا نهاية له، والصحراء المترامية، والجليد الذي تسوده الغابات. وكانت سنابك الخيل تدوي في الفضاء ويمتزج وقعها برنين الاجراس المعلقة في رقابها. وبقي "بافيل" لحظة مفكراً، واخيراً استغرق في نوم هادئ.. ثم استيقظ عند ثالث محطة لتغيير الخيل وهو اوفر نشاطاً، ومنتعشاً.. ومشغولاً بافكار اخرى..

* * *